الجريمة والعقاب

فيودور دوستويفسكي

- Author : FyodorDostoevsky
- Title: Crime and Punishment ...
- Translated by: Hassan Mahmoud
- Afaq‚s first edition: 2017
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashir
- General Supervisor : Tarek Hashim

- المؤلف: فيودور دوستويفسكي
- العنوان: الجريمة والعقاب
- ترجمة: حسن محمود
- طبعة آفاق الأولى 2017
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- الإشراف العام: طارق هاشم

رقم الإيداع:
١٩٩٨٤ / ٢٠١٦
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977- 765 - 070 - 0

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced‚ stored in a retrieval system‚ or transmitted in any form‚ or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة– من شارع محمود بسيوني – ميدان طلعت حرب– القاهرة – جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ – ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ – موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

فيودور دوستويفسكي

الجريمة والعقاب

رواية

ترجمة

حسن محمود

مراجعة

علي أدهم

الجزء الثاني

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

دوستويفسكي، فيودور.

فيودور دوستويفسكي : الجريمة والعقاب – ترجمة: حسن محمود

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2017

392 ص، 20 سم.

رقم الإيداع 19984 / 2016

الترقيم الدولي 0 – 070 – 765 – 977 – 978

1 – الأدباء

2 – دوستويفسكي، فيودور

هذه ترجمة الجزء الثاني من كتاب:

CRIME AND PUNISHMENT

By

FYODOR DOSTOEVSKY

القسم الرابع

(١)

حدث رسكولنكوف نفسه مرة ثانية: «ألا يزال هذا حلمًا؟».

وأخذ ينظر في حذر وريبة إلى الزائر غير المنتظر.

وقال آخر الأمر في صوت عال ينم عن الدهشة: «سفدريجايلوف! يا له من سخف! هذا أمر لا يكون».

على أن الزائر لم يبد عليه ما ينم عن دهشته لهذا القول.. ومضى قائلًا: «لقد جئت لزيارتك لسببين، أولهما التعرف إليك إذ طالما سمعت عنك من الثناء ما يثير الاهتمام، وثانيهما أني آمل أنك لا تأبى مساعدتي في أمر يتصل اتصالًا وثيقًا بصالح أختك أفدوتيا رومانوفْنا، إذ إنها قد لا تسمح لي بالاقتراب منها الآن من غير معونتك لأنها متحاملة عليّ. ولكني أرجو بمعونتك أن..».

فقاطعه رسكولنكوف: «إنك مخطئ فيما قدرته».

فقال الرجل: «هل لي أن أسألك عما إذا كانت السيدتان لم تصلا إلا بالأمس؟».

فلم يرد عليه رسكولنكوف.

ومضى الرجل قائلًا: «إني أعلم أنهما وصلتا بالأمس، وأنا لم أصل إلا في اليوم السابق، فهل لك أن تستمع إلى ما جئت لأقوله لك يا روديون رومانوڤتش؟ فليست بي من حاجة إلى الدفاع عن نفسي، ولكني أحب أن تتفضل عليّ فتخبرني أي شيء على وجه التحديد يعد جرمًا فيما قمت به في كل هذا الأمر متجنبًا التحامل في حديثك ومتوخيًا الرشد فيه..».

فاستمر رسكولنكوف ينظر إليه في صمت..

ومضى الرجل قائلًا: «قد تقول إني اضطهدت في داري فتاة لا نصير لها وأهنتها بما عرضت عليها من مقترحات مزرية.. أليس هذا ما يمكن أن تقول؟ هاأنذا أسبقك.. ولكن تذكر أني إنسان، وأن الإنسان غير معصوم.. ومجمل القول إني عرضة للفتنة مستهدف للحب، وهو أمر لا يتوقف على الإرادة.. فإذا أنت ذكرت هذا لم يصعب عليك أن تحمل كل ما كان مني على محمل طبيعي لا غرابة فيه. والمسألة هي: هل أنا وحش أو أنا ضحية؟ وماذا يكون لو أني ضحية؟ وإذا أنا عرضت على من هويتها أن تفر معي إلى أمريكا أو سويسرا فقد أكون مضمرًا لها أشد الاحترام في نفسي، وقد يكون ما جال بفكري هو أنني كنت أعمل على ضمان سعادتنا المتبادلة! إنك تعلم أن العقل أسير الهوى، ولعلني أسأت إلى نفسي أكثر من إساءتي

إلى غيري».

فقاطعه رسكولنكوف في اشمئزاز قائلًا: «ليست هذه هي المسألة، فهي لا تزيد على أننا نمقتك سواء كنت مخطئًا أو مصيبًا، وأننا لا نريد أن يكون لنا شأن معك، بل نشير إليك نحو الباب.. فلتخرج!».

فاندفع سفيدريجايلوف فجأة في الضحك، وقال وهو يضحك بملء فيه ضحكًا صريحًا: «ولكنك.. ولكن لا سبيل للاحتيال عليك.. لقد أردت أن أخدعك ولكنك قطعت عليّ السبيل إلى الغاية قصدًا..».

فقال الفتى: «ولكنك لا تزال تحاول خديعتي..».

فصاح سفيدريجايلوف وهو يضحك في صراحة: «وماذا عليّ لو فعلت؟ ماذا تأخذ عليّ في ذلك؟ إن هذا ما يسميه الفرنسيون «الحرب الصالحة».. وهو أكثر أنواع الخداع براءة من الخبث. ومع ذلك فإنك قطعت عليَّ حديثي، وسأعيده عليك بهذه الطريقة أو بأخرى: لم يكن ذلك الأمر ليعقب أذى لولا ما حدث في يوم الحديقة، فإن مارفا بتروفنا..».

فقاطعه رسكولنكوف في خشونة قائلًا: «إنك تخلصت من مارفا بتروفنا أيضًا! هذا ما يقوله الناس عنك..».

قال الرجل: «وبلغك هذا أيضًا؟.. ولكن لا عجب في ذلك، إذ كان لا بد لك أن تسمع به... أما سؤالك فإني لا أدري بماذا أجيبك عنه، وإن كنت مرتاح الضمير إلى كل ما كان. ولا تحسبن أني أخشى شيئًا من ورائه، فقد كان كل شيء على ما ينبغي له إذ أثبت الفحص الطبي أن وفاتها كانت بسبب نوبة أصابتها لاستحمامها على أثر أكلة ثقيلة وشرب زجاجة من

نبيذ، وما كان لهذا الفحص أن يسفر عن غير هذا! ولكني أخبرك بما كنت أفكر فيه منذ حين، لا سيما وأنا بالقطار في طريقي إلى هذه المدينة.. كنت أسأل نفسي: ألم يكن لي يد في تبعة هذه الكارثة، سواء بإثارة غضب زوجتي أو بشيء من هذا القبيل؟ إلا أني خرجت من تساؤلي بأنني لا دخل لي في هذا الأمر أيضًا ولا محل لأن أجادل نفسي فيه..».

فضحك رسكولنكوف وقال: «يدهشني أنك تجهد نفسك في التفكير فيه!».

قال الرجل: «وما يضحكك في هذا؟ ألا فاعلم أني ضربتها ضربتين بخيزرانة ولكنهما لم تتركا أي أثر في جسدها! ولا يذهبن بك الظن إلى أنني رجل جامد الحس، فإني أعرف حقًا أن ذلك كان مني فظاعة وقسوة وما إلى ذلك... ولكني أعلم أيضًا حق العلم أنه كان من المحتمل إلى حد كبير أن تكون مارفا بتروفنا قد سرتها شدتي.. ولقد استغلت حادثة أختك إلى آخر قطرة، واضطرت مارفا بتروفنا في الأيام الثلاثة الأخيرة إلى أن تلزم المنزل، إذ لم يبق لها ما تظهر به لأهل البلدة، وقد ملوا قراءة الرسالة، ولعلك سمعت عن قراءتها لتلك الرسالة.. وقد نزلت عليها الضربتان كأنما هبطتا عليها من السماء.. فكان أول عمل لها أن أمرت بإعداد المركبة للخروج.. ولا حاجة بي إلى أن أحدثك عن النساء اللاتي يجدن أكبر المتعة فيما يقع عليهن من إهانة، وإن كن يظهرن الغضب والأنفة، فالأمثلة على ذلك يعرفها كل فرد، بل إن الإنسان على وجه عام يحب أن يهان. ولست أدري ألاحظت هذا أم لم تلحظه؟ ولكن هذا الطبع أكثر تأصلًا في النساء، حتى ليمكن أن يقال إن الإهانة سلوتهن الوحيدة!».

وكان رسكولنكوف يخطر له أثناء ذلك الحديث أن يقوم من موضعه فيخرج ليتخلص من ذلك المجلس، ولكن حب الاستطلاع- أو هو نوع من الحذر- جعله يملك نفسه حينًا، وسأل في غير عناية: «ألك ولع بالمصاولة؟».

فأجابه سفيدريجايلوف في هدوء: «كلا! لست كثير الولع بها، وقلما تشاجرت مع مارفا بتروڤنا.. وقد عشنا في وئام تام، وكانت دائمًا راضية عني ولم أستعمل معها السوط إلا مرتين في سبع سنوات عشناها معًا.. هذا إلى مرة ثالثة يحيط بها شيء من الغموض.. أما المرة الأولى فكانت بعد شهرين من زواجنا عقب حلولنا في الريف، وأما المرة الأخيرة فكانت في هذه المناسبة التي ذكرتها لك.. فهل حسبت أنني كنت وحشًا رجعيًا أو نخاسًا؟.. ها! ها! وبهذه المناسبة، هل تذكر يا روديون رومانوڤتش ما حدث منذ بضع سنوات في الزمن السعيد الذي كانت فيه للصحف حرية القول، إذ حملت الصحف حملة عنيفة على سيد من الأعيان- لست أذكر اسمه- فجللته بالعار لأنه ضرب بعصاه امرأة ألمانية في قطار؟ أتذكر هذا؟.. كان ذلك في تلك السنة وفي تلك الأيام التي قامت فيها الصيحة عن «فضيحة هذا العصر».. أقصد أيام كان الجمهور يقرأ قصة الليالي المصرية.. أتذكر ذلك؟ أيام العيون السود.. يا لها من أيام غراء تولت مع الشباب! وأما السيد الذي ضرب الألمانية فإني لا أعطف عليه، إذ لا حاجة إلى العطف.. ولكني مع هذا يجب أن أقول إن بين الألمان من يثيرون الإنسان حتى لا يملك نفسه ولو كان من أكثر الناس تقدمًا وتحررًا في آرائه. ولكن الناس لم ينظروا عندئذ إلى الحادث من هذ الناحية، ولا جرم إنها

الناحية الإنسانية الحقة!».

ولما فرغ الرجل من قوله عاد إلى الضحك فجأة، وتبين لرسكولنكوف أنه رجل خطير ممن إذا اعتزموا أمرًا لم يتزحزحوا عنه أبدًا... وسأله قائلًا: «أغلب ظني أنك قضيت عدة أيام لم تخاطب فيها أحدًا».

فأجاب الرجل: «لم أكن أخاطب إنسانًا، ولعلك تعجب إذ تجدني رجلًا متوددًا ألوفًا!».

فقال الفتى: «لا! بل يدهشني فيك أنك تبالغ في التودد والتألف».

فأجاب الرجل: «أتعجب لأني لم أغضب لما تنطوي عليه أسئلتك من جفاء؟ أهذا هو سر عجبك؟ ولكن فيم الغضب؟ لقد سألتني فأجبت..».

وكان سفيدريجايلوف يقول ذلك في بساطة بالغة عجيبة، ثم تابع الحديث وكأنه يحلم: «ألا فاعلم أني لا أكاد أجد أمرًا يستحق اهتمامي، لا سيما الآن.. وليس لي ما يشغلني فأذهب، ولك أن تزعم أني أترضاك لغرض ولا سيما بعد أن أبديت لك رغبتي في أن أرى أختك لأمر ما. ولكني أعترف لك صراحة أن الملل بلغ مني كل مبلغ، وبخاصة في الأيام الثلاثة الأخيرة، ولهذا تجدني مغتبطًا لرؤيتك، فلا تغضب يا روديون رومانوفتش إذا قلت إن في مظهرك غرابة.. وقل ما شئت فإن بك همًا ثقيلًا يقض مضجعك الآن، ولا أعني هذه اللحظة نفسها بل الآن بالمعنى الأعم الأوسع... لن أقول لك أكثر من هذا فلا تتجهم هكذا، وما أنا بالرجل الفظيع كما يخيل إليك..».

فنظر إليه رسكولنكوف في وجوم ثم قال: «لعلي لا أظنك فظيعًا! بل

يلوحَ لي أنك رجل أديب مهذب، أو لعلك على الأقل تعرف أن تظهر بهذا المظهر في الوقت المناسب».

فأجاب سفدريجايلوف في جفاء وفي شيء من الكبرياء: «لست أهتم كثيرًا بما يظن بي الناس، ولهذا لا آنف من أن أسِّف أحيانًا أو أتبذل عندما يكون الإسفاف والتبذل رداء مناسبًا لجونا.. ولا سيما أن بي ميلًا طبيعيًا إلى ذلك!». ثم أعقب قوله هذا بضحكة أخرى.

قال رسكولنكوف: «سمعت أن لك أصدقاء كثيرين هنا! أو كما يقولون لست خاليًا من العلاقات. فماذا تريد مني إذن؟ إلا أن يكون لك غرض خاص!».

فأجاب الرجل: «صدقت.. إن لي أصدقاء هنا». ولكن جوابه أغفل أهم ما في السؤال، ومضى قائلًا: «لقد قابلت بعضهم، إذ قضيت هذه الأيام الثلاثة أتجول في المدينة، فرآني البعض منهم أو رأيتهم، وهذا أمر طبيعي، فإني رجل حسن البزة ولست ممن يعدون من الفقراء، ولا من الذين أثر في مركزهم تحريم الرق؛ لأن أكثر أملاكي من الغابات والغياض فلم ينقص دخلي منها، ولكن... لن أزور هؤلاء الأصدقاء، فقد مللتهم من زمن بعيد، وما زرت أحدًا منهم في هذه الأيام الثلاثة التي قضيتها هنا.. وأعجب أي مدينة هذه! وبحقك خبرني كيف نشأت في الوجود؟ إنها مدينة موظفين وطلبة من كل صنف، ولعمري إن فيها الكثير مما لم أعهده عندما كنت هنا منذ ثماني سنوات أشق طريق الحياة. وأيم الحق إنه لم يبق لي من أمل إلا في التشريح. وأقسم أنه كذلك..».

– التشريح؟!

فلم يبال الرجل بسؤاله ومضى قائلًا: «أما النوادي والمطاعم وأماكن القمار والاستعراضات وما تسمونه «التقدم» فإن كل هذا يمكن أن يسير بغيري، وفضلًا عن ذلك فمن ذا الذي يود أن يكون من المخادعين في لعب الورق؟».

– ماذا؟ أكنت في ذلك العهد من المخادعين في لعب الورق؟

– كيف لا أكون وقد كان هنالك منذ ثماني سنوات عصابة منا كلهم رجال من زهرة الهيئة الاجتماعية، وكنا نمرح سعداء ليس فينا إلا الفتى المهذب بين شاعر وسيد سري، وإنك لتعلم أن أكثر الناس تهذيبًا ومروءة في مجتمعنا الروسي هم الذين قست عليهم الحياة، ألم تلاحظ هذا؟ ولكني منذ أقمت في الريف ساءت حالي، على أني دخلت السجن بسبب الدين، وقد سعى بي يوناني حقير من بلدة ينزين، وتقدمت إليه حينذاك مارفا بتروفنا وساومته على شرائي بثلاثين ألف قطعة من الفضة وكنت مدينًا بسبعين ألفًا. وتم بيننا زواج شرعي، وذهبت بي إلى الريف كأنها تحمل كنزًا. وإنك لتعلم أنها كانت تكبرني بخمس سنوات وتحبني حبًا شديدًا وظللت سبع سنوات في الريف لا أنتقل منه، ولتلاحظ أنها كانت طول حياتها تحمل فوق عنقي وثيقة هي الصك بمبلغ الثلاثين ألف روبل، فلو بدا مني ما يدل على ثورة كانت الأغلال في يدها تكبلني بها، وما كان أحراها أن تفعل ذلك، فالنساء لا يرين عيبًا في مثل هذا!

فقال الفتى: «أكنت تاركها لو لم تكن هذه الأغلال في يدها؟».

فأجاب الرجل: «لست أدري بماذا أجيبك، فلعل ذلك الصك لم يكن هو الذي ربطني بها. فإني لم يكن لي مطمع في جهة أخرى، وقد دعتني

مارڤا بتروڤنا للسفر إلى الخارج عندما رأت عليَّ علائم الملل، ولكني كنت سافرت إلى أوروبا من قبل وكنت ما أنفك أضيق بالحياة فيها. ولا أدري لذلك الضيق علة، غير أن شروق الشمس، ومنظر خليج نابولي، والبحر الواسع، كل ذلك كان يبعث الكآبة إلى نفسي.. وأشد ما في الأمر أنها كانت كآبة حقيقية تخيم على الفؤاد، فخير للإنسان أن يبقى بوطنه إذ يستطيع أن يلوم غيره على كل شيء ويبرئ نفسه. ولعلني لو ذهبت إلى القطب الشمالي لكان ذلك خيرًا، ولست أحب الشراب، ولكن لا حيلة لي، ولم يبق لي غير الخمر فقلت: أجربها.. وأقول لك بهذه المناسبة إني سمعت أن «برج» سيطير يوم الأحد القادم في منطاد من حديقة يوسوپون، وأنه سيصطحب معه ركابًا بأجر، فهل هذا صحيح؟».

فسأله الفتى: «أتريد الصعود في الهواء؟».

فأجاب الرجل: «أنا؟ لا.. لا». وقد ظهر عليه عند ذلك التفكير العميق، فقال رسكولنكوف لنفسه متعجبًا: «ماذا يقصد؟ أهو جاد في هذه الأحوال؟».

ثم استمر سفيدريجايلوف في حديثه مفكرًا: «لم تكن هذه الوثيقة هي التي أمسكتني فإني أقمت في الريف بمحض إرادتي، بل إن مارڤا بتروڤنا أعادت الوثيقة إليّ منذ سنة بمناسبة عيد ميلادي، وأعطتني فوق ذلك مبلغًا كبيرًا على سبيل الهدية، فهي واسعة الثراء كما تعلم، وقالت لي عندئذ: «انظر إلى أي حد أثق فيك يا أركادي إيڤانوڤتش!». ألا تصدق أنها قالت لي هذه العبارة؟ ألا فاعلم أنني أحسنت تدبير ضيعتها وكل من في ذلك الجوار يعرفون. وكنت أشتري الكتب أيضًا، وكانت مارڤا بتروڤنا في مبدأ

الأمر ترضى عن هذا الميل فيّ، وإن كانت آخر الأمر قد عدلت عن رضاها خشية عليّ من الإسراف في القراءة..».

فقال رسكولنكوف: «الظاهر أن موت مارڤا بتروڤنا أحدث لديك فراغًا».

فقال الرجل: «فراغ؟ لعله.. نعم، لعلها أحدثت عندي فراغًا. قل لي: أتعتقد في الأشباح؟».

– أية أشباح؟

– أقصد الأشباح بالمعنى المفهوم من الكلمة.

– أتعتقد فيها؟

– أحب أن أرضيك فأقول لعلي لا أومن بها، ولكني لا أقول إنني أكفر بها أو أجحدها.

– أرأيت عمرك أشباحًا؟

فنظر سيفدريجايلوف إلى مخاطبه نظرة عجيبة وقال وعلى فمه ابتسامة غريبة: «إن مارڤا بتروڤنا تتفضل بزيارتي..».

– وماذا تقصد بقولك إنها تتفضل بزيارتك؟

– نعم، رأيتها ثلاث مرات. ففي المرة الأولى رأيتها يوم جنازتها بعد ساعة من دفنها، وكان هذا في اليوم السابق لسفري إلى هنا، ثم رأيتها أمس الأول فجرًا وأنا في السفر عند محطة مالايافتسيرا.. وأخيرًا رأيتها منذ ساعتين في الغرفة التي أقيم فيها، وكنت وحدي عندئذ..

- هل كنت في يقظة؟

- نعم.. كنت كامل اليقظة في كل مرة، فهي تظهر أمامي وتتكلم لحظة ثم تخرج من الباب، ودائمًا من الباب، وأكاد أسمع وقع أقدامها..

فصاح رسكولنكوف فجأة: «ما الذي دفعني للتفكير في أنه يحدث لك شيء من هذا القبيل؟».

وأدهشته ملاحظته واستثارته فسأله سفيدريجايلوف مستغربًا: «لماذا فكرت في ذلك؟ هل فكرت فيه حقًا؟ ألم أقل لك إننا نتشابه من بعض الوجوه؟».

فأجاب رسكولنكوف في حدة وحرارة: «إنك لم تقل هذا قط!».

- ألم أقله؟

- لا!

- لقد خيل لي أنني فعلت! فإني عندما دخلت ورأيتك راقدًا وقد أغمضت عينيك متظاهرًا بالنوم قلت في نفسي: هذا هو الرجل!

فصاح رسكولنكوف: «هذا هو الرجل؟! ماذا تعني بهذا الكلام؟ عم تتحدث!».

فتمتم سفيدريجايلوف كأنما هو كذلك في حيرة: «ماذا أعني؟ لعمري لست أدري!».

وظل الرجلان لحظة ينظر أحدهما إلى وجه الآخر في سكون، ثم صاح رسكولنكوف متضايقًا: «كل هذا هراء ليس فيه جدوى! قل لي: ماذا كانت تقول لك عندما تظهر أمامك؟».

– هي؟ لك أن تعجب إذ أقول إنها تتكلم في أتفه الأشياء.. والإنسان مخلوق عجيب.. والغريب في الأمر أني أغضب مما تقول. ظهرت لي أول مرة– وكنت متعبًا من الجنازة والصلاة وطعام الغداء الذي أعقبها فجلست في مكتبي منفردًا وأشعلت سيجارة وبدأت أفكر– وإذا هي تدخل من الباب وتخاطبني قائلة: «لقد كنت كثير المشاغل اليوم يا أركادي إيڤانوڤتش حتى أنك نسيت أن تدير ساعة غرفة المائدة..» والعجيب في الأمر أنني كنت طوال هذه السنوات السبع أدير تلك الساعة مرة في كل أسبوع، فإذا نسيت مرة كانت هي تذكرني بها. وفي اليوم التالي سافرت قاصدًا إلى هنا، ووقف القطار عند الفجر بالمحطة فنزلت، وكنت وسنان من التعب ولا أكاد أفتح عيني، وأخذت أشرب القهوة، ثم رفعت نظري فإذا مارڤا بتروڤنا جالسة بجانبي وبيدها أوراق اللعب فسألتني: «ألا أخبرك بما سيحدث لك أثناء سفرك يا أركادي إيڤانوڤتش؟».. وكانت ماهرة في معرفة الطالع، ولن أصفح عن نفسي إذ لم أسألها بل فررت مذعورًا. ثم دق جرس القطار. وفي هذا اليوم نفسه جلست وأنا أشعر بثقل شديد بعد طعام ثقيل تناولته في مطعم، وأخذت أدخن فإذا مارڤا بتروڤنا مرة أخرى تدخل في ثوب جديد أنيق من الحرير الأخضر طويل الذيل وتقول: «أسعدت نهارًا يا أركادي إيڤانوڤتش! هل يعجبك ثوبي؟ إن أنيسكا لا تستطيع أن تصنع ثوبًا كهذا».. وأنيسكا حائكة في بلدتنا كانت من قبل رقيقة الحال، ثم تدربت على هذه الصناعة في مدينة موسكو، وهي فتاة مليحة. فنظرت إلى ثوبها ثم سددت إلى وجهها نظري في عناية وقلت: «من العجيب أن تتعبي نفسك يا مارڤا بتروڤنا وتأتي من أجل هذه الأشياء التافهة».. فقالت: «رباه! يظهر أن لا

سبيل إلى شغلك عن أمورك!»، فقلت لها وقد أردت مضايقتها قليلًا: «سأتزوج عن قريب يا مارڤا بتروڤنا!»، فقالت: «إن هذا يتفق مع خصالك يا أركادي إيڤانوڤتش، وإن كان حضورك للبحث عن عروس لا يرفع من قدرك وأنت لم تكد تدفن زوجتك الأولى، وكان هذا مقبولًا لو أنك على الأقل تحسن الاختيار، ولكني أعلم أن هذا لن يكون سببًا لسعادتك أو سعادتها وإنما سيجعلك هدفًا لسخرية الناس الطيبين» ثم خرجت وخيل إليَّ أني سمعت حفيف ذيلها، أليست هذه أمورًا تافهة؟».

فقال رسكولنكوف: «ربما كنت تروي أكاذيب؟».

وأجاب سفيدريجايلوف كأنه لم ينتبه للخشونة في السؤال: «يندر أن ألجأ إلى الأكاذيب».

فسأله رسكولنكوف: «وهل رأيت أشباحًا قبل ذلك في الماضي؟».

فأجاب: «نعم، حدث ذلك مرة في حياتي منذ ست سنوات. إذ كان عندي تابع اسمه فيلكا، مات ثم بعد دفنه مباشرة سهوت وناديت: «فيلكا! هات الغليون! فدخل وذهب في الحال إلى الدولاب الذي أضع فيه الغلايين، فسكت وقلت لنفسي: «إنه يفعل ذلك على سبيل الانتقام». وكنت قبل موته مباشرة قد أنبته في عنف إذ صحت به: «كيف تجرؤ على أن تحضر أمامي وثوبك ممزق عن مرفقك؟ اخرج أيها المتسكع!»، فأدار وجهه وخرج ولم يعد مرة أخرى. لكنني لم أذكر هذه الواقعة لمارڤا بتروڤنا مطلقًا. وقد أردت أن أقيم له قداسًا ثم خجلت».

فقال له رسكولنكوف: «يجب أن تذهب للطبيب!».

فأجاب: «إني أعلم بأني مريض من غير حاجة لأن تخبرني بذلك.. ولا أدري ماذا أصابني، ولكني أعتقد أني أقوى منك خمس مرات.. وإني لم أسألك عما إذا كنت تعتقد في رؤية الأشباح وإنما عما إذا كنت تعتقد في وجودها..».

فصاح رسكولنكوف في غضب واضح: «لا! لا أعتقد في ذلك!».

وتمتم سفيدريجايلوف كأنه يحادث نفسه وهو ينظر جانبًا وقد أحنى رأسه: «ماذا يقول الناس عادة في هذا الموضوع؟ يقولون إنك مريض وما تراه إن هو إلا مجرد خيالات غير حقيقية.. على أن هذا القول ليس منطقيًا تمامًا، إني أسلم بأن الأشباح لا تظهر إلا للمرضى، غير أن هذا يدل على أنها لا تستطيع الظهور لغير المرضى، لا أنها غير موجودة...».

فقال رسكولنكوف في إصرار وحدة: «لا شيء من ذلك..».

فنظر إليه سفيدريجايلوف طويلًا ثم قال: «إنك لا تظن ذلك! ولكن ماذا تقول في هذا الرأي؟.. ساعدني فيه.. كأن بالأشباح نتف وقطع من عوالم أخرى، وهي بداية لها. ومن الطبيعي ألا يوجد سبب يدعو الرجل لأن يراها في صحته؛ لأنه قبل كل شيء رجل من هذه الأرض، ومفروض عليه من أجل التمام والنظام أن يعيش في هذه الحياة فقط، فإذا مرض أو اختل نظام الجسم الأرضي، ابتدأ فيه احتمال الانتقال إلى عالم آخر، وكلما اشتد مرضه ازداد اتصالًا بالعالم الآخر، فإذا مات انتقل توًا إلى ذلك العالم.. ولقد فكرت في هذا من زمن بعيد، وإذا كنت تعتقد في الحياة الأخرى فيمكنك أن تعتقد في هذا أيضًا..».

فأجاب رسكولنكوف: «إني لا أعتقد في الحياة الأخرى».

فلبث سفيدريجايلوف مفكرًا، ثم سأل فجأة: «وماذا يكون لو أننا لم نجد هنالك غير عناكب أو ما شاكل ذلك؟».

فحدث رسكولنكوف نفسه: «إنه لمجنون!».

واستمر سفيدريجايلوف في حديثه: «إننا نتخيل دائمًا دار الخلود على أنها شيء فوق مداركنا- فسيح، فسيح.. ولكن هل يجب أن تكون فسيحة، وماذا يكون لو أنها بدلًا من ذلك غرفة صغيرة، كحمام منزل ريفي أسود قذر سكنت العناكب في جميع أركانه؟ إنني أحيانًا أتصورها كذلك!».

فصاح رسكولنكوف في حنق: «هلا تستطيع أن تتصور شيئًا أعدل وأكثر عزاء من هذا؟».

فأجاب سفيدريجايلوف بابتسامة غامضة: «أعدل؟ ومن أدرانا؟ ربما كان هذا هو العدل! هل تعلم أن الأمر لو كان لي لجعلتها بالتأكيد كذلك؟».

وشعر رسكولنكوف ببرد يسري في عروقه من هذه الإجابة الفظيعة.. ورفع سفيدريجايلوف رأسه ونظر إليه ثم اندفع فجأة في الضحك، وصاح: «أليس هذا غريبًا؟ إننا منذ نصف ساعة كان كل واحد منا كأنه لم ير الآخر، وكان كل منا ينظر إلى الآخر نظرة العدو، وبيننا خلاف لم تتم تسويته! وإذا بنا نلقي ذلك جانبا ونخوض في الأمور الفكرية، ألم أكن على حق في قول أننا طائران على شاكلة واحدة؟».

فقال رسكولنكوف مغتاظًا: «اسمح لي أن أرجوك في أن تشرح لماذا شرفتني بزيارتك... إنني متعجل وليس لدي وقت أضيعه وأريد الخروج!».

فقال: «حسن! حسن! هل ستقترن أختك أفدوتيا رومانوڤنا بالسيد بيوتر بتروڤتش لوجين؟».

فقال رسكولنكوف: «هل تتفضل بعدم الخوض في أمور أختي ولا تذكر اسمها؟ إني لا أفهم كيف تجرؤ على ذكر اسمها في حضوري إذا كنت أنت حقيقة سفيدريجايلوف؟».

فقال سفيدريجايلوف: «ولكني جئت هنا للتكلم عنها فكيف أتجنب ذكرها؟».

فقال رسكولنكوف: «إذن تكلم وأسرع».

فقال سفيدريجايلوف: «إني لواثق من أنك تستطيع أن تكوِّن فكرة عن السيد لوجين هذا- وهو قريب لزوجتي- لو أنك رأيته مدة نصف ساعة أو سمعت عن وقائعه، فهو ليس أهلًا للاقتران بأفدوتيا رومانوڤنا، وأعتقد أنها تضحي بنفسها في سخاء ونزق من أجل... من أجل أسرتها. ويخيل إليّ من كل ما سمعته منك أنك تسر جدًا إذا لم يتم هذا الزواج، دون تضحية بمصلحتها المادية. وبعد أن عرفتك شخصيًا صرت مقتنعًا بذلك..».

فأجاب رسكولنكوف: «إن ما تقوله ليدل على بساطة شديدة.. معذرة، أردت أن أقول: قحة شديدة!».

فقال سفيدريجايلوف: «هل تريد أن تقول إن لي من وراء ذلك غرضًا؟ فلتطمئن يا روديون رومانوڤتش، إذ لو أني أعمل لصالحي لما صارحتك هكذا مباشرة. فلست غبيًا، وأعترف بأني أقدم لك حالة نفسية عجيبة في هذا الصدد. فقد قلت الآن في موطن الدفاع عن حبي لأفدوتيا رومانوڤنا

إني كنت الضحية، ولتعلم أنه لم يبق عندي الآن شعور بالحب أو أي أثر له، وهذا مما يدهشني لأنني كنت أشعر حقًا...».

فقاطعه رسكولنكوف قائلًا: «إنها البطالة والانحراف!».

فقال: «أقر بأني كسول وأثيم.. ولكن في أختك خلالًا تؤثر حتى في مثلي، على أني أرى الآن أن كل هذا عبث!».

فسأل رسكولنكوف: «هل كنت ترى هذا منذ مدة طويلة؟».

فقال سفيدريجايلوف: «بدأت أشعر بذلك من قبل، ولكني تأكدت منه أول من أمس في اللحظة التي وصلت فيها تقريبًا إلى مدينة بطرسبرج. إذ كان يخيل إليَّ وأنا في موسكو أني قادم لأحاول الحصول على يد أفدوتيا رومانوڤنا والتغلب على السيد لوجين!».

وقاطعه رسكولنكوف: «معذرة لمقاطعتك.. أرجو أن تقتصد في القول وتوضح الغرض من زيارتك، فإني متعجل وأريد الخروج..».

فأتم سفيدريجايلوف حديثه قائلًا: «سأفعل مع السرور العظيم. حين وصلت إلى هنا صح عزمي على أن أقوم برحلة... وأحب قبل ذلك أن أتخذ الأهبة. لقد تركت أولادي عند إحدى عماتهم، فهم أغنياء ولا حاجة بهم إليَّ شخصيًا، ثم إني لست الأب الصالح. ولم آخذ معي من المال غير ما قدمته لي مارڤا بتروڤنا هدية منذ عام، وفي هذا ما يكفيني. معذرة، فإني وصلت إلى موضوعي.. أريد قبل هذه الرحلة التي أعتزم القيام بها أن أنتهي من أمر السيد لوجين؛ لا لأني أبغضه بغضًا شديدًا، بل لإني تعاركت بسببه مع مارڤا بتروڤنا عندما علمتُ أنها دبرت هذا الزواج.. والآن أرجو أن أرى أفدوتيا رومانوڤنا بواسطتك- وفي حضورك إذا شئت- لأفسر لها أولًا أنها

سوف لا تجني شيئًا من وراء السيد لوجين غير الضرر، ثم لأطلب منها الصفح عما سببته لها من متاعب في الماضي وأقدم لها مبلغ عشرة آلاف روبل هدية مني كي أساعدها في الابتعاد عن السيد لوجين، وهو أمر أعتقد أنها ترغب فيه لو وجدت السبيل إليه».

فصاح رسكولنكوف وقد تملكته الدهشة أكثر من الغضب: «إنك بلا ريب مجنون! فكيف تجرؤ على الكلام بهذه الطريقة؟!».

فاستمر سفيدريجايلوف يقول: «كنت أتوقع منك الصياح في وجهي.. ولكني أولًا- وإن لم أكن غنيًا- أستطيع الاستغناء عن العشرة آلاف روبل، فلست في حاجة إليها مطلقًا. وإذا لم تقبلها أفدوتيا رومانوڤنا فسأنفقها فيما لا طائل فيه. هذا أول شيء. ثم ثانيًا.. إن ضميري مرتاح، وإني أعرض هذا المبلغ من غير أن يكون لي غرض من ورائه. قد لا تصدقني، ولكن ذلك سيظهر لك ولأفدوتيا رومانوڤنا في النهاية. والواقع أني سببت لأختك التي أحترمها بعض المتاعب والمضايقات، وهذا ما آسف له في إخلاص.. وإني لا أريد تعويضها عن هذه المضايقات، بل أرجو أن أعمل شيئًا في صالحها لأظهر لها أني لست مسخَّرًا للشر فقط.. ولو أنه كان لي جزء من مليون من غرض لما عرضت هذا المبلغ صراحة، ولما اكتفيت بعشرة آلاف فقط بينما أني عرضت منذ خمسة أسابيع أكثر من ذلك.. وفضلًا عن ذلك فإني قد أتزوج من فتاة قريبًا جدًا، وهذا وحده يبعد أي شك فيما أرجو من أفدوتيا رومانوڤنا. وفي النهاية، اسمح لي أن أقول إنها بالزواج من السيد لوجين إنما تأخذ مالًا ولكن من رجل آخر.. لا تغضب يا روديون رومانوڤتش وفكر في ذلك في هدوء ورزانة!».

وكان سفدريجايلوف نفسه هادئًا ورزينًا وهو يقول هذا...

فقال رسكولنكوف: «أرجو ألا تقول أكثر من ذلك فإن قولك وقاحة لا تغتفر!».

– لست أرى في هذا القول شيئًا.. إذن لا يأتي المرء إلا الإساءة لجيرته في هذا العالم، ويحال بينه وبين أن يسدي أقل معروف بحكم عادات تافهة ومتفق عليها؟ إن هذا لسخيف! هب أني مت وأوصيت بهذا المبلغ لأختك، فهل كانت تصر على رفضه؟

– من المحتمل جدًا.

– لا أظن مطلقًا، مع ذلك إذا كنت رافضًا فليكن، ولو أن عشرة آلاف روبل مبلغ له قيمته في بعض الظروف.. على كل حال، أرجو أن تكرر ما قلت لأفدوتيا رومانوڤنا.

– لا! لن أفعل!

– في هذه الحال سأحاول يا روديون رومانوڤتش رؤيتها بنفسي، وقد أضايقها بهذا السعي لمقابلتها!

– وإذا أخبرتها، هل تكف عن السعي لمقابلتها؟

– لست أدري بماذا أجيب.. إني أود جدًا رؤيتها ولو مرة!

– لا تعلل النفس بهذا الأمل!

– إني آسف، ولكنك لا تعرفني.. وربما نصير أصدقاء أكثر من الآن!

– هل تظن أننا نصير أصدقاء؟

- ولم لا؟

قال ذلك سفيدريجايلوف مبتسمًا ووقف يتناول قبعته قائلًا: «لم أكن أريد إقلاقك، وقد حضرت هنا دون أن أعتمد على ذلك... ولو أن وجهك أثار اهتمامي في هذا الصباح..».

فسأله رسكولنكوف مرتبكًا: «أين رأيتني في هذا الصباح؟».

- رأيتك صدفة... ولا زلت أتخيل أن فيك ما يشبهني... ولكن لا تشغل بالك بذلك فإني لست من الفضوليين، وكنت على خير حال في صحبة المخادعين في لعب الورق، وكنت أسامر الأمير سفرتي- وهو شخصية كبيرة ويمت إليّ بصلة قرابة بعيدة- فلا يمل مني. وأستطيع أن أكتب عن صورة العذراء لرافائيل في مجموعة السيدة بريلكوف وأقيم إلى جانب مارڤا بتروڤنا فلا أتركها سبع سنوات، وكنت أمضي الليل في دار ڤياسمسكي في سوق التبن في الأيام الخالية، وربما أصعد في المنطاد مع برج..

- حسنًا! أخبرني هل تقوم قريبًا برحلتك؟

- أية رحلة؟

- الرحلة التي أشرت إليها الآن.

- رحلة؟ أي نعم تكلمت عن رحلة.. هذا موضوع واسع... ليتك تعلم ما تسأل عنه!

وضحك ضحكة فجائية عالية وقصيرة: «ربما أتزوج بدلًا من هذه الرحلة، فإنهم يدبرون لي زواجًا..».

– هنا؟

– نعم.

– كيف وجدت الوقت لذلك؟

– ولكني تواق جدًا لرؤية أفدوتيا رومانوفنا مرة، وألتمس ذلك في إلحاح، والآن وداعًا في الوقت الحاضر.. أي نعم! لقد نسيت أمرًا! أخبر أختك يا روديون رومانوفتش أن مارفا بتروفنا قد تذكرتها في وصيتها وتركت لها ثلاثة آلاف روبل، وهذا أمر مؤكد فإنها كتبت وصيتها بحضوري قبل موتها بأسبوع وتستطيع أفدوتيا رومانوفنا استلام المبلغ بعد أسبوعين أو ثلاثة.

– هل تقول الصدق؟

– نعم، أخبرها! والآن فلأذهب، وإني في خدمتك فأنا مقيم على مقربة منك.

وخرج سفيدريجايلوف، وفي خروجه قابل رازوميهين في مدخل الباب.

* * *

(٢)

كانت الساعة الثامنة تقريبًا عندما خرج الشابان مسرعين يقصدان منزل بكالييف ليصلا قبل لوجين.

سأل رازوميهين بمجرد أن صارا في الشارع: «من هذا الرجل؟».

فأجاب رسكولنكوف: «إنه صاحب ضيعة اسمه سفيدريجايلوف، وكانت أختي تعمل مربية عنده، وأهينت في داره، وطاردها بحبه، وغضبت فطردتها زوجته مارفا بتروفنا من عملها. على أن الزوجة عرفت الحقيقة فيما بعد، والتمست من دنيا أن تصفح عنها. وماتت هذه الزوجة أخيرًا موتًا فجائيًا، وكنا نتحدث بشأنها في هذا الصباح. ولست أدري سببًا لخوفي من هذا الرجل! فإنه جاءني مباشرة بعد جنازة زوجته، وهو أمر غريب جدًا ويجب أن نحمي دنيا منه، وهذا ما أردت أن أقوله لك، فهل تسمع؟».

صاح رازوميهين: «حمايتها؟ ما الذي يستطيع أن يفعله من شر لأفدوتيا رومانوفنا؟ يجب أن أشكرك يا روديا على أنك تحدثني على هذه الصورة! إني سأفعل! وسأحميها، لكن أين يسكن الرجل؟».

- لا أعلم..

- لماذا لم تسأله؟ هذا مما يؤسف له! ومع ذلك سأجده!

فسأله رسكولنكوف بعد صمت: «هل رأيته؟».

- نعم! لاحظته، ولاحظته جيدًا.

وألح رسكولنكوف: «هل رأيته حقًا؟ أرأيته في وضوح؟».

- نعم! أذكره تمامًا! وأستطيع تمييزه بين ألف رجل! فإن ذاكرتي جيدة في معرفة الوجوه.

وساد السكون بينهما مرة أخرى. ثم تمتم رسكولنكوف: «هذا خير!... هل تعلم ماذا بدا لي؟.. قد يكون ما رأيته وهمًا..».

- ماذا تقصد؟ إني لا أفهمك؟

واستمر رسكولنكوف وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة: «إنكم جميعًا تقولون إني مجنون، وقد خطر ببالي الآن أني ربما كنت مجنونًا حقًا ولم أر إلا شبحًا..».

- ماذا تعني؟

- من يدري؟ قد أكون مجنونًا وكل ما حدث من حوادث في هذه الأيام الأخيرة لم يكن له وجود إلا في مخيلتي!

قال رازوميهين: «لا بد أنه طرأ عليك ما شغل بالك ثانية يا روديا!.. ولكن ماذا قال هذا الرجل، ولماذا أتى؟».

فلم يجب رسكولنكوف، وظل رازوميهين يفكر لحظة ثم أخذ يقول: «أصغ إلى قصتي.. لقد جئتك فوجدتك نائمًا، وبعدئذ تناولت الطعام ثم ذهبت إلى منزل بورڤيري- وكان زاميتوف لا يزال معه- وأردت أن أحادثه في أمرك فلم أوفق منذ البداية، إذ لم أستطع الخوض في الموضوع. ويظهر أنهما لا يفهمان ولا يخجلان من عدم الفهم، فجذبت بورڤيري وانتحيت به عند النافذة وابتدأت أحادثه، ولكني لم أنجح في الحديث معه. وكان يتجه بنظره إلى ناحية وأنا أتجه إلى ناحية أخرى، وأخيرًا رفعت قبضتي في وجهه القبيح وهددته بأني سأحطمه ولو أنه قريبي. فاكتفى بالنظر إليّ، فلعنته وخرجت. هذا كل ما حدث وهو أمر سخيف؛ أما زاميتوف فلم أوجه له كلمة واحدة. وترى من هذا أني أسأت التصرف، على أنه خطرت ببالي فكرة وجيهة وأنا نازل من السلم: لم هذا العناء؟ من الطبيعي أن تهتم لو أن هنالك خطرًا أو شبه خطر. ولم تعير هذا الأمر اهتمامًا؟ يجب ألا تهتم مطلقًا! وسنضحك من خطئهما فيما بعد، ولو كنت مكانك لزدت فيما يسبب لهما الحيرة! وما أشد خجلهما فيما بعد! لعنة الله عليهما! سنعرف كيف نضربهما حين يأتي الوقت، ولنضحك منهما الآن..».

أجاب رسكولنكوف: «هذا مؤكد!». وفكر في نفسه: «ولكن ماذا تقول غدًا؟». ومن الغريب أنه إلى تلك اللحظة لم يخطر له مطلقًا أن يسأل نفسه ماذا يكون رأي رازوميهين حين يعرف الحقيقة، وحين خطر له هذا الخاطر اتجه نحو رازوميهين. أما أنباء زيارته لبورڤيري فلم يهتم لها مطلقًا، فقد

حدث له في تلك الفترة الكثير من الأمور!

وقابلا السيد لوجين في الممشى. وقد جاء في الساعة الثامنة تمامًا، وكان يبحث عن رقم المسكن، ودخل الثلاثة في وقت واحد من غير تحية أو نظرة من أحدهم للآخرين، غير أن الشابين سبقاه لأنه تأخر لحظة خلع فيها معطفه. وتقدمت إليه پولكيريا ألكسندروڤنا في الحال لتحيته عند الباب، وأما دنيا فكانت ترحب بأخيها.. ودخل پيوتر بتروڤتش وانحنى للسيدتين في لطف بعد أن ضاعف الرزانة، ولكن بدا عليه شيء من الضيق لم يستطع التغلب عليه. كما بدت على پولكيريا ألكسندروڤنا علامات الارتباك، إلا أنها دعت زائريها جميعًا إلى الجلوس حول مائدة مستديرة عليها «السماور» يغلي فيه الماء. فجلس كل من دنيا ولوجين متقابلين عند طرف المائدة، أما رازوميهين ورسكولنكوف فقد واجها پولكيريا ألكسندروڤنا. وجلس الأول بجانب لوجين والثاني بجانب أخته.

وساد السكون برهة، ثم أخرج پيوتر بتروڤتش من جيبه ببطء منديلًا رقيقًا معطرًا ومسح أنفه واتخذ سمت الرجل الطيب الذي خدشت كرامته وهو مصرّ على أن يطلب الاعتذار. وقد جال بخاطره وهو في الممر أن يحتفظ بمعطفه وينصرف، فيلقي على السيدتين درسًا قويًا ويجعلهما تشعران بخطورة الموقف. ولكنه لم يستطع حمل نفسه على ذلك، كما أنه لم يستطع تحمل الشك وأراد أن تتضح له الأمور، فإذا كانت رغباته قد أهملت علنًا فلابد من سبب خفي عليه ومن الخير معرفته، ولا يزال عقابهما في يده وأمامه متسع من الوقت لذلك.

وسأل پولكيريا ألكسندروڤنا في لهجة رسمية: «أرجو أن تكوني قد

وجدت راحة في السفر؟».

فقالت: «كانت الراحة تامة يا بيوتر بتروڤتش».

فقال: «إني سعيد لسماع هذا منك وأرجو أن تكون أفدوتيا رومانوڤنا لم تتعب من السفر كذلك!».

فأجابت دنيا: «إني فتية وقوية فلا أتعب، لكن والدتي تعبت كثيرًا في هذا السفر..».

فقال: «إن هذا لا يمكن تجنبه، فإن سككنا الحديدية الوطنية طويلة جدًا، وأمنا روسيا كما يقولون مترامية الأطراف، وكنت أود مقابلتكما بالأمس غير أني لم أستطع، فلعلكما لم تتكبدا مشقات جمة..».

فسارعت پولكيريا إيفانوڤنا إلى القول في نغمة خاصة: «لا يا بيوتر بتروڤتش، لقد كانت حالتنا سيئة.. ولولا أن الله قيض لنا ديمتري بروكوڤتش لضللنا الطريق.. وهذا هو ديمتري بروكوڤتش رازوميهين!».. أضافت هذه العبارة وهي تقدمه للوجين.

فتمتم بيوتر بتروڤتش وهو ينظر نظرة عدائية جانبية إلى رازوميهين: «تشرفت به بالأمس»، ثم قطب جبينه وسكت.

كان بيوتر بتروڤتش من تلك الطبقة من الناس الذين يظهرون سطحيًا في المجتمع بمظهر المهذبين ويصرون على أن يكونوا ظرفاء، غير أنهم إذا تضايقوا من أي شيء تغيرت أطوارهم وصاروا أقرب شبهًا بكيس مليء بالدقيق منهم برجال ظرفاء من أهل المجتمع يفيضون بالحياة. لذلك ساد السكون مرة ثانية، وكان رسكولنكوف ملتزمًا الصمت، ولم تكن أفدوتيا

رومانوڤنا راغبة في الخوض في الحديث سريعًا، ولم يكن عند رازوميهين شيء يقوله، لذلك قضي على پولكيريا ألكسندروڤنا بتجديد الحديث، فبدأت بالموضوع الذي كان يشغل بالها: «هل علمت بوفاة مارڤا بتروڤنا؟».

فقال: «علمت بالتأكيد، وأبلغت الخبر في الحال وجئت لأعلمك أن أركادي إيڤانوڤتش سفيدريجايلوف سافر في سرعة إلى مدينة بطرسبرج على أثر الانتهاء من جنازة زوجته. وقد سمعت هذا الخبر من مصدر يوثق به».

سألت دنيا في ذعر: «سافر إلى بطرسبرج؟ إلى هنا؟»، ونظرت إلى أمها.

قال: «نعم، بلا ريب. إنه لم يأت بلا غرض، بدليل إسراعه في السفر ولجميع الظروف السابقة...».

فصاحت پولكيريا ألكسندروڤنا: «يا الله! ألا يريد أن يترك دنيا لشأنها حتى هنا؟».

فقال لوجين: «أظن أنه ليس لديك ولا لدى أفدوتيا رومانوڤنا سبب للقلق إلا إذا كنتما راغبتين في الاتصال به، أما من جهتي فإني متيقظ لهذا وسأعمل على معرفة مكان إقامته».

ومضت پولكيريا ألكسندروڤنا تقول: «إنك لا تدري يا پيوتر بتروڤتش إلى أي حد أدخلت الرعب إلى قلبي! لقد رأيته مرتين فقط. وهو مخيف، مخيف.. وإني لواثقة من أنه كان السبب في وفاة مارڤا بتروڤنا».

فرد عليها قائلًا: «من المستحيل التأكد من هذا، ولديّ المعلومات الدقيقة عن وفاتها وإن كنت لا أجادل في أنه ساعد على سرعة مجرى

الحوادث بما يمكن أن نسميه الأثر الأدبي للإهانة. أما فيما يتعلق بمسلكه عمومًا وصفاته الخلقية فإني متفق معك في الرأي، ولا أدري إذا كان الآن على شيء من الثراء وما الذي تركته له مارفا بتروفنا، وسأعرف ذلك بعد قليل جدًا. غير أني متأكد من مسألة واحدة وهي أنه ما دام موجودًا في مدينة بطرسبرج فسيعود إلى أساليب حياته القديمة، وما دامت لديه موارد مالية فهو من أفسق الناس وأفسدهم. ولدي من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد بأن مارفا بتروفنا- التي كانت سيئة الحظ إذ وقعت في حبه وسددت ديونه منذ ثماني سنوات- قد أسدت إليه يدًا في مسألة أخرى، فإنها بفضل مساعيها وتضحياتها فقط تمكنت من التستر على جريمة قتل فيها عنصر من الغرابة والوحشية كان سيتهم بها وكادت تؤدي به إلى سيبيريا. هذا هو الرجل إذا أردتم أن تعرفوه على حقيقته».

فصاحت پولكيريا ألكسندروفنا: «يا الله!». وكان رسكولنكوف يستمع في اهتمام. وسألت دنيا في جد وتأكيد: «هل تقول الصدق، وهل لديك براهين قوية على ذلك؟».

فأجاب: «إني أكرر فقط ما سمعته سرًّا من مارفا بتروفنا. ويجب أن أذكر أن الجريمة من الوجهة القانونية كانت بعيدة عن الوضوح. ففي ذلك الوقت، وربما الآن، كانت توجد امرأة أجنبية اسمها رسليش تقرض أموالها بالربا وتشتغل بأعمال أخرى. ووجدت بين هذه المرأة والسيد سفيدريجايلوف علاقات خفية ووطيدة من زمن بعيد، وكانت تقيم معها قريبة لها هي فيما أعتقد ابنة أخيها، وهي فتاة بكماء ربما لا تزيد سنها عن خمسة عشر ربيعًا، وكانت رسليش تبغضها وتحسدها على اللقمة التي

تأكلها وتضربها بلا رحمة، وفي ذات يوم وجدت هذه الفتاة التعسة مشنوقة في غرفة بسطح البيت، وقضى التحقيق بأنها ماتت منتحرة، وانتهى الأمر بعد الإجراءات المعتادة. ولكن قدم بلاغ فيما بعد بأن هذه الفتاة اغتصبت في قسوة وأن مغتصبها هو سفدريجايلوف. وفي الحق أن هذا الاتهام لم يثبت تمامًا، وكان الذي قدم هذا البلاغ امرأة ألمانية أخرى سيئة السمعة لا يمكن الاعتماد على أقوالها. ولم تتخذ الشرطة إجراء في البلاغ بفضل مساعي مارفا بتروفنا وأموالها، ولم يتعد الأمر مجرد الإشاعة، إلا أن القصة ذات مغزى واضح. ولا ريب يا أفدوتيا رومانوفنا أنك سمعت حين كنت عندهما قصة خادمه فيليب الذي مات من معاملته السيئة منذ ست سنوات قبل إلغاء الرق!».

- إنني سمعت على العكس أن فيليب هو الذي شنق نفسه!

- هذا صحيح، ولكن الذي دفعه- أو بعبارة أخرى وجهه- إلى الانتحار قسوة سيده واضطهاده في معاملته.

أجابت دنيا في جفاء: «لا علم لي بذلك! وكل ما سمعته حكاية غريبة هي أن فيليب هذا كان على ما يظهر مصابًا بالسوداء، واعتاد الخدم أن يقولوا إنه خادم فيلسوف، وأن القراءة أودت بعقله. وكان من أسباب انتحاره إلى حد أن يتخلص من سخرية سفدريجايلوف لا من ضرباته. وعندما كنت هناك كان يعامل خدامه معاملة حسنة، وهم يحبونه وإن كانوا يعزون إليه موت فيليب».

فقال لوجين وقد لوى شفتيه في ابتسامة غامضة: «أرى يا أفدوتيا رومانوفنا أنك انبريت فجأة للدفاع عنه، ولا ريب في أنه رجل كيس ومؤثر

في السيدات. وإن مارفا بتروفنا المسكينة التي ماتت في مثل هذه الظروف الغريبة لدليل قوي على ذلك. وإني لم أبغ غير خدمتك أنت ووالدتك بإسداء النصيحة؛ لما ينتظر منه قطعًا من تجديد لمجهوداته. أما أنا فموقن بأن هذا الرجل سينتهي إلى سجن المدنيين مرة ثانية، ولم تكن لدى مارفا بتروفنا أية نية على أن توصي له بمبلغ كبير من المال بل راعت صالح أولادها. وإذا كانت قد تركت له شيئًا فبقدر ما يكفي للضرورة. وهو مبلغ ضئيل وزائل لا يبقى سنة لدى رجل له مثل عاداته».

قالت دنيا: «أرجو يا بيوتر بتروفتش ألا تتكلم بأكثر من ذلك عن سفدريجايلوف، فإن هذا يضايقني».

وقطع رسكولنكوف السكوت لأول مرة إذ قال: «لقد زارني منذ هنيهة..».

فظهرت على الجميع علائم الدهشة والتفتوا إليه، وأبدى بيوتر بتروفتش نفسه اهتمامًا..

واستمر رسكولنكوف يقول: «كنت منذ ساعة ونصف نائمًا فأيقظني وقدم نفسه، وكان إلى حد ما رحب النفس سهلًا كبير الأمل في أن نكون أصدقاء. ولقد أبدى بهذه المناسبة رغبة شديدة في مقابلتك يا دنيا، وقد أطلعني على اقتراح ورجاني أن أبلغك رغبته في عرضه عليك. وأخبرني أيضًا أن مارفا بتروفنا ذكرت في وصيتها قبل وفاتها بأسبوع أنها توصي لك بمبلغ ثلاثة آلاف روبل وأنه يمكنك استلام هذا المبلغ بعد بضعة أيام».

فرسمت پولكيريا ألكسندروڤنا علامة الصليب صائحة: «شكرًا لله! فلتصلي من أجلها يا دنيا!».

فتدخل لوجين في الحديث قائلًا: «أهذا حقيقي؟».

وألحت دنيا على رسكولنكوف قائلة: «وماذا كان بعد ذلك؟».

– ثم أخبرني أنه ليس غنيًا، وأن جميع الأراضي ستؤول إلى أولاده الذين يقيمون مع عمتهم، وقال أيضًا إنه يسكن بالقرب مني، لكنني نسيت أن أسأله عن مكان إقامته..

وصاحت پولكيريا ألكسندروڤنا تسأله في خوف: «وما الذي يريد عرضه على دنيا؟ هل أخبرك؟».

– نعم!

– ماذا؟

– سأخبركما فيما بعد..

وتوقف رسكولنكوف عن الكلام وانصرف إلى شرب الشاي، ونظر پيوتر بتروڤتش في ساعته ثم قال متضايقًا: «لديّ موعد عمل يجب المحافظة عليه، وهكذا لا أكون في سبيلكم»، وهم بالقيام.

فقالت دنيا: «لا تذهب يا پيوتر بتروڤتش فقد كنت تنوي قضاء هذا المساء معنا، ثم إنك كنت تبدي رغبة في الاستفسار عن أمر من والدتي».

فأجاب پيوتر بتروڤتش بصوت المتأخر وقد عاد للجلوس، ولكنه احتفظ بالقبعة في يده: «هذا حقيقي يا أفدوتيا رومانوڤنا. ومن المؤكد

أني راغب في التفاهم معك ومع والدتك المحترمة على أمور في غاية من الأهمية، غير أن أخاك لا يستطيع أن يتكلم في حضوري بصراحة عن مقترحات السيد سفيدريجايلوف، كما أني لا أرغب ولا أستطيع التكلم بصراحة في حضور آخرين في بعض المسائل ذات الخطورة الكبيرة. ومع هذا فقد أبديت رغبة ملحة لها أكبر وزن عندي فأهملت!».

واتخذ لوجين مظهر الغضب وعاد إلى السكوت محتفظًا بوقاره، فأجابت دنيا: «إن رغبتك في ألا يكون أخي حاضرًا في هذه المقابلة قد أهملت بناء على طلبي أنا. لقد كنت تقول إن أخي أهانك فيجب أن توضح هذا فورًا، وإذا كان روديا قد أهانك حقيقة فعليه أن يعتذر لك وأن نوفق بينكما».

وبدا پيوتر بتروڤتش بمظهر المتشدد فقال: «من الإهانات يا أفدوتيا رومانوڤنا ما لا ينساه المرء مهما حسنت نيته، وفي كل الأمور حد يكون من الخطر أن يتعداه الإنسان، فإذا ما تعداه استحال عليه الرجوع.».

فقاطعته دنيا في شيء من نفاد الصبر: «ليس هذا ما أتكلم عنه تمامًا يا پيوتر بتروڤتش! إني لأرجو أن تفهم أن مستقبلنا كله يتوقف على إيضاح هذه الأمور وتسويتها في أسرع وقت، وأخبرك صراحة منذ البداية أني لا أستطيع النظر إليها في ضوء آخر. وإذا كنت تشعر بأقل ميل نحوي فيجب أن تسوي هذه الأمور مهما قامت صعوبات في سبيل ذلك، وإني لأكرر أنه إذا كان أخي هو الملوم فعليه أن يطلب منك الصفح..».

قال لوجين وقد زاد ضيقه: «إني لمندهش من أنك تنظرين إلى المسألة على هذا الوجه، فإني أحترمك- بل قد يقال أعبدك- ولكني في الوقت ذاته

أستطيع أن أكره أحد أعضاء أسرتك. وإذا كنت أزعم لنفسي أن سعادتي في يديك فإني لا أقبل واجبات لا تتفق مع...».

فقاطعته دنيا في تحمس قائلة: «لا تكن سريع الغضب بل كن الرجل الحكيم الكريم الذي أعهده وأحب أن أعهده فيك دائمًا، وهو الذي وعدته وعدًا مقدسًا بأن أتزوج منه. فثق بي في هذه المسألة، وأعتقد أني أستطيع أن أحكم فيها من غير تحيز، وإن كان في اتخاذي موقف القاضي مفاجأة لأخي بقدر ما هو مفاجأة لك، فحين طلبتُ منه في إلحاح بعد رسالتك أن يحضر هذه المقابلة لم أطلعه على غرضي بأي حال. وثق أنكما إذا رفضتما الصلح فإني سأضطر للاختيار بينكما، فإما أنت وإما هو. هذا هو الموقف بالنسبة لك وله. ولست أريد أن أخطئ في الاختيار، ولا يجب أن أخطئ. فمن أجلك أقاطع أخي، ومن أجل أخي سأقاطعك. وسأبحث الآن لأتأكد هل هو أخ لي، وإني أود أن أعرف ذلك. كما أرجو أن أعرف هل أنا عزيزة عليك، وهل تحترمني، وهل أنت الزوج الصالح لي..».

فأجاب لوجين محتدًا: «إن كلماتك يا أفودتيا رومانوفنا لها أكبر نتائج عندي، بل أقول أكثر من ذلك إنها مهينة بالنسبة للمركز الذي أتشرف بشغله في علاقتي بك. فإذا سكتّ عن الإهانة والغرابة- إذ وضعتني في مستوى واحد مع شاب نزق- فكيف تعترفين باحتمال نقض وعدك لي فتقولين: أنت أو هو، وتدلين بذلك على أن أهميتي قليلة في عينيك؟.. إني لن أدع هذا القول يمر بسهولة نظرًا لعلاقتنا و... التعهدات القائمة بيننا..».

صاحت دنيا وقد علا وجهها الاحمرار: «ماذا! لقد وضعتك في كفة أمام أعز ما لديّ إلى الآن في حياتي، بل أمام كل ما تتألف منه حياتي، ثم

تتذمر بعد ذلك وتظن أني لا أقدرك إلا قليلًا؟!».

وابتسم رسكولنكوف في سخرية، وتحرك رازوميهين متململًا، ولكن پيوتر بتروڤتش لم يقبل هذا العتب بل صار على أثر كل كلمة يزداد إصرارًا وغضبًا وكأنه يجد لذة في ذلك، وصاح في لهجة قاطعة: «يجب أن يكون حبك لزوجك- وهو شريك حياتك في المستقبل- فوق حبك لأخيك، وعلى كل حال يجب ألا يوضعا في مستوى واحد.. لقد قلت مؤكدًا إني لا أريد الكلام صراحة في حضور أخيك، غير أني عزمت على أن أطلب من والدتك المبجلة تفسيرًا واجبًا في مسألة ذات أهمية كبرى تتصل بكرامتي اتصالًا وثيقًا».

ثم اتجه نحو پولكيريا ألكسندروڤنا يخاطبها: «إن ابنك أهانني بالأمس في حضور السيد رازوميهين (أظن هذا اسمك؟ ومعذرة إذا كنت قد نسيت.. وانحنى لرازوميهين في أدب) إذ شوه فكرة أبديتها في حديث خاص وأنا أشرب القهوة عندكم، وهي أن الزواج من فتاة فقيرة مجربة هو أكثر مزية من وجهة القران الزوجي من الزواج بفتاة عاشت في الترف؛ لأن الفقر أكثر فائدة من الوجهة الأخلاقية. فعمد ابنك إلى المبالغة في معنى كلماتي حتى صارت سخيفة، ونسب إليَّ أغراضًا سيئة. وفي تقديري أنه اعتمد على رسالتك له في معرفة تلك الفكرة. ويسرني جدًا يا پولكيريا ألكسندروڤنا إذا استطعت إقناعي بأن تقديري كان خاطئًا، فهذا مما يطمئنني كثيرًا. وأرجوك أن تخبريني بفحوى العبارات التي نقلت بها كلماتي في رسالتك لروديون رومانوڤتش».

فأجابت پولكيريا ألكسندروڤنا متلعثمة: «لا أتذكر، ولكني نقلت كلماتك كما فهمتها. ولا أعلم كيف أعادها روديا عليك، وربما بالغ فيها..».

- إنه لم يبالغ فيها إلا بتأثيرك!

فقالت پولكيريا ألكسندروڤنا في وقار: «إن البرهان يا پيوتر بتروڤتش على أني ودنيا لم نحمل كلامك محملًا سيئًا هو وجودنا هنا».

فقالت الفتاة موافقة: «أحسنت يا أماه..».

وقال لوجين غاضبًا: «إذن أنا المخطئ مرة ثانية..».

وأضافت پولكيريا ألكسندروڤنا وقد ازدادت شجاعة: «إنك يا پيوتر بتروڤتش تصرّ على توجيه اللوم لروديون مع أنك في رسالتك الأخيرة اتهمته تهمة غير صحيحة».

- لا أذكر أني كتبت ما هو غير صحيح..

فقال رسكولنكوف في حدة من غير أن يلتفت إلى لوجين: «كتبت أني أعطيت المال أمس لا لأرملة الرجل الذي قتل كما هو الواقع بل لابنته (التي لم أرها قط في الواقع إلا بالأمس). وقد كتبت ذلك بقصد إيجاد خلاف بيني وبين أسرتي، ولكي تصل إلى هذا الغرض وصفت سلوك فتاة لا تعرفها بعبارات نابية، وكل هذا وشايات دنيئة..».

فقال لوجين وهو يرتجف غيظًا: «معذرة يا سيدي! إني إذا كنت أطلت الكلام عن صفاتك ومسلكك في حديثي، فما ذلك إلا إجابة لأسئلة والدتك وأختك عما وجدتك عليه وما أحدثته من تأثير في نفسي. أما الإشارة إليك

في خطابها فلتتفضل ببيان كلمة واحدة ليست صحيحة، ولتبين مثلًا أنك لم تبدد نقودك وأنه ليس في هذه الأسرة أفراد غير جديرين بالشفقة مهما كانت الأسرة سيئة الحظ».

– في رأيي أنك مع كل فضائلك لا تساوي خنصر الفتاة المسكينة التي تقذفها بالأحجار..

– هل تذهب إلى حد أن تسمح لها بالاختلاط بوالدتك وأختك؟

– لقد فعلت ذلك إذا شئت أن تعلم، فقد حملتها اليوم على الجلوس مع والدتي ودنيا.

فصاحت پولكيريا ألكسندروڤنا: «روديا!»، واحمر وجه دنيا، وقطب رازوميهين حاجبيه. أما لوجين فابتسم في سخرية المتعالي وقال: «يمكنك أن تحكي بنفسك يا أفدوتيا رومانوڤنا: هل في الإمكان أن نتفق؟ وإني لآمل الآن أن نقرر أن هذه المسألة قد بلغت نهايتها وفرغ منها بصورة حاسمة. وسأنسحب كي لا أحرم الأسرة من لذة اجتماعاتها الخاصة والمناقشة في الأسرار». ونهض وأخذ قبعته: «غير أني في انسحابي أتقدم بالرجاء في المستقبل في أن أعفى من مثل هذه المقابلات والاتفاقات، وإني أتوجه بهذا الرجاء إليك خاصة يا سيدتي پولكيريا ألكسندروڤنا المحترمة، لا سيما أن خطابي كان موجهًا إليك لا لشخص آخر».

فتضايقت پولكيريا ألكسندروڤنا بعض المضايقة وقالت: «يظهر أنك تظن يا پيوتر بتروڤتش أننا خاضعون لسلطتك خضوعًا تامًا.. لقد أخبرتك دنيا بسبب إهمالها رغبتك، وما أحسن قصدها.. والواقع أنك تكتب

وكأنك تلقي الأوامر عليَّ، فهل تعتبر كل رغبة تبديها أمرًا؟ اسمح لي أن أخبرك أنه يجب- على عكس ذلك- أن تبدي هنا كل رقة واعتبار، لا سيما الآن.. لأننا ألقينا بكل شيء وجئنا معتمدين عليك، ونحن على كل حال في يديك..».

قال لوجين في سخرية: «قولك لا يمثل الواقع تمامًا في هذه اللحظة يا پولكيريا ألكسندروڤنا، لا سيما بعد أن علمت بوصية مارڤا بتروڤنا لابنتك. فقد جاء النبأ في أنسب وقت، وهذا ظاهر من اللهجة الجديدة التي تتخذينها معي..».

فقالت دنيا في غضب: «قد تستنتج حقًا من هذه الملاحظة أنك كنت تدخل في حسابك عوزنا وحاجتنا للمساعدة..».

قال: «على أية حال لا أستطيع أن أدخل ذلك في حسابي الآن، وإني لأرغب الآن بصفة خاصة ألا أحول دون مناقشة المقترحات السرية لأركادي إيڤانوڤتش سفدريجايلوف، وهي التي عهد إلى أخيك في إبلاغها، وأرى أن لها أهمية كبرى عندك وقد تكون ملائمة..».

فقالت پولكيريا ألكسندروڤنا: «رباه!». وتحرك رازوميهين في كرسيه ولم يستطع أن يبقى ساكنًا.

فسأل رسكولنكوف: «ألا تشعرين الآن بالخجل يا أختاه؟».

فأجابت دنيا: «إني خجلة يا روديا». ثم التفتت إلى پيوتر بتروڤتش وقد امتقع لونها من الغضب وقالت: «فلتخرج يا پيوتر بتروڤتش!».

ويظهر أن بيوتر بتروڤتش لم يتوقع مطلقًا هذه النتيجة، فقد كان شديد الثقة بنفسه وبقوته وضعف ضحاياه، ولم يستطع أن يصدق أذنيه حتى في تلك اللحظة، فامتقع لونه وارتجفت شفتاه وقال: «اعلمي يا أفدوتيا رومانوڤنا أني إذا خرجت الآن من هذا الباب بعد هذا الطرد فلن أعود.. فلتفكري فيما تعملين وأن كلمتي لن تتزعزع..».

فصاحت دنيا وقد وثبت من كرسيها: «أية وقاحة! إني لا أريد عودتك!».

– ماذا؟ إلى هذه الدرجة تصل الأمور؟..

بهذا صاح لوجين وقد ظل حتى اللحظة الأخيرة لا يعتقد بانقطاع العلاقة بينه وبينها، فلا يعرف تقدير مركزه، وعاد يقول: «إلى هذه الدرجة تصل الأمور؟.. ولكن ألا تعرفين يا أفدوتيا رومانوڤنا أني قد أحتج؟..».

فتدخلت پولكيريا ألكسندروڤنا بشدة قائلة: «بأي حق تخاطبها بهذه الصورة، وعلام تحتج، وأي حق لك في الاحتجاج؟ وهل أسلم ابنتي دنيا لرجل مثلك؟ فلتذهب وتتركنا وشأننا، إننا الملومون لأننا وافقنا على عمل خاطئ، وأنا قبل الجميع...».

فقال لوجين وقد ثار ثائره واشتد غضبه: «ولكنك يا پولكيريا ألكسندروڤنا قيدتني بوعدك! وأنت الآن تنكرين الوعد... وفضلًا عن ذلك... لقد تحملت نفقات بسبب هذا الوعد..».

فدلت هذه الشكوى على أخلاق لوجين، حتى أن رسكولنكوف بالرغم من امتقاع لونه من الغيظ وكظم هذا الغيظ لم يتمالك نفسه من

الضحك، ولكن پولكيريا ألكسندروڤنا كانت في شدة الغضب وصاحت: «نفقات! أية نفقات؟ لعلك تعني الحقيبة؟ لكن سائق القطار أتى بها بلا مقابل.. يا الله! نحن قيدناك؟ فيم تفكر يا پيوتر بتروڤتش؟ إنك أنت الذي قيدنا من اليد إلى القدم! لا نحن!».

قالت أفدوتيا رومانوڤنا: «كفى يا أماه! كفى! وأرجوك يا پيوتر بتروڤتش أن تذهب!».

قال، ولم يعد قادرًا على ضبط عواطفه: «إني ذاهب، ولكن لي كلمة أخيرة: يظهر أن والدتك نسيت تمامًا أني عزمت على أخذك- إذا صح هذا التعبير- بعد أن استفاض حديث المدينة وانتقل إلى الإقليم بما يمس سمعتك، فلم أهتم للرأي العام من أجلك وأعدت إليك سمعتك. وإني كنت أحسب أن تقبلي هذا الجميل وأنتظر الاعتراف به منك، ولم تفتح عيناي غير الآن.. وأرى الآن بنفسي أني كنت متسرعًا جدًا في عدم اعتدادي بحكم الناس..».

فهبّ رازوميهين واقفًا وصاح: «يخيل لي أن هذا الرجل يريد أن يكسر رأسه!».

وقالت دنيا: «إنك رجل حقير حقود!».

وصاح رسكولنكوف وقد حجز رازوميهين: لا تقل كلمة ولا تأت بحركة». واقترب من لوجين وخاطبه في صوت هادئ واضح قائلًا: «أرجو أن تغادر الغرفة! لا تفه بكلمة أخرى، وإلا...».

فنظر إليه پيوتر بتروڤتش بوجه ممتقع وهو يرتعش غضبًا، ثم استدار

وخرج. وقلما بلغ الحقد في نفس الرجل ما بلغه على رسكولنكوف، فإليه وحده كان يعزو كل شيء، وكان وهو ينزل السلم يظن أنه لم يخسر قضيته نهائيًا، وأنه- فيما يتعلق بالسيدتين- قد يكون من المستطاع تسويتها مرة ثانية.

* * *

(٣)

الواقع أنه ظل حتى اللحظة الأخيرة لا ينتظر مثل هذه النهاية مطلقًا. وقد بلغ في غروره الدرجة القصوى، ولم يتصور مطلقًا أن امرأتين فقيرتين لا سند لهما تستطيعان النجاة من سيطرته، وكان يقوي هذا الاعتقاد في نفسه زهو وأنانية بلغا حد السخافة. فإن پيوتر بتروڤتش الذي شق طريقه من العدم كان مريضًا بالإعجاب بالنفس، يضع ذكاءه وكفاءته في أرفع مرتبة، وأحيانًا وهو على انفراد يقف معجبًا بصورته أمام المرآة، ولكن ما يحبه ويقدره فوق كل شيء هو المال الذي جمعه بكده وبكل الوسائل، فإن هذا المال هو الذي جعله مساويًا لجميع من هم أعلى منه.

وكان پيوتر بتروڤتش يتكلم في إخلاص تام حين عمد إلى تذكرة دنيا بأنه قرر أخذها بالرغم من إشاعات السوء، وكان في الواقع غاضبًا بحق لمثل هذا الجحود والتنكر لفضله. ومع ذلك فإنه حين عرض على دنيا الزواج منها، كان واثقًا كل الثقة من أنه لا أساس لحديث الناس. فقد

أنكرت مارڤا بتروڤنا القصة في كل مكان، كما أنكرها الناس من تلقاء أنفسهم من قبل. وأخذوا يدافعون عن دنيا في حرارة. ولا يمكنه أن ينكر أنه عرف كل ذلك في ذاك الوقت، ولكنه كان مع ذلك يقدر تقديرًا كبيرًا عزمه على أن يرفع دنيا إلى مستواه، ويعتبره عملًا من أعمال البطولة. وهو في حديثه عن هذا لدنيا أظهر ما يكنه من الإعجاب الشديد بنفسه وشعوره الخفي بذلك. ولم يستطع أن يفهم لماذا لم يعجب به الآخرون أيضًا. وقد زار رسكولنكوف بمشاعر الرجل المحسن الذي يريد أن يجني ثمار خيراته ويسمع الثناء عليه، وكان وهو نازل من السلم يعتبر أنه لاقى من الإهانة والنكران ما لا يستحقه.

لقد صارت دنيا ضرورة أساسية عنده ولا يمكن التفكير في الاستغناء عنها. ولقد ظل سنوات عديدة يحلم الأحلام اللذيذة بالزواج، وأخذ ينتظر ويجمع المال وهو يفكر بلذة، وفي أعمق خفايا نفسه، بصورة فتاة مستقيمة وفقيرة (ويجب أن تكون فقيرة) صغيرة جدًا، وجميلة جدًا، مثقفة، ومن أسرة طيبة، وخجول جدًا.. تعذبت كثيرًا، وانكسرت نفسها أمامه، فتنظر إليه طول حياتها على أنه المنقذ لها فتعبده وتعجب به وحده فقط.

وكم تخيل من مناظر وحوادث غرامية حول هذه الفكرة الجذابة التي كانت تراوده بعد الانتهاء من عمله! وكاد حلم هذه السنوات جميعها يتحقق إذ تأثر بجمال أفدوتيا رومانوڤنا وثقافتها، وكان موقفها وعجزها مما زاده انجذابًا إليها، فوجد فيها أكثر مما كان يحلم به. فهنا فتاة فيها كبرياء وصفات جميلة وفضيلة وثقافة وتربية أعلى منه (وكان يشعر بذلك) وهذه الفتاة ستكون شاكرة لفضله في خضوع طول حياتها لنزوله إليها نزولًا فيه

نفحة البطولة، وستنخفض بنفسها إلى التراب أمامه ويكون له عليها سلطان مطلق غير محدود!...

ومنذ زمن غير بعيد كان قد أقدم على تغيير مهم في مجرى حياته بعد طول تفكير وتردد، ورحل إلى دائرة أوسع في الأعمال. ومع هذا التغيير بدت أحلامه في الارتفاع إلى طبقة أعلى في الهيئة الاجتماعية على وشك التحقق... والواقع أنه كان عازمًا على تجربة حظه في مدينة بطرسبرج، وكان يعرف أن النساء يفعلن كثيرًا جدًا، وأنه سيجد إلى جانبه امرأة فتانة مستقيمة مثقفة قد تسهل طريقه وتأتي بالعجائب في جذب الناس إليه وتوجد هالة حوله. والآن صار كل شيء حطامًا! وأثرت عليه هذه القطيعة كما تؤثر الصاعقة المنقضة، بل هي كالنكتة السخيفة التي لا معنى لها. لقد أظهر قليلًا من السيطرة، ولم يكن لديه الوقت لشرح رأيه، وكل ما فعله هو أنه أبدى نكتة ثم اندفع فيها، فإذا بهذه النهاية الخطيرة. ومن الطبيعي أيضًا أنه يحب دنيا على طريقته، وهو قد امتلكها في أحلامه، فإذا بكل شيء ينتهي فجأة... لا! في اليوم التالي، في اليوم التالي بالذات، يجب أن يصلح كل شيء، يهدئه، يزيل أثره. وعليه أولًا أن يقضي على هذا الحدث المتكبر الذي كان السبب في كل هذا. وفي شعور أليم لم يستطع إلا أن يذكر رازوميهين أيضًا. ولكنه لم يلبث أن طمأن نفسه من هذه الجهة، فإن شخصًا مثل رازوميهين لا يمكن أن يوضع في مستواه. فالرجل الذي يخشاه حقًا ليس إلا سفدريجايلوف... وبالجملة فإن لديه الكثير مما يجب أن يشغل به.

***

قالت دنيا وهي تقبل والدتها وتحتضنها: «لا! إني الملومة أكثر من أي إنسان آخر.. لقد غرني ماله ولكني أقسم بشرفي أيها الأخ أني لم أظن أنه رجل حقير إلى هذا الحد.. فلو أني تبينت ذلك فيه لما انجذبت إليه مطلقًا. فلا تلمني!».

تمتمت پولكيريا ألكسندروڤنا في غير احتفال وكأنها غير مستطيعة تقدير ما حدث: «لقد أنقذنا الله! لقد أنقذنا الله!».

وشعر الجميع بالارتياح لخروجه، ولم تمض خمس دقائق حتى كانوا يضحكون، إلا أن دنيا كانت تتذكر بين حين وآخر ما حدث فيمتقع لونها ويتقطب جبينها. وقد دهشت پولكيريا ألكسندروڤنا إذ وجدت أنها تشعر أيضًا بالارتياح، وكانت في هذا الصباح نفسه تعتبر القطيعة مع لوجين كارثة أليمة. أما رازوميهين فكان مبتهجًا، وإن كان لم يجرؤ على إظهار ابتهاجه. وكان في حمى من التأثر وكأن ثقلًا كبيرًا رفع عن قلبه، فله الآن الحق في أن يبذل حياته في سبيل السيدتين ويقوم على خدمتهما... وكل شيء محتمل حدوثه الآن، ولكنه شعر بالخوف من الاحتمالات الأخرى.. ولم يطلق لخياله العنان. وأما رسكولنكوف فبقي ساكنًا في مكانه يكاد يكون عابسًا وغير مكترث. وبالرغم من أنه كان أشدهم إصرارًا على التخلص من لوجين، كان يبدو الآن أقلهم اهتمامًا بما حدث، ولم تستطع دنيا إلا أن تظن أنه لا يزال مستاء منها، وكانت پولكيريا ألكسندروڤنا تلاحظه في حياء..

ثم اقتربت دنيا منه وسألته: «أخبرني ما الذي قاله لك سفدريجايلوف».

وصاحت پولكيريا ألكسندروڤنا: «نعم! نعم!».

فرفع رسكولنكوف رأسه وقال: «إنه يريد أن يهديك مبلغ عشرة آلاف

روبل، ويرغب في مقابلتك مرة في حضوري..».

صاحت پولكيريا ألكسندروڤنا: «يقابلها! لا يجب أبدًا! وكيف يجرؤ على تقديم نقود لها؟».

فأعاد رسكولنكوف حديثه مع سفيدريجايلوف في شيء من الاقتضاب، ولم يذكر شيئًا عن زيارات شبح مارڤا بتروڤنا لكي يتجنب ما لا ضرورة له في الحديث.

وسألت دنيا: «وماذا كانت إجابتك؟».

- قلت في مبدأ الأمر إني لن أبلغ رسالته إليك، فقال إنه سيبذل كل ما في وسعه لمقابلتك دون مساعدتي، وأكد لي أن عشقه لك كان شعورًا زائلًا وهو لا يشعر به الآن، وهو لا يريد أن تتزوجي من لوجين، وكان حديثه مشوشًا في مجموعه..

- ما رأيك فيه يا روديا؟ ماذا كان أثره فيك!

- يجب أن أعترف بأني لا أفهمه! فهو يهدي عشرة آلاف روبل ثم يقول إنه ليس ميسور الحال.. وهو يقول إنه سيسافر للخارج وفي عشر دقائق ينسى ذلك ويذكر أنه سيتزوج وأنه اختار فتاته... لا شك في أن له غرضًا، والغالب أنه غرض سيئ! ولكنه يكون غير موفق إذا أراد بك أمرًا، فإن طريقته غليظة سخيفة.... ومن الطبيعي أني رفضت هذا المال نهائيًا نيابة عنك، وكان الرجل في مجموعه غريبًا جدًا... وقد يظن فيه المرء الجنون، ولكني قد أكون مخطئًا ويكون هذا دورًا يمثله، ويظهر أن وفاة مارڤا بتروڤنا أثرت فيه تأثيرًا كبيرًا..

صاحت پولكيريا ألكسندروڤنا: «رحمة الله عليها! سأصلي دائمًا من أجلها. ماذا كنا نفعل الآن يا دنيا من غير الثلاثة آلاف روبل؟ لقد هبط علينا هذا المبلغ هبة من الله، إذ لم يكن عندنا يا روديا في هذا الصباح غير ثلاثة من الروبلات في جيبنا. وكنت أفكر أنا ودنيا في رهن ساعتها لنتجنب الاقتراض من ذاك الرجل إلى أن يعرض المساعدة».

وكانت دنيا تبدو متأثرة تأثرًا غريبًا بما عرضه سفدريجايلوف وهي لا تزال واقفة تفكر في الأمر، وقالت في صوت خفيض كأنه الهمس وهي تكاد ترتعد: «لا بد أن لديه مقصدًا فظيعًا!».

ولاحظ رسكولنكوف خوفها الذي لا يتناسب مع الموضوع وقال لدنيا: «أظن أني سأضطر لرؤيته أكثر من مرة!».

وصاح رازوميهين في قوة: «سنراقبه ونقتفي أثره ولن يختفي عن نظري. لقد سمح لي روديا بذلك وقال لي منذ هنيهة: «اهتم بأمر أختي» فهل تسمحين لي أنت أيضًا يا أفدوتيا رومانوڤنا؟».

وابتسمت دنيا ومدت إليه يدها، ولكن نظرة القلق لم تفارق وجهها. وكانت پولكيريا ألكسندروڤنا تسترق النظر إليها في خوف، ولكن من الواضح أن الثلاثة آلاف روبل كان لها تأثير مهدئ لنفسها.

وبعد ربع ساعة كان الجميع مستغرقين في حديث مهم، حتى أن رسكولنكوف أخذ يصغي في اهتمام وإن لم يشترك فيه؛ وكان رازوميهين هو المتكلم.

وأفاض رازوميهين في حماسة يقول: «ولم ترحلون من هنا؟ وماذا تعملون في بلدة صغيرة؟ إن الشيء الأساسي هو أنكم مجتمعون هنا وأن كلا منكم في حاجة إلى الآخر، صدقوني إن كلا منكم في حاجة للآخر ولو إلى حين... أشركوني معكم وأؤكد لكم أننا سنقوم بعمل رابح، فأصغوا إليَّ لأبسط لكم مشروعي بتفصيلاته، وقد خطرت فكرته ببالي في هذا الصباح قبل حدوث أي شيء... وهذا المشروع هو أن لي عمًا سأقدمه لكم- وهو شيخ ظريف وقور- لدى هذا العم رأس مال يبلغ ألف روبل، وهو ليس في حاجة إليه لأنه يعيش على مرتب معاشه. ومنذ سنتين يلح في إقراضي هذا المبلغ وأن أدفع له فائدة قدرها ستة في المائة، وإني أفهم قصده فهو يريد مساعدتي. وفي العام الماضي لم أكن في حاجة إلى هذا المال، ولكني في هذا العام عزمت على اقتراضه عند وصول عمي، ثم أقرضاني ألف روبل من الثلاثة آلاف روبل من مالكما وحينئذ يمكن أن نشترك في عمل..».

أخذ رازوميهين يشرح مشروعه شرحًا مسهبًا فقال: «إن السواد الأعظم من ناشري الكتب عندنا والذين يتجرون بها لا يفهمون شيئًا عن عملهم، لذلك فهم لا يحسنون النشر، وإن المطبوعات الجيدة تعوض ما ينفق عليها وتجزي ربحًا هو في بعض الأحيان ربح كثير».

وفي الواقع أن رازوميهين كان يحلم بأن يقوم بمشروع للنشر، وكان في العامين الأخيرين يعمل مع عدد من دور النشر، وهو يتقن ثلاث لغات أوروبية، وقد قال لرسكولنكوف منذ ستة أيام إنه ضعيف في اللغة الألمانية، وكان يقصد من وراء ذلك أن يزين له الاشتراك معه في الترجمة وفي نصف الأجر، وقد كذب عندئذ، ولم ينخدع روسكولنكوف بهذه الأكذوبة.

ثم صاح رازوميهين في حرارة: «لماذا إذن ندع الفرصة تفلت منا مع أن لدينا أهم وسيلة للنجاح وهي المال؟.. سيكون هنالك بالطبع عمل كثير، ولكننا سنعمل معًا يا أفدوتيا رومانوڤنا: أنت وأنا وروديون... إن الكتب تربح ربحًا كثيرًا في هذه الأيام، وميزتنا في عملنا أننا سنعرف تمامًا ما يستحق الترجمة، وسنكون مترجمين وناشرين وندرس في الوقت ذاته، وسأكون نافعًا بما لدي من تجربة، فقد خالطت أغلب الناشرين مدة سنتين، فوقفت على أدق أسرار مهنتهم، وليست هي بالمهنة الصعبة. صدقوني.. لقد سنحت الفرصة للربح، فلماذا نتركها؟ إني لأحتفظ بسر كتابين أو ثلاثة تساوي مجرد فكرة ترجمتها ونشرها مائة روبل للواحد، بل إني لا آخذ أقل من خمسمائة روبل.. ولكن ماذا تظنون؟ لو أني أخبرت ناشرًا عنها لتردد.. إنهم لأغبياء! أما الجانب العملي كالطبع والورق والبيع فثقوا بي.. إني أعرف طريق! وسنبدأ العمل صغيرًا ثم نتوسع فيه، وعلى كل حال سنحصل منه على قوتنا ونسترد رأس المال..».

فتلألأت عينا دنيا وقالت: «يعجبني اقتراحك يا ديمتري بروكوڤيتش».

وقالت پولكيريا ألكسندروڤنا: «إني بالطبع لا أفهم فيه شيئًا! فقد تكون الفكرة صائبة، ولكن العلم عند الله.. فهي جديدة عليّ ولم أجربها بعد، غير أننا مضطرون للبقاء هنا على الأقل بعض الوقت» قالت ذلك ونظرت إلى روديا.

ثم سألت دنيا: «ما رأيك في هذه الفكرة يا أخي؟».

فأجاب رسكولنكوف: «أظن أنها فكرة سديدة جدًا، غير أنه من التسرع الحلم بدار للنشر، ومن المؤكد أننا نستطيع نشر خمسة كتب أو ستة ونكون

واثقين من النجاح فيها.. وإني لأعرف كتابًا لا بد من نجاحه. أما عن مقدرة رازوميهين على إدارة العمل فلا شك في ذلك أيضًا.. فهو يعرفه. ولكنا نستطيع بحث هذا الموضوع فيما بعد..».

فصاح رازوميهين: «مرحى! لقد تذكرت الآن شقة في هذا البيت. وهي مستقلة لا تتصل بهذا البناء، وإيجارها معتدل، بأثاثها، وتتألف من ثلاث غرف. فأجروها في بادئ الأمر، وسأرهن ساعتك غدًا وآتيك بالمال ثم ندبر كل شيء.. ويمكن لكم أن تعيشوا أنتم الثلاثة ومعكم روديا! ولكن إلى أين تذهب يا روديا؟».

وسألت پولكيريا ألكسندروڤنا في قلق: «ماذا! هل أنت ذاهب الآن يا روديا؟».

وصاح رازوميهين: «في مثل هذه اللحظة!».

ونظرت دنيا إلى أخيها في دهشة وهي لا تكاد تصدق، وكان قد أمسك قبعته بيده واستعد للانصراف، وقال لهم في لهجة غريبة بعض الشيء: «كأني بكم تدفنونني أو تودعونني للأبد!».

وحاول الابتسام، ولكن الابتسامة لم تتحقق، ثم نطق عبارة كأنها خارجة صدفة: «ومن يدري؟ لعل هذا آخر اجتماع لنا!» وكانت هذه هي الفكرة التي تدور في ذهنه، وقالها فإذا هي تخرج في صوت مرتفع بعض الشيء.

فصاحت والدته: «ماذا جرى لك؟».

وسألت دنيا في شيء من الاستغراب: «أين أنت ذاهب يا روديا؟».

أجاب رسكولنكوف في لهجة غامضة كأنه متردد فيما يقول: «إني مضطر لأن...» إلا أن وجهه الشاحب كان ينم على عزم ثابت، ثم تابع القول:

– أردت أن أقول.... وأنا قادم إلى هنا... أردت أن أقول لكما– لوالدتي ولك يا دنيا– إنه خير لنا أن ننفصل بعض الوقت.. فإني أشعر بانحراف في صحتي وأني في حاجة إلى الهدوء.. وسأعود بعدئذ، سأعود من تلقاء نفسي.. إذا كان هذا مستطاعًا. إنني لن أنساكما وسأحبكما دائمًا... اتركاني... اتركاني وحدي!.. قررت ذلك من زمن مضى.. وإني ثابت العزم على ذلك. ومهما يحدث لي، سواء حل بي الخراب أم لا، فإني أريد أن أكون وحيدًا. أرجوكما نسياني، ففي هذا الخير.. لا تسألا عني... وحين يكون ذلك مستطاعًا سآتي من تلقاء نفسي... أو أرسل لكما، ربما كان لي عودة، ولكن إذا كنتما تحباني فأهملا شأني... وإلا بدأت أشعر بالكراهية نحوكما... أستودعكما الله!».

صاحت پولكيريا ألكسندروڤنا: «رباه!».

وذعرت الأم والأخت ذعرًا شديدًا، وكان هذا شأن رازوميهين. ثم صاحت الأم المسكينة: «روديا! روديا! كن على وفاق معنا.. لنكن كما كنا في الماضي!».

واتجه رسكولنكوف في بطء نحو الباب، وخرج في بطء من الغرفة، فأدركته دنيا وهمست وعيناها تشعان بضوء الغضب: «ما أشد ما تسبب لوالدتنا أيها الأخ!».

فنظر إليها في تكاسل، وتمتم في صوت منخفض وكأنه لا يدرك تمامًا ما يقول: «لا يهم... سأعود! سأجيء!». وغادر الغرفة..

فصاحت دنيا: «إنك شرير أناني عديم الشفقة!».

وهمس رازوميهين في أذنها وهو يضغط على يدها بشدة: «إنه فاقد العقل لا عديم الشفقة.. إنه مجنون.. ألا ترين ذلك؟ فأنت بعد العديمة الشفقة!».

ثم صاح للأم التي استولى عليها الفزع: «سأعود في الحال!». وجرى خارجًا من الغرفة..

وكان رسكولنكوف ينتظره في نهاية الممشى، فخاطبه قائلًا: «عرفت أنك ستتبعني... عد إليهما، وكن معهما، غدًا.. ودائمًا! أما أنا... فربما أعود... إذا استطعت... الوداع!».

ثم سار من غير أن يمد يده لرازوميهين.

فتمتم رازوميهين وقد أخذته الحيرة: «ولكن أين أنت ذاهب؟ وماذا تعمل؟ ماذا بك؟ وكيف تسير على هذه الصورة؟».

فوقف رسكولنكوف مرة أخرى وقال: «أقول نهائيًا: لا تسألني عن شيء، وليس لديّ ما أخبرك به... لا تأت لرؤيتي.. ربما أعود... اتركني.. ولكن لا تتركهما! هل تفهمني؟».

كان الممر مظلمًا وهما واقفان على مقربة من مصباح، وأخذ كل منهما ينظر إلى الآخر في سكون مدة دقيقة. وظل رازوميهين طول حياته يتذكر تلك الدقيقة، فكانت عينا رسكولنكوف المتقدتان النافذتان تزدادان

قوة في كل لحظة وهما تخترقان خبايا نفسه ومشاعره. وفجأة مرّ بينهما خاطر غريب... فإن فكرة أو إشارة اتضحت للاثنين، وثبت في وعيهما أمر فظيع كريه فامتقع لون رازوميهين..

قال رسكولنكوف ووجهه يتقلص في حركات عصبية: «هل تفهم الآن؟.» ثم قال فجأة: «عد! عد إليهما!». واستدار سريعًا وغادر الدار..

ولا أحاول وصف رازوميهين وعودته إلى السيدتين، وكيف هدأ من روعهما ودافع عن روديا بأنه في حاجة للراحة لما به من مرض.. ومن المؤكد أن روديا سيعود، وسيأتي إليهما كل يوم.. وأنه في ضيق شديد، فلا تجب استشارته.. وأن رازوميهين سيسهر على راحته، وسيأتي بطبيب من أكبر الأطباء لاستشارته... والواقع أن رازوميهين منذ ذاك المساء حل محل صديقه كابن وأخ لهما!.

سار رسكولنكوف قاصدًا المسكن القائم أمام القناة حيث تسكن سونيا، وكانت دارًا خضراء قديمة ذات ثلاث طبقات، فبحث عن البواب وعرف منه تقريبًا أين يقع منها مسكن الحائك كابرناوموف، وبعد أن عثر في ركن الفناء على السلم الضيق المظلم صعد إلى الطبقى الثانية، فإذا به في ممشاة طويلة تدور حول هذه الطبقة بأكملها.. وبينما هو يتلمس طريقه في الظلام، ويسأل نفسه عن كيفية الوصول إلى مسكن كابرناوموف، رأى بابًا يفتح على بعد ثلاث خطوات منه فأمسك به من غير قصد، فسأله صوت امرأة في قلق: «من هذا؟!».

أجاب رسكولنكوف: «هذا أنا! جئت لرؤيتك». ودخل من الباب الصغير، ورأى على كرسي مكسور شمعة شمعدان نحاسي قديم.

صاحت سونيا في ضعف: «هذا أنت! رباه!». وظلت كالمسمرة في مكان وقوفها..

وسألها: «أين غرفتك؟ من هنا؟». وسار رسكولنكوف مسرعًا إلى الغرفة وهو يحاول ألا ينظر إلى وجه الفتاة..

وتبعته سونيا بالشمعة بعد دقيقة، ووضعت الشمعدان وبقيت واقفة أمامه مأخوذة لا تتحرك، إذ اضطربت اضطرابًا شديدًا. وخافت على ما يظهر من هذه الزيارة غير المنتظرة، ثم صعد الدم فجأة لوجهها الشاحب، واغرورقت عيناها بالدموع، وشعرت بالمرض والخجل والسعادة أيضًا... وابتعد رسكولنكوف عنها سريعًا وجلس على كرسي بالقرب من المنضدة، وأخذ يفحص الغرفة في نظرات سريعة.

كانت غرفة رحبة، على أن سقفها منخفض جدًا. وهي الغرفة الوحيدة التي تؤجرها أسرة كابرناوموف. وفي الحائط بالجهة اليسرى باب مغلق يوصل إلى مسكن تلك الأسرة، وفي الجهة المقابلة في حائط اليمين باب آخر مغلق بالقفل على الدوام، وهو لمسكن آخر منفصل. وكانت الغرفة تبدو كمخزن ريفي للحبوب، فهو مربع غير منتظم، فكان منظرها غريبًا. وبالحائط المطل على القناة ثلاث نوافذ، وهو حائط أطول من المقابل له، فيولد في ركنه زاوية حادة مظلمة من الصعب الرؤية فيها إلا بضوء قوي. أما الزاوية الأخرى فهي منفرجة في غير تناسب، ولا يكاد يوجد في هذه الغرفة الرحبة من الأثاث إلا القليل، ففي الركن إلى اليمين سرير، وإلى جانبه على مقربة من الباب كرسي، ووضعت منضدة من الخشب الأبيض مغطاة بغطاء أزرق إلى جانب الحائط نفسه على مقربة من الباب المؤدي

للمسكن الآخر، وعلى جانبي المنضدة كرسيان من القش، وإلى جانب الحائط المقابل بالقرب من الزاوية الحادة دولاب صغير بأدراج من الخشب الأبيض. ويخيل إلى الناظر كأنه ملقى في صحراء. هذا كل ما في الغرفة، وقد غطيت جدرانها بورق أصفر قذر ملوث أسود في الأركان، ولا بد أن الغرفة رطبة تمتلئ بالدخان في الشتاء، ففيها كل ما يدل على الفاقة حتى أن السرير كان بغير ستائر.

نظرت سونيا في سكون إلى الزائر وهو يفحص غرفتها فحصًا دقيقًا في غير احتشام، وأخيرًا ابتدأت ترتجف وجلًا كأنها واقفة أمام القاضي المسيطر على مستقبلها.

سأل رسكولنكوف دون أن يرفع عينيه: «جئت متأخرًا... فقد بلغت الساعة الحادية عشرة. أليس كذلك؟».

تمتمت سونيا: «نعم!». ثم أضافت في سرعة: «أي نعم! هي كذلك!»، كأن في هذا القول وسيلة للنجاة: «لقد سمعت ساعة صاحبة المسكن تدق الآن... سمعتها بنفسي!».

قال رسكولنكوف في حزن: «لقد جئت للمرة الأخيرة»، مع أنها كانت أول مرة جاء فيها، ثم أضاف: «وربما لا أراك مرة ثانية..».

- هل أنت... راحل من هنا؟

- لا أدري.. غدًا..

فسألت سونيا في صوت مرتجف: «ألا تذهب إلى منزل كاترينا إيفانوفنا غدًا؟».

- لا أدري... سأعرف صباح الغد... دعينا من هذا: جئت لأقول لك كلمة واحدة..

ورفع عينيه المفكرتين إليها، فلاحظ فجأة أنه جالس وهي واقفة أمامه طول هذه المدة، فقال لها وقد تغير صوته فصار رقيقًا ووديًا: «لماذا أنت واقفة؟ اجلسي!».

فجلست، ونظر إليها في رفق بل حنان:

- إنك لنحيلة! أين يدك؟ إنها شفافة كأنها يد ميتة!

وأمسك يدها، فابتسمت سونيا ابتسامة خفيفة.

- إني كنت دائمًا هكذا!

- حتى عندما كنت تسكنين بدار أبيك؟

- نعم!

صاح رسكولنكوف فجأة: «بالطبع!».. وتغيرت ملامحه ونغمة صوته بغتة، ونظر حوله مرة أخرى..

- هل تستأجرين هذه الغرفة من أسرة كابرناوموف؟

- نعم...

- أيسكنون في الجهة الأخرى من هذا الباب؟

- نعم... إن لهم غرفة كهذه الغرفة!

- هل يقيمون جميعًا في غرفة واحدة؟

- نعم..

لاحظ في حزن: «لو كنت مقيمًا بغرفة كهذه لخفت في الليل..».

فأجابت سونيا وهي لا تزال مضطربة: «إنهم قوم خيرون رقيقون... وكل الأثاث... كل شيء... ملك لهم... وهم شفيقون... وكثيرًا ما يأتي الأطفال لزيارتي!».

– هل يلجلجون جميعًا؟

– نعم! الأب يلجلج، وهو أعرج. والأم كذلك... على أنها لا تلجلج تمامًا، بل لا تستطيع أن تتكلم بوضوح. وهي امرأة شفيقة جدًا، وكان زوجها كابرناوموف خادمًا منزليًا مسترقًا، ولهما سبعة أولاد أكبرهم يلجلج والباقون ضعفاء صحيًا وإن كانوا لا يلجلجون... ولكن قل لي: كيف عرفت هذا؟».

سألته بشيء من الاستغراب..

– أخبرني أبوك بهذا وقص عليَّ قصتكم بأكملها... وكيف خرجت في الساعة السادسة وعدت في الساعة التاسعة، وكيف جاءت كاترينا إيفانوفنا إلى جانب فراشك.

فاضطربت سونيا، ثم همست مترددة: «خيل إليَّ أني رأيته اليوم!».

– من؟

– أبي! فقد كنت أسير في الشارع عند ذلك الركن في نحو الساعة العاشرة، فكأني به يسير أمامي. وكان السائر مثله تمامًا، وكنت قاصدة كاترينا إيفانوفنا.

– كنت تسيرين في الشوارع؟

همست سونيا فجأة: «نعم!». وتغلب عليها الارتباك وخفضت نظرها..

– أظن أن كاترينا إيفانوڤنا.. كانت تضربك؟

– لا.. أبدًا! ماذا تقول؟ لا..

ونظرت إليه سونيا فيما يشبه الاستياء..

– إذن أنت تحبينها؟

– أحبها؟ طبعًا..

أجابت سونيا في لهجة التوكيد الحزين وضمت يديها في ألم: «آه! إنك لا تعرف.. لو كنت تعرف.. هي الآن كالطفل تمامًا... وقد أصبح عقلها غير مستقر كما ترى... من الأحزان! ما كان أبرعها وأكرمها... وأشفقها... إنك لا تفهم ذلك! إنك لا تفهم!».

قالت سونيا هذه العبارة وكأنها في يأس، وهي تفرك يدها في تأثر واضطراب، وقد صعد الدم إلى خديها الممتقعين، وظهرت في عينيها نظرة ألم، وصار من الواضح أنها تأثرت إلى أعماق نفسها، وأنها تتوق للكلام وللدفاع وللإعراب عن شيء، وظهر على كل عضو في وجهها نوع من العطف الذي لا ينضب، إذا صح هذا التعبير..

– تضربني؟! كيف تقول هذا؟ يا الله! تضربني؟! وحتى إذا ضربتني فماذا يكون؟ إنك لا تعلم شيئًا! لا تعلم شيئًا عن هذا! إنها تعسة... أواه! ما أشد تعاستها... وهي مريضة... وهي تنتظر العدالة لأنها طاهرة... وعندها إيمان راسخ بأن العدالة قائمة في كل مكان، فهي تنتظرها... وهي لا تقدم

على الشر ولو عذبتها... وهي لا ترى من المستحيل على الناس أن يكونوا عدولًا، فهي تغضب لذلك كالطفل! كالطفل! وإنها لخيرة!

فسألها: «وأنت ماذا يكون من أمرك؟».

فنظرت إليه سونيا نظرة استفسار..

فقال: «إنك ترين أنهم تُركوا لك... ومع ذلك فقد كانوا دائمًا في يديك... وكان أبوك يأتي لتمديه بالمال للشراب! فماذا يكون من أمرهم الآن؟».

قالت سونيا في حزن: «لا أعلم!».

– هل يظلون في مسكنهم؟

– لا أعلم... إنهم مدينون لصاحبة المسكن، وقد بلغني أنها أعلنت اليوم أنها تريد التخلص منهم. وتقول كاترينا إيفانوڤنا إنها لا تمكث لحظة واحدة.

– من أين جاءتها هذه الجرأة؟ هل تعتمد عليك؟

فصاحت: «لا تقل هذا!... نحن كفرد واحد! ونعيش كفرد واحد!».

اضطربت ثانية، بل غضبت، كما لو أن الطير الصغير يستطيع الغضب. ثم عادت تقول في تأثر: «وماذا تستطيع أن تفعل؟ لقد بكت اليوم بكاءً مرًا! وهل لم تلاحظ أن عقلها غير مستقر؟ فهي في لحظة من اللحظات تهتم كالطفل بأن يكون كل شيء منتظمًا من حيث الغذاء وغير ذلك، ثم إذا بها تقرع كفًا على كف وتبصق دمًا وتبكي وتضرب رأسها بالحائط في يأس، ثم تهدأ ثانية.. وهي تعلق كل آمالها عليك، فتقول إنك ستساعدها

الآن، وأنها ستقترض بعض المال وتسافر معي إلى البلدة التي نشأت فيها وتؤسس مدرسة داخلية لبنات الكبراء وتعهد إليّ في نظارة المدرسة فنبدأ حياة جديدة عظيمة.. وهي تقبلني وتضمني إلى صدرها وتطمئنني.. وإنك لتعلم أن لها إيمانًا وأي إيمان في أوهامها، ولا يمكن معارضتها.. وقد ظلت طول العام تغسل وتنظف وترتق، وجرت طشت الغسيل إلى الغرفة بيديها الضعيفتين وارتمت على الفراش وهي لا تكاد تستطيع التنفس. وقد خرجنا معًا في هذا الصباح لشراء أحذية لبولنكا وليدا؛ لأن أحذيتهما بليت، إلا أن النقود التي قدرناها لم تكن كافية، إذ اختارت أحذية جميلة صغيرة ولكنها مرتفعة الثمن، وقد لا تعرف أنها حسنة الذوق في الاختيار، وهناك بكت أمام الباعة حين لم تجد من النقود ما يكفي لشراء ما تريد، وما أشد هذا المنظر إيلامًا..».

فقال رسكولنكوف وهو يبتسم ابتسامة مرة: «فهمت الآن السبب في معيشتك بهذه الطريقة..».

فردت عليه سونيا في حماسة: «وأنت ألم تتألم لهم؟ ألم تتألم؟ إني لأعلم أنك أعطيت كل ما تملك من مال ولو أنك لم تر شيئًا، فلو أنك رأيت كل شيء... رباه! وكم من مرة دفعتها إلى البكاء! في الأسبوع الماضي فقط.. نعم.. أي قبل وفاته بأسبوع.. لقد كنت قاسية! وما أكثر ما فعلت! إن هذه الفكرة لتجعلني تعيسة طول يومي».

واعتصر يديها، وهي تتحدث متألمة من هذه الذكرى..

- هل كنت قاسية؟

قالت سونيا وهي تبكي: «نعم! أنا.. أنا.. ذهبت لرؤيتهم فقال لي والدي: «اقرئي لي شيئًا يا سونيا، فإن برأسي ألمًا. اقرئي شيئًا في هذا الكتاب». وكان معه كتاب أخذه من أندري سيميونوڤيتش ليزياتنكوف، أحد السكان هناك، وهو دائمًا يأتي بكتب مضحكة، فقلت له: «إني لا أستطيع المكث طويلًا»، إذ لم تكن بي رغبة في المطالعة، بل ذهبت خاصة لترى كاترينا إيفانوڤنا بعض الياقات. فقد باعتني إليزاڤتا البائعة المتجولة أكمامًا وياقات مطرزة، رخيصة الثمن جميلة جديدة، فأعجبت بها كاترينا إيفانوڤنا ولبستها، ونظرت إلى نفسها في المرآة وسرت بها سرورًا عظيمًا وقالت: «أهدينيها يا سونيا! أرجوك!». وكانت راغبة جدًا فيها، ولكن متى يمكن أن تلبسها؟ إنها تذكرها فقط بأيامها الأولى السعيدة! فهي تنظر في المرآة وتعجب بنفسها مع أنه ليس لديها أية ثيابٍ مطلقًا، ولم يبق لها من ثياب هذه السنوات وهي لا تسأل أي إنسان شيئًا، فهي متكبرة تفضل أن تتنازل عن كل شيء، ومع ذلك طلبت هذه الأكمام والياقات لأنها أعجبت بها كثيرًا ومع ذلك كنت آسفة لإعطائها وقلت: «وما فائدتها لك يا كاترينا إيفانوڤنا؟».. قلت هذا وكان من الواجب ألا أتكلم، فنظرت إليّ نظرة تنطق بالألم الشديد لأني أبيت. وكان من المحزن رؤية هذا... وكان من الواضح لي أنها تألمت، لا من أجل الأشياء ولكن من الرفض، وقد رأيت ذلك! ليتني أستطيع إعادة تلك الهمسات.. ولكن هذا الحديث لا يهمك!».

- هل تعرفين ليزاڤتا البائعة المتجولة؟

قالت سونيا في شيء من الدهشة: «نعم.. وهل عرفتها؟».

فقال رسكولنكوف بعد فترة سكون دون أن يجيب عن سؤالها: «إن

كاترينا إيفانوڤنا مصابة بالسل في آخر درجاته، وستموت قريبًا..».

- أواه! لا! لا! لا..

وأمسكت سونيا بيدي زائرها في توسل من غير أن تشعر، وكأنها تظن أن الأمر موكل إليه...

فقال: «ولكن من الخير أن تموت..».

كررت سونيا في قلق ومن غير أن تشعر: «لا! ليس من الخير! ليس من الخير مطلقًا!».

فقال: «والأطفال؟ ماذا تستطيعين عمله غير أخذهم ليعيشوا إلى جانبك؟».

صاحت سونيا في يأس وقد وضعت يدها فوق رأسها: «إني لا أدري!».

وكان من البين أن هذه الفكرة كثيرًا ما تدور في خلدها، وأنه لم يفعل أكثر من إيقاظها مرة أخرى. واستمر يقول في غير رأفة: «وماذا يكون لو مرضت الآن ولا تزال كاترينا حية ونقلت للمستشفى، ماذا يحدث؟».

- كيف تقول هذا؟ هذا لا يكون!

وارتسم على وجه سونيا الفزع الشديد. واستمر رسكولنكوف يقول وعلى شفتيه ابتسامة خشنة:

- هذا لا يكون! هل أنت آمنة من الأمراض؟ فماذا يحل بهم عندئذ؟ سيكونون في الشارع جميعًا.. والأم تسعل وتلتمس الإحسان وتضرب رأسها بالحائط كما فعلت اليوم، والأطفال يبكون... ثم تسقط إعياء، وتنتقل إلى مركز الشرطة، ثم إلى المستشفى، ثم تموت.. أما الأولاد...

وانفجرت سونيا أخيرًا في عبارة صادرة من قلبها المحمل: «لا! لا!... لن يسمح الله بذلك!».

كانت تصغي وهي تنظر إليه في توسل وقد شبكت يديها في دعاء صامت، كأن كل فعلها متوقف عليه.

ونهض رسكولنكوف من مكانه وأخذ يتمشى في الغرفة، ووقفت سونيا مطرقة في هم مقيم..

ووقف فجأة أمامها وسألها: «هل لا تستطيعين الاقتصاد ليوم ممطر عصيب؟».

فهمست: «لا!».

فقال فيما يشبه التهكم: «بالطبع لا! فهل حاولت؟».

– نعم!

– ولم تستطيعي أن تفعلي بالطبع.. لا! لا حاجة لهذا السؤال!

وعاد يتمشى في الغرفة. ومرت دقيقة..

– ألا تكسبين نقودًا في كل يوم؟

فارتبكت سونيا أكثر من ذي قبل، وأسرع الدم إلى وجهها ثانية. وهمست بعد أن بذلت جهدًا كبيرًا: «لا!».

فقال فجأة: «سيكون هذا شأن پولنكا بلا ريب!».

صرخت سونيا في يأس وكأنها طعنت بخنجر: «لا! لا! هذا لن يكون إلا... لن يسمح الله بذلك..».

- إنه سمح لغيرها!

فكررت وهي ثائرة: «لا! لا! سيحميها الله! سيحميها!».

وتغير وجهها فجأة، ومرت به رجفة، ونظرت إليه نظرة عتاب شديد، وحاولت الكلام ولكنها لم تستطع النطق بشيء، واندفعت في بكاء مرير وقد غطت وجهها بيديها..

فقال رسكولنكوف بعد فترة: «إنك تقولين إن عقل كاترينا إيفانوڤنا غير مستقر، وهذا عقلك غير مستقر أيضًا..».

مرت خمس دقائق وهو يتمشى في الغرفة في سكون من غير أن ينظر إليها، وأخيرًا اقترب منها وعيناه تلمعان، ووضع يديه على كتفيها وأطال النظر إلى وجهها المبتل بالدموع.. وكانت عيناه جامدتين محمومتين نافذتين، وشفتاه مرتجفتين، وفجأة انحنى في سرعة وارتمى على الأرض وقبل قدمها.. فتراجعت سونيا خائفة كما لو كان مجنونًا، ومن المؤكد أن منظره كان كمنظر المجانين..

تمتمت سونيا وقد امتقع لونها: «ماذا تفعل بي؟».

وشعرت بحزن فجائي يفيض على قلبها، فنهض في الحال، وقال في وحشية وهو يسير نحو النافذة: «إن لم أنحن لك، بل انحنيت لآلام الإنسانية جمعاء...» ثم أضاف بعد فترة: «أصغي إليَّ.. قد قلت الآن لرجل متغطرس أنه لا يساوي خنصرك... وأني أردت تشريف أختي فأجلستها إلى جانبك!».

صاحت سونيا خائفة: «هل قلت هذا لهم؟ في حضورها؟ إن الجلوس

إلى جانبي... شرف! لماذا؟ إني... غير شريفة... لماذا قلت هذا؟».

- لم أقل هذا بسبب سقوطك وخطيئتك، وإنما بسبب آلامك الشديدة، ولا ريب في أنك ارتكبت ذنوبًا كبيرة..

ثم أضاف مكررًا في لهجة وقورة: «غير أن شر ذنوبك هو أنك حطمت نفسك وخنتها بلا غرض! أليس هذا مخيفًا؟ أليس مخيفًا أن تعيشي في حمأة القذارة التي تمقتينها مقتًا وفي الوقت ذاته أنت تعرفين ذلك؟ وما عليك إلا أن تفتحي عينيك لتعرفي أنك لا تساعدين أحدًا بذلك ولا تنقذين أحدًا؟ خبريني..» واستمر في قوله وقد ازداد هياجًا: «كيف يوجد فيك هذا الخزي والعار جنبًا إلى جنب مع مشاعر مقدسة أخرى متعارضة؟ من الخير ألف مرة، بل من الحكمة، أن يلقي المرء بنفسه إلى الماء وينهي كل شيء!».

استفهمت سونيا في صوت خافت وهي تنظر إليه نظرة الألم، ويظهر أنها لم تدهش لفكرته: «وماذا يكون مصيرهم؟».

نظر رسكولنكوف إليها نظرة غريبة فقرأ كل شيء على وجهها، إذ طالما راودتها تلك الفكرة، وقد فكرت جديًا في يأسها كيف تنهي هذه الحياة.. وكان التفكير جديًا حقًا حتى أنها لم تدهش لاقتراحه ولم تلاحظ قسوة ألفاظه، ووضح لديه أيضًا أنها لم تلاحظ معنى تأنيبه ولا موقفه الخاص منها، ولكنه رأى إلى أي حد كبير كانت فكرة مركزها المخجل المخزي تعذبها، وتعذبها من زمن بعيد. ففكر: «وماذا حال دون إنهائها لهذه الحياة؟».. ولم يتحقق لديه إلا عندئذ قيمة هؤلاء الأطفال اليتامى

المساكين، وقيمة كاترينا إيفانوڤنا التعسة المسلولة البلهاء التي تضرب رأسها بالحائط لدى سونيا.. وكان من الواضح لديه أيضًا أنها بما لها من خلق ومن تربية تلقتها لا يمكن أن تستمر هكذا، ومع ذلك بقي أمامه سؤال محير هو: كيف استمرت طويلًا في هذا الموقف دون أن تجن، إذ لم تستطع أن تحمل نفسها على القفز إلى الماء؟ وكان يعلم بالطبع أن حالة سونيا استثنائية وإن كانت- وياللأسف- لا هي بالوحيدة ولا هي بالنادرة. ولكن بالنسبة لحالتها الاستثنائية، ولما تلقته من تربية، ولسابق حياتها، كل هذا كان يقتلها عند أول خطوة من ذلك الطريق القذر. ولكن ما الذي آزرها على الاستمرار فيه؟ لا يمكن أن يقال تجردها من الشعور وانحطاطها، فمن الواضح أن الفساد لم يمسسها إلا آليًا ولم تصل إلى قلبها قطرة من الانحطاط الحقيقي، لقد رأى ذلك واخترق مكامن نفسها وهي واقفة أمامه..

وفكر: إن أمامها طرقًا ثلاثة: القناة أو مستشفى المجانين... أو الانحطاط الخلقي أخيرًا.. وهذا يُظلم العقل ويحيل القلب صخرًا..

وكان الاحتمال الأخير هو شر الثلاثة، ولكنه كان عديم الإيمان وشابًا وواقعيًا، ولذلك كان قاسيًا فلم يستطع إلا أن يعتقد بأن النهاية الأخيرة هي الراجحة.

ولكنه حدث نفسه: «هل يمكن أن يكون ذلك حقًا؟ هل يمكن أن تجتذب أخيرًا هذه المخلوقة التي احتفظت بطهارة نفسها وهي في تمام وعيها إلى حمأة القذارة والسفالة؟ وهل ابتدأ هذا التحول فيها؟ وهل يكون

أنها لم تحتمل هذه الحياة حتى الآن إلا لأن الرذيلة لم تعد عندها كريهة كما كانت؟ لا! لا! هذا غير ممكن..» وصاح رسكولنكوف كما صاحت سونيا منذ لحظة: «لا! إن الذي منعها إلى الآن من القناة هو فكرة الخطيئة والأطفال... وإذا كانت لم تفقد عقلها حتى الآن... ولكن من يقول إنها لم تفقد عقلها؟ وهل هي مالكة لقواها؟ وهل أرباب العقل يتكلمون ويفكرون بهذه الطريقة؟ كيف تجلس على طرف الهاوية وتوشك أن تنزلق إليها وتصم آذانها عن التحذير؟ هل تنتظر معجزة؟ لا بد أنها تنتظر! أليس هذا هو الجنون؟».

وتشبث بهذه الفكرة تشبثًا، وفضل هذا التفسير على غيره، وبدأ يطيل النظر إليها ثم سألها: «إذن أنت تصلين لله كثيرًا يا سونيا؟».

فلم تجب، ووقف إلى جانبها منتظرًا الإجابة..

همست سونيا في سرعة وقوة: «وماذا أكون بغير الله؟». ثم نظرت إليه فجأة بعينين لامعتين وهي تمسك بيده..

وفكر لنفسه: «هكذا تصير الأمور!».

ثم سألها ليتبين دخائلها: «وماذا فعل الله لك؟».

فظلت سونيا صامتة مدة طويلة كأنها عاجزة عن الإجابة. وكان صدرها الضعيف يرتفع وينخفض من التأثر، ثم صاحت فجأة، وهي تنظر إليه في حدة وغضب: «فلتسكت! لا تسأل! إنك غير جدير بهذا!».

فقال لنفسه: «هكذا! هكذا!».

وهمست سريعًا وقد خفضت نظرها: «إنه يفعل كل شيء».

فقرر لنفسه: «هذا هو المخرج! هذا هو التفسير!».

وتأملها في تطلع وتلهف، وفي شعور غريب جديد يكاد يكون مريضًا. وأنعم النظر في هذا الوجه الشاحب النحيل الصغير غير المنتظم، ذي الزوايا والعينين الزرقاوين الرقيقتين اللتين تشعان مثل هذه النار ومثل هذه القوة والعزم، وهذا الجسد الضئيل الذي لا يزال يرتجف استياءً وغضبًا، فبدا له أن كل هذا يزداد غرابة بل يكاد يكون مستحيلًا، فكرر لنفسه: «إنها مصابة بجنون الدين!».

وكان على الصندوق ذي الأدراج كتاب شاهده رسكولنكوف مرارًا وهو يتمشى في الغرفة، فأخذه ونظر فيه فإذا هو ترجمة للإنجيل باللغة الروسية، وكان مجلدًا بجلد قديم.

فسألها من مكان بالغرفة: «من أين جئت بهذا الكتاب؟».

وكانت لا تزال واقفة بمكانها على ثلاث خطوات من المنضدة، فأجابت وكأنها منزعجة، من غير أن تلتفت إليه: «جيء به إليَّ».

– من جاء به؟

– ليزاڤتا! فقد طلبته منها!

فكر: «ليزاڤتا! يا للغرابة!».

كان يبدو له أن كل ما حول سونيا يزداد غرابة ويبدو باعثًا على الدهشة، وحمل الكتاب إلى ضوء الشمعة وأخذ يقلب صفحاته.. وسألها: «أين الموضع الذي ذكرت فيه قصة أليعازر؟».

فظلت تنظر في عناد إلى الأرض ولا تجيب، وكانت مستندة بجنبها إلى المنضدة..

- أين الموضع الذي فيه قصة بعث أليعازر؟ أرنيه يا سونيا..

استرقت النظر إليه ثم همست في حياء دون أن تنظر إليه: «إنك تبحث في غير الموضع... إنها في الإنجيل الرابع».

قال: «ابحثي عنها واقرئيها لي..».

ثم جلس وأسند مرفقه إلى المنضدة ووضع رأسه على يده، ونظر في جد إلى جهة أخرى وهو على استعداد للسماع.

وتمتم لنفسه قائلًا: «في ثلاثة أسابيع سيرحبون بي في مستشفى المجانين.. ألم نكن فيما هو شر من ذلك؟»».

كانت سونيا تشك في صدق رسكولنكوف في رغبته، وتقدمت مترددة إلى المنضدة، ومع ذلك تناولت الكتاب وسألته وهي تنظر إليه بمؤخر عينها عبر المنضدة: «ألم تقرأها؟»».

وكان صوتها يزداد جفاء..

- قرأتها من زمن بعيد... في المدرسة... اقرئي!

- ألم تسمعها في الكنيسة؟

- أنا لم أذهب للكنيسة.. وهل ترددين عليها كثيرًا؟

همست سونيا: «لا!».

فابتسم رسكولنكوف: «فهمت... وهل لن تذهبي إليها لحضور جنازة

أبيك غدًا؟».

- نعم! لقد كنت في الكنيسة في الأسبوع الماضي.. وحضرت صلاة جنازة!

- على من؟

- على ليزاڤتا التي قتلت بالبلطة..

فازدادت أعصاب رسكولنكوف توترًا وبدأ يشعر بالدوران..

- هل كنت صديقة ليزاڤتا؟

- نعم، وكانت طيبة القلب... كانت تزورني في بعض الأحيان... فكنا نقرأ معًا ونتكلم... سترى الله سبحانه..

وكان للعبارة الأخيرة رنين غريب في أذنيه... وهنا يرى شيئًا جديدًا مرة ثانية في المقابلات العجيبة مع ليزاڤتا ثم معها وسونيا، وكل منهما مجذوب إلى الدين. فقال لنفسه: «سأصبح قريبًا مجذوبًا إلى الدين! فإن لهذا عدوى!».

وصاح بها فجأة في غضب وإصرار: «اقرئي!».

ظلت سونيا مترددة واشتدت دقات قلبها و هي لا تجرؤ على التلاوة له، أما هو فكان ينظر حانقًا إلى هذه المجنونة التعسة..

وهمست في صوت ضعيف وكأنها تلهث: «ماذا تريد من ذلك ما دمت لا تعتقد؟».

فقال مصرًا: «اقرئي! أريد منك ذلك! أما كنت تقرأين لليزاڤتا؟».

ففتحت سونيا الكتاب ووجدت المكان، وكانت يداها ترتعشان وصوتها يخونها، وحاولت مرتين أن تبتدئ ولكنها لم تستطع النطق بأول كلمة..

وأخيرًا حملت نفسها على القراءة وقرأت: «وكان إنسانًا مريضًا، وهو أليعازر من بيت عينا..».

ولكنها ما وصلت إلى الكلمة الثالثة حتى انقطع صوتها كالوتر المقطوع وتعسر تنفسها.

فهم رسكولنكوف بعض الشيء لماذا لا تستطيع سونيا أن تحمل نفسها على القراءة، فلما تبين له هذا، ازداد خشونة وإصرارًا في غضب على أن تقرأ، فقد فهم جيدًا أن من المؤلم جدًا لديها أن تخون خفايا نفسها وتكشف عما تعتبره ملكًا خاصًا بها، وفهم أن هذه المشاعر هي في الحقيقة كنزها الدفين الذي تحتفظ به، ربما من سنوات وربما من الطفولة، وهي تسكن مع أب تعس وزوجة أب أطارت الأحزان صوابها وسط الأطفال الذين يتضورون جوعًا، وبين عبارات السب والتأنيب، ولكنه عرف الآن وعرف مؤكدًا أنها بالرغم من خوفها وتألمها من القراءة، بها رغبة ملحة لأن تقرأ وتقرأ له كي يصغي، وتقرأ الآن مهما نجم عن ذلك!..

قرأ هذا في عينيها ورآه في تأثرها العميق. وقد تغلبت على نفسها وعلى تلك الغصة في حلقها، وأخذت تتلو الإصحاح الحادي عشر من إنجيل يوحنا إلى أن بلغت الآية التاسعة عشرة:

«وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا إلى مرثا ومريم ليعزوهما عن

أخيهما.

فلما سمعت مرثا أن يسوع آت لاقته، وأما مريم فاستمرت جالسة في البيت.

فقالت مرثا ليسوع: يا سيد، لو كنت ههنا لم يمت أخي.

لكني الآن أيضًا أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه..».

وهنا سكتت سونيا إذ شعرت في خجل أن صوتها سيرتعش وينقطع مرة أخرى.

«قال لها يسوع: سيقوم أخوك.

قالت له مرثا: أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة، في اليوم الأخير.

قال لها يسوع: أنا القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا، وكل من كان حيًا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد. أتؤمنون بهذا؟

قالت له...».

ومع أن سونيا كانت تتنفس في صعوبة، إلا أنها قرأت في وضوح وقوة كأنها تعترف علنًا بعقيدتها..

«نعم يا سيدي. أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم».

وتوقفت هنا ونظرت إليه سريعًا، ولكنها تغلبت على نفسها وعادت للقراءة.. وكان رسكولنكوف جالسًا من غير حراك وقد أسند مرفقيه إلى المنضدة وعيناه تنظران إلى جهة أخرى، وأخذت سونيا تقرأ إلى أن بلغت

الآية الثانية والثلاثين:

«فمريم لما أتت إلى حيث كان يسوع ورأته خرت عند رجليه قائلة له: يا سيد، لو كنت ههنا لم يمت أخي.

فلما رآها يسوع تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون، انزعج بالروح واضطرب وقال: أين وضعتموه؟ قالوا له: يا سيد، تعال وانظر..

بكى يسوع

فقال اليهود: انظروا كيف كان يحبيه.

قال بعض منهم: ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضًا لا يموت؟».

فالتفت رسكولنكوف ونظر إليها متأثرًا، وصدق في ظنه إذ كانت أعضاؤها ترتجف من حمى جسدية حقيقية. وكان يتوقع ذلك منها، وقاربت نهاية قصة أكبر معجزة فتملكها الشعور بالفوز العظيم..

ورن صوتها كرنين الجرس، فقد اكتسبت قوة من الفرح والانتصار، ولعبت الحروف أمام عينيها ولكنها كانت تحفظ ما تقرأه في ذاكرتها، ولما وصلت إلى الآية الأخيرة... «ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى...» خفضت من صوتها وصورت في حماسة ارتياب اليهود الجاحدين الفاقدي البصيرة وتأنيبهم ونقدهم، مع أنهم بعد لحظة سيقعون على قدميه كأنهم أصيبوا بصاعقة وهم يبكون ويؤمنون.. وكانت ترتعش لسعادة الانتظار، وهي تحلم وهو هو جامد فاقد البصيرة، وهو أيضًا سيسمع، وهو أيضًا سيصدق.. نعم! نعم! الآن في الحال! وقرأت:

«فانزعج يسوع أيضًا في نفسه، وجاء إلى القبر وكان مغارة وقد وضع عليه حجر.

وقال يسوع: ارفعوا الحجر. قالت له مارثا أخت الميت: يا سيد، قد أنتن لأن له أربعة أيام.

وقد أكدت كلمة «أربعة» بشدة.

قال لها يسوع: ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله؟

فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعًا، ورفع يسوع عينيه إلى فوق..

قال: أيها الأب.. أشكرك لأنك سمعت لي..

وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي.. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني.

ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم لأليعازر: هلم خارجًا!..

فخرج الميت..».

وكانت تقرأ بصوت عال، وقد بردت أعضاؤها وهي ترتعش كأنها تشاهد المعجزة أمام عينيها..

«ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة، ووجهه ملفوف بمنديل.. فقال لهم يسوع: حلوه ودعوه يذهب..

فكثيرون من اليهود الذين جاءوا إلى مريم ونظروا ما فعل يسوع آمنوا به..».

لم تستطع القراءة بعد ذلك، فطوت الكتاب ونهضت في سرعة من مقعدها وهمست في صوت شديد جاف: «هذه قصة بعث أليعازر..».

ثم استدارت ووقفت بلا حراك وهي لا تجرؤ على رفع عينيها إليه، وكانت لا تزال ترتعش كالمحمومة، وأخذ ما بقي من الشمعة يبعث ضوءًا متقطعًا من الشمعدان القديم، فيضيء إضاءة ضعيفة تلك الغرفة التي يدل ما فيها على الفاقة، يضيء لذلك القاتل وتلك العاهرة وهما- ويا للغرابة- يقرآن معًا ذلك الكتاب الأبدي..

ومضت خمس دقائق أو أكثر، ثم قال رسكولنكوف وقد تقطب جبينه في صوت عال: «جئت لأتكلم معك في أمر..».

ونهض واقترب من سونيا، فرفعت الفتاة عينيها في سكون، وكان وجهه جامدًا ينم عن عزم ثابت، وقال: «لقد هجرت اليوم أسرتي- والدتي وأختي- وسوف لا أراهما بعد اليوم، وقطعت كل صلة بهما تمامًا».

فسألته سونيا في دهشة: «لماذا؟».

فإن مقابلتها الأخيرة لأمه وأخته تركت في نفسها أثرًا عظيمًا لم تستطع تحليله، فكان لهذا الخبر وقع فظيع لديها.

وقال: «لم يبق لي غيرك الآن، فلنرحل معًا.. وقد جئت لذلك، فإن كلا منا آثم لعين.. فلنرحل معًا!».

وكانت عيناه تتلألآن. وفكرت سونيا بدورها: «إنه كالمجانين!».

وسألت في جزع وقد تراجعت بغير إرادتها إلى الوراء: «وإلى أين نرحل؟».

– كيف أعرف؟ كل ما أعرفه أن طريقنا واحد! أعرف هذا ولا أعرف أكثر منه! إن مقصدنا واحد!.

فنظرت إليه وهي لا تفهم شيئًا! وكل ما عرفته أنه في غاية الشقاء ومنتهاه..

وأتم عبارته: «لا أحد منهم يفهمك لو أخبرتهم.. ولكني أنا وحدي فهمتك وإني لفي حاجة إليك، ولذلك جئت!».

فهمست سونيا: «إني لا أفهم!».

فقال: «ستفهمين فيما بعد! ألم تفعلي مثل ما فعلت؟ أنت أيضًا تجاوزت الحدود... وكانت لك القوة على تجاوزها؟ وأنت أيضًا مددت يدك على نفسك وأزهقت حياة! وإن تكن حياتك، فإنه نفس الأمر! كنت تستطيعين العيش بالروح والفهم، ولكنك كنت تنتهين في حي التبن... ولكنك لن تحتملي هذه الحياة، وإذا بقيت وحدك فإنك تفقدين صوابك كما حدث لي.. بل إنك الآن كالمجنونة، فلا بد أن نرحل معًا في طريق واحد. هيا بنا نرحل..».

فقالت سونيا وقد تأثرت تأثرًا غريبًا وعنيفًا بكلماته: «لماذا؟ لم كل هذا؟».

– تسألينني لماذا؟ لأنك لا تستطيعين البقاء هكذا! هذا هو السبب. يجب مواجهة الأمور على حقيقتها بدلًا من البكاء كالطفل والصياح بأن الله لا يسمح بذلك! ماذا يحدث لو أخذت حقيقة إلى المستشفى غدًا؟ إنها مسلولة ومختلة العقل تقريبًا، ولا تلبث أن تموت.. وماذا يكون مصير

الأطفال؟ أتريدين أن تقولي إن پولنكا لا تنتهي نهاية محزنة؟ ألم تري أطفالًا في أركان الشوارع أرسلتهم أمهاتهم للاستجداء؟ لقد وجدت أين يسكن هؤلاء الأمهات وفي أي وسط! لا يمكن للأطفال أن يظلوا أطفالًا هنالك! فالطفل في السابعة يصير شريرًا ولصًا، ومع ذلك تعرفين أن الأطفال هم صورة المسيح وأن ملكوتهم هو السماء، وقد أمرنا بأن نقدرهم ونحبهم لأنهم عالم المستقبل...

كررت سونيا وهي تبكي بكاءً مرًا وتقرع كفًا بكف: «ما العمل؟ ما العمل؟».

– ما العمل؟ أن يقطع الإنسان ما يجب أن يقطع مرة واحدة ويتحمل ألم هذا!... إنك لا تفهمين الآن ولكن ستفهمين فيما بعد... الحرية والقوة فوق كل شيء، التسلط على المخلوقات المرتجفة والكتل من النمال... تلك هي الغاية. تذكري هذا! فقد تكون رسالة الوداع! قد يكون هذا آخر كلامي لك، فإن لم آت غدًا فستعلمين كل شيء وعندئذ تذكري كلماتي، وربما تفهمين مغزى كلامي فيما بعد في السنوات القادمة، أما إذا زرتك غدًا فسأخبرك من قتل ليزاڤتا... الوداع!

وسألته وقد جمدت أعضاؤها من الخوف وهي تنظر إليه نظرة رعب: «ماذا؟ هل تعرف الذي قتلها؟».

– أعرفه.. وسأخبرك.. أنت فقط! لقد اخترتك من بين الجميع.. ولست آتيًا لأطلب المغفرة، بل لأخبرك فقط. لقد اخترتك منذ مدة طويلة لتسمعي هذا حين تحدث والدك عنك، وحين كانت ليزاڤتا لا تزال حية!

فكرت في هذا! الوداع! لا نتصافح الآن. إلى الغد!

خرج رسكولنكوف، وكانت سونيا تنظر إليه نظرتها إلى مجنون.. ولكنها هي أيضًا كانت تشعر كأنها فاقدة العقل وكان رأسها يدور: «رباه! كيف يعرف الذي قتل ليزاڤتا؟ ما معنى كلماته؟ إنه لأمر فظيع!».

ومع ذلك لم تطرأ عليها الفكرة قط ولو لحظة.. لا بد أنه في شقاء مقيم...! لقد هجر أمه وأخته... لماذا؟ ماذا حدث؟ وما غرضه؟ إنه قبل قدميها وقال... قال.. نعم قالها في صراحة: إنه لا يستطيع العيش من غيرها!... أيها الرب الرحيم!

أمضت سونيا ليلتها في حمى وأحلام مزعجة، فهي تقفز قائمة من وقت لآخر، وتبكي وتدق يدًا بيد ثم تعود إلى نوم المحموم فتحلم ببولنكا وكاترينا إيفانوڤنا وليزاڤتا وقراءة الإنجيل ثم به... به في وجهه الممتقع وعينيه المتقدتين... يقبل قدميها ويبكي!

وعلى الجانب الآخر من الباب القائم إلى اليمين الذي يفصل بين غرفة سونيا ومسكن مدام رزليتش كانت توجد غرفة ظلت خالية لمدة طويلة، وقد وضعت بطاقة عند باب الدار وعلقت لافتة على النوافذ المطلة على القناة تعلن أنها للإيجار، واعتادت سونيا منذ زمن طويل أن تعتبر الغرفة من غير سكان. ولكن السيد سفدريجايلوف كان طول هذا الوقت واقفًا يستمع إلى الحديث من وراء باب الغرفة الخالية، وعندما غادر رسكولنكوف الغرفة وقفًا ساكنًا ثم فكر لحظة ومشى على أطراف أصابع قدميه إلى غرفته، وأتى بكرسي وحمله بلا ضوضاء إلى الباب المؤدي إلى غرفة سونيا، فقد بدا له

أن المحادثة مهمة تسترعى النظر، ووجد فيها متعة كبيرة، فأتى بالكرسي كي لا يتحمل في المستقبل- غدًا مثلًا- مشقة الوقوف ساعة كاملة، بل يستمع وهو في راحة..

* * *

(٥)

حين مر رسكولنكوف في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي المحدد تمامًا على إدارة تحقيقات القضايا الجنائية، وأرسل اسمه إلى بورفيري بتروفتش دهش لأن هذا تركه ينتظر طويلًا. ومرت عشر دقائق قبل أن يدعى للمقابلة، وكان يتوقع أنهم سيهجمون عليه في الحال. ولكنه ظل في غرفة الانتظار يمر أمامه أناس ذاهبين وآتين لا شأن لهم به. أما الغرفة الأخرى فكانت مكتبًا جلس فيه بعض الكتبة يكتبون، ومن الواضح أن لا أحد منهم يعلم شيئًا عن رسكولنكوف. ونظر حوله في قلق وريبة: هل يوجد حارس أو هل توجد مراقبة خفية لتحول دون فراره؟ لم يلحظ شيئًا من هذا، فلم ير غير وجوه الكتبة منهمكين في أعمالهم الصغيرة، والناس الآخرون لا يعيرونه أي اهتمام. فهو يستطيع أن يذهب إن شاء. وبدأ يقوى فيه الاعتقاد بأنه إذا كان رجل الأمس الغامض- ذلك الشبح الذي خرج من

أحشاء الأرض- قد رأى كل شيء، لما تروه واقفًا ينتظر هكذا. وهل كانوا ينتظرون إلى أن يحضر من تلقاء نفسه في الساعة الحادية عشرة؟ إما أن هذا الرجل لم يبلغ عنه وإما أنه لا يدري شيئًا ولم ير شيئًا.. كيف يمكنه أن يرى أي شيء؟ فكل ما حدث البارحة لم يكن غير شبح بالغ في أمره خياله المريض المتعب. وكان هذا الفرض قد قوي لديه في اليوم السابق وسط انزعاجه ويأسه. وحين عاد إلى التفكير في هذا كله الآن واستعد لنضال جديد شعر بأنه يرتجف، وشعر فجأة بالغيظ إذ أدرك أنه يرتجف خوفًا من مقابلة ذلك الرجل الكريه بورفيري بتروفتش، فإن أكبر ما يخشاه هو مقابلة هذا الرجل مرة أخرى. فهو يكرهه كرهًا عميقًا لا يتحول، وكان يخشى أن ينم عليه هذا النفور، وبلغ به الغيظ والحنق مبلغًا أوقف ارتجافه في الحال وتأهب للدخول متكبرًا رابط الجأش، وعاهد نفسه أن يقلل من الكلام بقدر المستطاع، ويراقب ويصغي ويتغلب ولو مرة واحدة على أعصابه المتوترة. وفي هذه اللحظة دعي لمقابلة بورفيري بتروفتش..

ووجد بورفيري بتروفتش وحيدًا في مكتبه، وهو غرفة لا كبيرة ولا صغيرة، بها منضدة كبيرة للكتابة وأمامها مقعد مغطى بالمشمع ومكتبة قائمة بإحدى زوايا الغرفة وبعض كراسي، وكل هذا الأثاث ملك للدولة وهو من خشب أصفر مدهون. وفي حائط الجهة الأخرى باب مغلق مما يدل قطعًا على وجود غرف أخرى. وحين دخل رسكولنكوف هب بورفيري بتروفتش في الحال نحو الباب وأغلق، فصارا منفردين.. وتلقى زائره بكل مظاهر الرقة واللطف. ولم يلاحظ رسكولنكوف عليه شيئًا من الارتباك إلا بعد دقائق، وكأنه طرأ أمر لم يكن في حسابه أو كأنه وقف على

سر دفين.

قال بورفيري وقد مد يديه الاثنتين نحوه: «آه يا صديقي العزيز... هذا أنت.. في ساحتنا. أرجو أن تجلس أيها الرجل العجوز! لكن قد لا تحب أن أدعوك صاحبي العزيز أو الرجل العجوز ببساطة هكذا... وأرجو ألَّا تعتبر هذا رفعًا للكلفة بيننا... تفضل بالجلوس هنا على المقعد.».

فجلس رسكولنكوف ولم يرفع بصره عنه، فإن عبارات «في ساحتنا»، والاعتذار عن رفع الكلفة، وقوله: «ببساطة» باللغة الفرنسية، كلها علامات ذات مغزى..

وفكر في ارتياب.. لقد مد يديه الاثنتين لي ولكنه لم يسلم عليّ بإحديهما بل سحبهما في الوقت المناسب.. فكان كل منهما يراقب الآخر، فإذا تلاقت عيناهما حول نظره بسرعة البرق.

- جئت بهذه الورقة... عن الساعة... هل هي صحيحة أم يجب أن أكتبها مرة ثانية؟

- ماذا؟ ورقة؟ نعم! نعم! لا تتعب نفسك فهي في غاية الصحة.

أجاب بورفيري بتروفتش كأنه مستعجل، وبعد أن قال ذلك تناولها ونظر فيها وأعلن في سرعة: «نعم! هي صحيحة! لا حاجة لغير ذلك».

ثم وضع الورقة على المنضدة، وبعد دقيقة نقلها من المنضدة ووضعها على مكتبه.. وهو يتكلم في موضوع آخر.

ثم قال رسكولنكوف: «أعتقد أنك قلت أمس إنك تريد سؤالي رسميًا... عن اتصالي بالمرأة القتيل..».

ومرت في ذهنه كالبرق فكرة: لماذا استعملت كلمة «أعتقد»؟.. ثم فكرة ثانية كالبرق أيضًا: ولكن لماذا يأخذني القلق من كلمة «أعتقد» هذه؟. وشعر فجأة أن مجرد القلق لاتصاله ببورفيري وسماع الكلمة الأولى منه والنظرات الأولى قد تفاقم في لحظة إلى نسبة عظيمة، وأن هذا الأمر خطر جدًا، فقد كانت أعصابه تهتز توترًا وانفعالاته تزداد تهيجًا فقال لنفسه: «هذا سيئ. فسأقول أكثر مما يجب ثانية..».

تمتم بورفيري بتروفتش: «نعم! نعم! ليس ما يدعو للعجلة! ليس ما يدعو للعجلة!».

وأخذ يتمشى في الغرفة بلا قصد، تارة يقترب من النافذة وتارة أخرى من مكتبه، ثم يعود إلى المنضدة بعد لحظة. يتحاشى أحيانًا نظرة رسكولنكوف التي تنم عن الريبة، وأحيانًا يقف ويمعن النظر في وجهه.

وكان منظر هذا الرجل القصير السمين غريبًا جدًا، يشبه كرة تنتقل من حائط إلى حائط ثم ترتد ثانية.

ثم استمر يقول: «أمامنا فسحة من الوقت! هل تدخن؟ هل لديك نوع خاص؟ هذه سيجارة».. وقدم سيجارة لزائره.. «إني أستقبلك هنا ولكن مركز عملي وراء هذا الباب، فهنالك مركز عملي الحكومي، ولكني أقيم هنا مؤقتًا إذ تجري بعض الإصلاحات هنالك وكادت تتم.. إن الأماكن الحكومية حسنة جدًا.. ما رأيك في ذلك؟».

فأجاب رسكولنكوف وهو ينظر إليه بما يكاد يكون سخرية: «نعم! حسنة جدًا».

فكرر بورفيري بتروفتش القول: «حسنة جدًا! حسنة جدًا» وكأنه يفكر في مسألة أخرى مختلفة بالمرة، ثم كاد يصيح أخيرًا: «نعم! حسنة جدًا..» وأخذ يحدق فجأة في رسكولنوف وهو واقف على خطوتين منه.

كان تكراره السخيف لا يتلاءم في تفاهته مع النظرة الجدية المفكرة والغامضة التي كان يفحص بها زائره، ولكن هذا زاد في إثارة حقد رسكولنكوف، ولم يستطع أن يقاوم رغبته في تحديه تحديًا ساخرًا وبعيدًا عن الحذر. فسأله فجأة وهو ينظر إليه بما يشبه تعمد الإهانة، وهو أيضًا مستمتع بهذا التحدي: «أرجو أن تخبرني.. أليس من القواعد التقليدية لدى المحققين أن يبدأوا هجومهم من بعيد وبموضوع تافه، أو على الأقل بعيد عن الغرض؛ حتى يشجعوا الرجل الذي يحققون معه أو لكي يلهوه عن غرضهم وينزعوا منه سلاح الحذر، ثم يفاجئوه بسؤال فيه الضربة القاضية غير المنتظرة؟ أليس كذلك؟ هل هو تقليد مقدس مذكور في جميع الكتب الدراسية لهذا الفن؟».

– نعم! نعم!... لماذا تخيلت أن هذا هو السبب في ذكري الأماكن الحكومية؟

قال بورفيري بتروفتش هذا القول وضم إحدى عينيه وغمز بها، وظهرت على وجهه نظرة ماكرة يخالطها الانبساط.. ثم ذهبت غضون جبهته وصغرت عيناه وانبسطت تقاطيع وجهه، اندفع فجأة في ضحك عصبي طويل وجسده يهتز اهتزازًا وهو ينظر مباشرة إلى وجه رسكولنكوف. وحمل هذا نفسه على الضحك أيضًا. ولما رآه بورفيري يضحك أخذ يقهقه عاليًا حتى صار وجهه شديد الحمرة، وحينئذ تغلبت كراهية رسكولنكوف

على حيطته، فامتنع عن الضحك وقطب وجهه ونظر إليه نظرة كراهية، بينما كان الآخر مسترسلًا في ضحكه الطويل المتصنع. والحقيقة أن كلا منهما لم يكن حذرًا إذ الواقع أن بورفيري بتروفتش كان يضحك في وجه زائره دون أن يعني باستيائه، وكان هذا الأمر ذا مغزى كبير في عيني رسكولنوف، فقد تبين له أن بورفيري بتروفتش لم يرتبك قط من قبل، بل إنه هو الذي وقع في الشرك، ولا بد أن هناك أمرًا أو سببًا مجهولًا لديه وأن شيئًا قد رتبه ولا يلبث أن ينقض عليه فجأة.

وأراد أن يكشف عنه دون إمهال، فنهض من مقعده وتناول قبعته وبدأ يقول في إصرار وفي ضيق شديد: «لقد أبديت يا بورفيري بتروفتش رغبتك في أن أزورك لبعض التحقيقات»، وأكد الكلمة الأخيرة بنوع خاص.. «وها أنذا جئت إليك، فإن كانت لديك أسئلة فاسألها وإلا دعني أنصرف، إذ ليس لديّ متسع من الوقت... إذ يجب أن أحضر جنازة ذلك الرجل الذي صدمته عربة... وإنك لتعرف أمره أيضًا».

قال ذلك ثم تضايق في الحال لنطقه بالجملة الأخيرة، وغضب أيضًا لتضايقه وقال: «لقد مللت كل هذا.. هل تسمع؟ ومللته من زمن بعيد، وهذا هو بعض السبب في مرضي.. وبالاختصار..».

ثم أخذ يصيح إذ شعر أن ملحوظته عن مرضه غير موفقة.. «وبالاختصار.. إما أن تستجوبني أو تدعني أنصرف في الحال، فإن أردت استجوابي فليكن ذلك بالطريقة القانونية المعتادة، ولا أسمح لك بطريقة أخرى.. وإلى أن يتم ذلك أودعك إذ من البين ألا شيء يحول دون افتراقنا الآن..».

فامتنع بورفيري بتروفتش عن الضحك وقال وقد تغيرت لهجته: «رباه! ماذا تعني، وفيم استجوابك؟ أرجو ألا تزعج نفسك!».

وأخذ يتحرك من مكان لمكان وهو يلح على رسكولنكوف في الجلوس قائلًا: «لا حاجة للعجلة! لا حاجة للعجلة! كل هذا كلام فارغ... وإني كثير الاغتباط بزيارتك لي أخيرًا، وإني أعتبرك مجرد زائر، أما عن كثرة ضحكي يا روديون رومانوفتش- أليس اسمك روديون رومانوفتش؟- فإني أقدم لك اعتذاري... إني ضعيف الأعصاب، وقد أضحكتني ملحوظاتك الذكية.. وفي بعض الأحيان يستولى عليَّ الضحك، فأهتز ككرة من مطاط مدة نصف ساعة كاملة حتى لأخشى على نفسي من الشلل. أرجو أن تجلس... تفضل بالجلوس، وإلا ظننتك لا زلت غاضبًا مني..».

لم يتكلم رسكولنكوف بل استمع إليه وراقبه وهو لا يزال مقطب الجبين، وجلس ولكنه ظل ممسكًا بقبعته. واستمر بورفيري بتروفتش وهو لا يزال يمشي في الغرفة ويتجنب نظرات زائره: «أحب أن أذكر لك يا روديون رومانوفتش عني أمرًا، وهو أني رجل أعزب ولست ذا خطر ولا معتادًا المجتمعات، ثم إنه لم يعد أمامي شيء ووقف مجرى حياتي وأصبحت عديم النفع.. لاحظ يا روديون رومانوفتش أنه عندما يتقابل رجلان ذكيان في دوائر بطرسبرج- وليس بينهما ألفة قديمة بل يحترم كل منهما الآخر شأني وشأنك- فإنهما يمضيان نصف ساعة قبل أن يجدا موضوعًا للحديث، فيكون كل منهما كالأخرس وهما جالسان متقابلين يشعران بصعوبة الموقف، مع أن موضوعات الحديث ميسورة عند الناس. فالنساء مثلًا وأعضاء الهيئة الاجتماعية العليا عندهم موضوعاتهم

للحديث في المجتمعات، أما أفراد الطبقة الوسطى- مثلي ومثلك، وأقصد المفكرين- فيكونون دائمًا معقودي اللسان متحيرين.. فما السبب في ذلك؟ لا أدري هل لقلة الاهتمام بالمصالح العامة، أم لأننا مخلصون فلا يريد أحدنا أن يخدع الآخر؟ فما رأيك؟ وأرجو أيضًا أن تضع قبعتك إذ يبدو من إمساكها كأنك عازم على الانصراف، وهذا يخجلني. وإني حقًا لمغتبط..».

فوضع رسكولنكوف قبعته وظل يصغي ساكتًا وهو مقطب الوجه لحديث بورفيري بتروفتش الغامض التافه، وكان يقول لنفسه: «هل يريد حقًا أن يقلل انتباهي بثرثرته الفارغة؟».

واستمر بورفيري يقول: «لا أستطيع أن أقدم القهوة لك هنا، ولكن لماذا لا أمضي خمس دقائق مع صديق؟ إنك تعلم إرهاق الواجبات الرسمية فلا تتضايق من سيري في الغرفة بهذه الكيفية.. ومعذرة أيها الصديق العزيز، فإني أخشى مضايقتك.. لكن هذا المران ضروري جدًا، فإني أجلس دائمًا وأسر إذا أتيح لي المشي خمس دقائق... فإني متعب من حياة الجلوس... ولديّ العزم دائمًا على الاشتراك في نادٍ للرياضة البدنية، ويقال إن الموظفين من جميع الطبقات- حتى المستشارين المختصين- يمضون وقتًا طيبًا هناك.. هذا أسلوب الحياة العلمية الحديثة.. نعم، نعم.. أما عن واجباتنا هنا كالتحقيقات وما ماثلها من رسميات فإني أؤكد لك أن الأسئلة قد تكون مربكة للمحقق أكثر منها للمتهم نفسه... ولقد أبديت أنت نفسك هذه الملاحظة المناسبة الحكيمة الآن (ولم يكن رسكولنكوف قد أبدى شيئًا من هذا..) وقد يرتبك المحقق ويظل مرتبكًا ويضرب على نغمة

واحدة كالطبل، ويجب إذن إصلاح هذا الأمر فيطلق على المحقق اسم آخر على الأقل.. ها! ها!.. أما عن تقليدنا القضائي كما سميته عن حصافة فإني متفق معك كل الاتفاق، فكل سجين تحت التحقيق وكل فلاح جاهل يعلم أن المحققين ينزعون حيطته بأسئلة بعيدة عن الغرض (كما أحسنت التعبير) ثم يفاجئونه بالضربة القاضية.. ها! ها! ها! ما أدق هذه المقارنة- ها! ها! فهل ظننت حقًا أني أقصد الكلام عن الأماكن الحكومية؟.. ها! ها! إنك لشخص ساخر.. سوف لا أستمر في ذلك.. وبهذه المناسبة.. نعم! فالشيء بالشيء يذكر! لقد تكلمت عن الإجراءات الرسمية عند التحقيق، فما فائدة هذ الإجراءات؟ إنها في كثير من الأحوال لا تكون ذات قيمة مطلقًا، وأحيانًا يتحدث المحقق حديثًا وديًا فيخرج منه بالكثير.. واسمح لي أن أؤكد لك أن له أن يستند إلى الإجراءات الرسمية فيما بعد، ومع ذلك فما قيمة هذا؟ إن المحقق لا يستطيع أن يتقيد بالإجراءات الرسمية في كل خطوة، ويمكن أن يقال إن التحقيق فن من الفنون الحرة! ها! ها! ها!».

ثم سكت بورفيري بتروفتش لحظة ليستريح، فإنه ظل يثرثر ويتحدث بعبارات فارغة وتخرج منه ألفاظ مبهمة، ثم يعود إلى ترهاته وهو يكاد يجري في الغرفة، فقد ازدادت سرعة ساقيه الغليظتين وهو ينظر إلى الأرض ويده اليمنى على ظهره بينما يشير باليسرى إشارات لا تتلاءم مطلقًا مع كلماته.. ولاحظ رسكولنكوف فجأة أنه بينما كان يجري في الغرفة كأنه وقف لحظة مرتين على مقربة من الباب وكأنه ينصت، فساءل نفسه: هل ينتظر شيئًا؟

وعاد بورفيري يقول وهو ينظر في بساطة عادية لرسكولنكوف (مما دهش له وحمله على أن يكون حذرًا): «من المؤكد أنك على صواب تمامًا

في ضحكك وسخريتك من إجراءاتنا.. ها! ها! فإن بعض هذه الطرق النفسية العويصة مضحك جدًا، وربما غير مجد إذا طبقت الإجراءات تطبيقًا دقيقًا، نعم.. إني أعود للكلام عن الإجراءات.. فإذا كنت أعرف- أو بعبارة أدق، أشك- في أن شخصًا ما هو مرتكب الجرم في قضية عهدت إليَّ... إنك تدرس القانون بالطبع يا روديون رومانوفتش؟».

- نعم، كنت أدرسه...

- إذن هذا مثل تحتذيه في المستقبل، ولا تحسبن أني أجرؤ على أن أعتبر نفسي معلمًا لك بعد المقالات التي نشرتها عن الجريمة! كلا. كل ما أبغي هو أن أجرؤ على أن أذكر الواقع، وهو أني إذا اعتبرت هذا أو ذاك من الرجال مجرمًا فإني أسائل نفسي: لماذا أضايقه قبل الأوان ولو أن لدي أدلة عليه؟ قد أضطر في قضية أن ألقي القبض عليه في الحال، ولكن في قضية أخرى قد أكون في مركز مختلف كما ترى.. فلماذا لا أدعه يسير في المدينة قليلًا؟ ها! ها! ولكني أرى أنك لا تفهمني تمامًا، وسأوضح غرضي بمثال: إني إذا وضعته في السجن فالراجح أني منحته ما قد أسميه مساعدة أدبية.. ها! ها! هل تضحك؟

ولم تخطر لرسكولنكوف فكرة ضحك، وقد جلس وشفتاه مضمومتان وثبت عينيه المحمومتين في عيني بورفيري بتروفتش.

- هذه هي الحالة مع أنواع خاصة من الناس، فالناس مختلفون.. إنك تقول الدليل، وقد يكون الدليل موجودًا، ولكن الدليل كما تعرف يحتمل وجهين. إني محقق، ولكني أعترف بأني رجل ضعيف.. لذلك أحب أن يكون الدليل واضحًا كالمسألة الحسابية، وأحب أن يكون متصلًا كما أن

الاثنين والاثنين يساويان أربعة. فيكون الدليل مباشرًا لا ينقض. إذا كنت أقبض عليه قبل الأوان، ولو أني أعتقد أنه الرجل المرتكب للفعل، فإني على الغالب أحرم نفسي من السبيل إلى تقوية الدليل عليه. ولم ذلك؟ لأني حددت مركزه لدرجة ما وأخرجته من فترة الوساوس، فيهدأ عقله ويقبع داخل قوقعته.

ويقال إن العقلاء من أهل سباستبول كانوا في أشد الذعر بعد معركة «ألما» خشية أن يهجم العدو ويستولي على سباستبول في الحال، ولكن حين رأوا أن العدو يفضل القيام بحصار منظم شعروا بارتياح كبير على ما روي لي مؤكدًا، إذ علموا أن الأمر سيطول شهرين على الأقل.. إنك تضحك ولا تصدقني مرة ثانية! وأنت على حق أيضًا! أنت على حق! أنت على حق! وأعترف بأن هذه الحالات خاصة، ولكن يجب أن تلاحظ هذا يا عزيزي روديون رومانوڤتش: إن القضية العامة، القضية التي تطبق عليها جميع الإجراءات الرسمية والقواعد المذكورة في الكتب بدقة، لم توجد قط.. لسبب واحد هو أن كل قضية وكل جريمة مثلًا بمجرد حدوثها تنقلب قضية ذات صفات خاصة، وكثيرًا ما تكون قضية لا تشبه غيرها مما سبقها، وتحدث لذلك قضايا مضحكة جدًا.. فإذا تركت أحد الرجال وشأنه، لا ألمسه ولا أرهقه، ولكني أعلمه أو على الأقل أجعله يشك في أني أعرف كل شيء عنه، وأني أراقبه ليلًا ونهارًا، ويظل في شك وخوف مقيم، فلا بد أن يطيش صوابه ويأتي من تلقاء نفسه أو يعمل عملًا واضحًا كما أن الاثنين والاثنين يكونان أربعة.. وهذا أمر ممتع.. وتسير الأمور على هذا مع الفلاح البسيط، ولكن مع الرجل منا، الرجل الذكي المثقف في إحدى النواحي

منه، فإن الأمر مؤكد جدًا.. وإنه لمن المهم أيها العزيز أن تعرف في أي النواحي كان تثقيف الرجل..

ثم هناك الأعصاب! لقد نسيت الأعصاب! إنهم جميعًا مرضى وعصبيون ويغضبون سريعًا! ثم إنهم جميعًا مصابون بمرارتهم.. وهذا كنز ثمين لنا! ولا يقلقني أن يكون طليقًا حرًا في شوارع المدينة. فليمش! فليمش قليلًا! فإني أعرف إذا أنا أمسكت به فلا يمكنه النجاة.. ها! ها! ربما يفكر في السفر إلى الخارج.. قد يسافر البولندي إلى الخارج، أما هو فلا! لأني أرقبه، وقد اتخذت إجراءاتي.. ربما يسافر إلى أعماق الريف.. ولكنك تعرف أن الريف يسكنه الفلاحون، فلاحون روسيون حقيقيون، والسجن لدى الرجل الحديث المثقف أحب إليه من عشرة أغراب عنه كالفلاحين.. ها! ها!، ولكن هذا هراء وكله سطحي، فليس الأمر مجرد أنه لا يجد مكانًا يفر إليه، بل إنه غير قادر على الفرار من الوجهة النفسية.. ها! ها! إنه تعبير موفق، أليس كذلك؟ هناك قانون طبيعي يحول دون فراره حتى إذا وجد مكانًا يذهب إليه!

هل رأيت الفراشة تحوم حول الشمعة؟ هكذا يظل يدور حولي ويدور! فالحرية تفقد جاذبيتها لديه، ويأخذ في التفكير، ويدور حول نفسه بخيط، ويرهق نفسه حتى الممات.. وفوق ذلك سيمدني ببرهان حسابي، إذا أتحت له وقتًا كافيًا... ويظل يدور حولي وهو يقترب ويقترب إلى أن يسقط، ويسقط في فمي وأبتلعه، وفي هذا تسلية كبيرة! ها! ها! ألا تصدقني؟».

لم يرد رسكولنكوف عليه بل جلس صامتًا شاحب الوجه لا يبدي

حراكًا ولا يرفع عينيه عن وجه بورفيري.. وكان يفكر وقد شعر ببرودة في أعضائه: «إنه يلقي عليّ درسًا، لا مجرد لعب القط بالفأر كما كان بالأمس، فهو لا يقول هذا لمجرد إظهار سلطته بلا غرض.. إنه أذكى من هذا... ولا بد أن يكون له غرض آخر، فما هو؟ عبثًا ما تقول يا صديقي فهذا لا يخيفني... وليست لديك أدلة، والرجل الذي رأيته أمس ليس له وجود. كل ما تبغيه هو أن تضيع قوة التفكير عندي وتثيرني وبذلك تستطيع تحطيمي، ولكنك مخطئ وليس هذا في مقدورك! ولكن لماذا يلفت نظري بهذه الإشارة؟ أيعتمد على أعصابي المحطمة؟ لا يا صديقي، إنك مخطئ ولن تستطيع ولو نصبت لي شراكًا! فلنر ما في جعبتك..».

واستعد رسكولنكوف لمواجهة تجربة فظيعة مجهولة، وكان يتوق أحيانًا للهجوم على بورفيري وخنقه، وكان أكبر ما يخشاه منذ البداية هو ذلك الغضب. وشعر بزبد ريقه يصل إلى شفتيه الجافتين واشتداد دقات قلبه، ولكنه أصر مع ذلك على التزام الصمت إلى اللحظة الواجبة، وتحقق لديه أن الصمت خير سياسة في مثل هذه الظروف؛ لأنه بدلًا من أن يفعل أكثر مما يجب يضايق عدوه بصمته ويدفعه إلى الانطلاق في القول، وكان هذا على كل حال أمل رسكولنكوف.

وعاد بورفيري إلى الكلام مندفعًا فيه وهو يضحك في كل لحظة يتجول بخطاه في أنحاء الغرفة: «لا! يبدو لي أنك لا تصدقني وتظن أني أمزح معك مزاحًا لا ضرر فيه! وأنت على حق تمامًا! فقد وهبني الله منظرًا لا يثير في الناس إلا أفكارًا مضحكة.. أفأنا مضحك؟ ولكن دعني أقول لك وأكرر: فلتعذر رجلًا كهلًا.. إنك يا عزيزي روديون رومانوفتش في مقتبل

الشباب، ولذا تضع الذكاء فوق كل شيء كجميع الشبان.. وتستهويك النكات البراقة والمحاولات الخيالية. وإن مثلك أشبه شيء بالقيادة العليا الحربية في النمسا القديمة- بقدر ما أستطيع التقدير في المسائل الحربية- فقد قرروا على الورق كيف يبلغون إلى هزيمة نابليون ويأسرونه، ووضعوا الخطط المحكمة لذلك في مكاتبهم، ولن تأمل كيف سلم الجنرال ماك هو وجيشه..! ها! ها! أرى يا عزيزي روديون رومانوڤتش، أرى كيف تضحك من رجل مدني مثلي يتخذ أمثلته من التاريخ الحربي! ولكني لا أستطيع غير ذلك فهي نقطة ضعف فيَّ. فإني مولع بالعلوم الحربية ومولع بقراءة التواريخ الحربية، ومن المؤكد أني لم أوفق في اختيار العمل الذي أميل إليه.. فكان يجب أن أكون حقًا في الجيش! وحينئذ كنت لا أبلغ مبلغ نابليون، ولكن كان يمكن أن أكون ضابطًا برتبة «صاغ» مثلًا.. ها! ها!

على أني سأخبرك بالحقيقة بأكملها فيما يتعلق بالحالة الخاصة بالمجرم، وأقصد أن أقول إن الوقائع الفعلية وطباع الشخص يا سيدي العزيز هي أمور ذات قيمة، وقد تستغرب إلى أي حدٍ تخدع أدق الحسابات أحيانًا! أصغ إلى رجل كهل يا روديون رومانوڤتش.. فإني أتكلم جادًا (ولم يكن بورڤيري بتروڤتش قد بلغ الخامسة والثلاثين، ولكنه بدا عليه كأنه صار كهلًا وهو يقول ذلك، وتغير صوته وكأن جسمه ضمر..)، ثم إني رجل صريح.. هل أنا صريح أو لا؟ ما قولك؟ يبدو لي أنني صريح! وإني أذكر هذه الأمور من غير شيء ولا أنتظر عليها مكافأة! ها! ها!

حسنًا، فلنمض في القول! إن الذكاء أمر عظيم فهو زينة من الطبيعة وعزاء في الحياة! ومع ذلك فإن له حيلًا عجيبة، ولذلك يصير أحيانًا من

الصعب على المحقق المسكين أن يعرف أين تقف قدماه، لا سيما حين تطغي عليه هو نفسه الأوهام؛ لأنه كما تعلم رجل بعد كل شيء! على أن الشبان عندما يدفعهم ذكاؤهم لا يفكرون في هذا حين «يتخطون جميع الحواجز» كما وصفتها بالأمس وصفًا موفقًا، فالرجل الذي يعتبر حالة خاصة- الرجل غير المعروف- يكذب ويحسن الكذب ويظهر ذكاء فيه، وتظن أنه سينتصر ويتمتع بثمار ذكائه، ولكن في أهم لحظة وأبرزها يغمى عليه، وقد يكون مريضًا والغرفة هواؤها خانق، ولكن على كل حال.. على كل حال.. قد أوجد لدينا الفكرة! لقد كذب بطريقة لا تضارع، ولكنه لم يحسب حساب طبيعته وهذا ما ينم عليه! وفي مرة أخرى قد يدفعه ذكاؤه إلى السخرية من الرجل الذي يرتاب فيه، وقد يمتقع لونه، وكأنه يفعل ذلك عامدًا لكي يخدع.. ولكن هذا الامتقاع يبدو طبيعيًا أكثر مما يجب، ويكون شبيهًا بالحقيقة أكثر مما يجب، وهذا أيضًا يدفعنا إلى تكوين فكرة!

قد يخدع سائله في بادئ الأمر، ولكنه لا بد أن يغير فكره في اليوم التالي، إلا إذا كان غبيًا! وتسير الأمور هكذا في كل خطوة، فهو يتقدم حين لا تكون ثمة حاجة إلى التقدم، وهو يتكلم باستمرار حين يجب عليه أن يلزم الصمت، ويذكر أنواعًا من الإشارات والتشبيهات الخيالية! ها! ها! يأتي ويسأل: لماذا لم يقبضوا عليّ منذ زمن بعيد؟ ها! ها! وهذا يحدث كما تعلم مع أذكى الرجال: مع المتعمق في علم النفس، ومع الرجل الأديب! إن الطبيعة تعكس كل شيء كالمرآة! فنتأمل فيها ونعجب بما نرى! ولكن لماذا امتقع لونك هكذا يا روديون رومانوفتش؟ هل الغرفة هواؤها خانق؟ هل أفتح لك النافذة؟».

فصاح رسكولنكوف: «أرجو ألا تتعب نفسك!» واندفع فجأة ضاحكًا: «أرجو ألا تتعب نفسك!».

ووقف بورفيري في مواجهته فسكت لحظة ثم اندفع أيضًا في الضحك.. ونهض رسكولنكوف من مقعده ووقف وقد أوقف ضحكته العصبية فجأة، وبدأ يقول في صوت عالٍ واضح وإن كانت قدماه ترتجفان ولا تكادان تقويان على حمله: «من البين لي أخيرًا يا بورفيري بتروفتش أنك ترتاب فعلًا في أني قاتل المرأة العجوز وأختها ليزافتا.. وأخبرك أني قد مللت هذا، فإن كنت تجد أن لك الحق في اتهامي قانونًا والقبض عليَّ فلتنته ولتقبض عليَّ، ولكني لا أسمح بأن يسخر مني أحد في وجهي ويرهقني..».

وارتعشت شفتاه وبرقت عيناه غضبًا ولم يستطع أن يتحكم في صوته، وصاح وقد ضرب على المنضدة بقبضته: «لن أسمح بهذا! أتسمع قولي يا بورفيري بتروفتش؟ لا أسمح بهذا».

وصاح بورفيري بتروفتش، ويظهر أنه اضطرب خوفًا: «يا الله! ما معنى هذا؟ يا صديقي.. ماذا جرى لك؟».

صرخ رسكولنكوف ثانية: «لا أسمح بهذا!».

فهمس بورفيري بتروفتش مستعطفًا وقد اقترب بوجهه من رسكولنكوف: «أرجوك السكوت أيها العزيز، إنهم سيسمعون ويحضرون، فكر فيما نستطيع أن نقوله لهم..».

استمر رسكولنكوف يكرر آليًا: «لا أسمح بهذا! لا أسمح بهذا».

ولكنه كان يتكلم في همس.

واستدار بورفيري في سرعة وجرى ليفتح النافذة: «فلتستنشق هواءً طلقًا! ويجب أن تشرب بعض الماء أيها العزيز! فإنك مريض!».

وجرى إلى الباب ليطلب ماء، إلا أنه رأى إبريقًا من زجاج مليئًا بالماء في أحد الأركان فجرى إليه به وهمس: «فلتشرب منه قليلًا فإنه نافع لك..».

وكان الفزع والعطف الذي استولى على بورفيري بتروفتش طبيعيًا حتى أن رسكولنكوف صمت وأخذ ينظر إليه في فضول غريب، ولكنه لم يتناول الماء..

– يا روديون رومانوفتش! يا صديقي العزيز.. إنني واثق من أنك ستدفع بنفسك إلى الجنون.. أرجوك أن تشرب ولو قليلًا!

وأجبر رسكولنكوف على تناول الإناء فرفعه إلى شفتيه في غير تفكير، ثم عاد فوضعه فوق المنضدة مشمئزًا..

قال بورفيري بتروفتش في عطف ودي وإن كان يبدو عليه القلق: «إنها نوبة صغيرة.. إنك ستعيد إليك المرض! رباه! يجب أن تكون أكثر عناية بنفسك! لقد جاءني ديمتري بروكوفتش بالأمس- إني أعرف أني سيئ الخلق وساخر، ولكن الناس يتزيدون في ذلك!... رباه! لقد جاء أمس على أثر انصرافك وتناولنا الطعام، وتحدث طويلًا ولم يكن أمامي إلا أن أرفع يدي يأسًا.. أجاء من عندك؟ فلتجلس بالله! لتجلس!».

فأجاب رسكولنكوف في حدة: «لا! لم أرسله، ولكني علمت أنه ذهب إليك.. لماذا ذهب؟».

– أعلمت ذلك؟

– علمت! وماذا يكون في هذا؟

– الواقع يا روديون رومانوڤتش أني أعرف أكثر من ذلك عنك: أعرف كل شيء! أعرف كيف أنك ذهبت لاستئجار مسكن في الظلام عند ابتداء الليل، وقرعت الجرس وسألت عن آثار الدم حتى أن العاملين والبواب دهشوا ولم يعرفوا ماذا يعملون! نعم، إني أفهم حالتك العقلية في ذلك الوقت.. ولكني أؤكد لك أنك ستدفع بنفسك إلى الجنون وتخسر عقلك.. إنك ساخط حقًا على الخطأ الذي ارتكب نحوك أولًا من القدر ثم من رجال الشرطة، ولذلك فإنك تنتقل من الواحد إلى الآخر لتجبرهم على الكلام وتنتهي من كل هذا؛ لأنك تضايقت من هذه الريبة وهذا العناء.. أليس الأمر كذلك؟ لقد حزرت ما تشعر به! أليس كذلك؟ وبهذه الطريقة قد تخسر عقلك وعقل رازوميهين أيضًا، فيجب أن تعلم أنه من الطيبة بحيث لا يصلح لهذا الموقف! أنت مريض وهو طيب القلب، فهو معرض لأن تنتقل عدوى مرضك إليه... وسأحدثك في هذا عندما تتمالك نفسك... ولكن أرجوك مرة أخرى أن تجلس! ولتسترح قليلًا فإن منظرك يؤلم! فلتجلس!

جلس رسكولنكوف مرة أخرى وزالت عنه الرعدة وإن شعر بحرارة في سائر جسده، وكان يصغي في عجب واهتمام كبير إلى كلام بورڤيري بتروڤتش الذي كان لا يزال يبدو عليه الخوف وهو ينظر إليه في عطف ودي.. ولم يكن يصدق كلمة واحدة من أقواله، غير أنه شعر بميل غريب إلى التصديق.. ولكن كلمات بورڤيري غير المنتظرة عن زيارته للشقة كان لها وقع شديد عليه، وأخذ يفكر: «كيف عرف ما جرى في الشقة حتى

يخبرني عنه بنفسه؟..».

واستمر بورفيري يقول سريعًا: «نعم، عرضت لي أثناء حياتي القضائية حالة مرض نفساني مماثلة، فإن رجلًا اعترف بأنه قتل، وأصر على ذلك، وكانت مجرد أوهام، وقدم وقائع تثبت أقواله. وقد خدع الجميع، ولماذا؟ لأنه كان السبب- جزئيًا، وجزئيًا فقط، وعن غير قصد- في وقوع جريمة قتل، فلما عرف أنه سهل للقتلة فرصتهم حزن لذلك وتأثر عقله ومخه، فبدأ يتصور أشياء وأقنع نفسه بأنه القاتل.. وأخيرًا فحصت محكمة الاستئناف القضية في عناية، فاتضحت براءة المسكين ووضع تحت العناية الطبية بفضل محكمة الاستئناف! وإنك أيها الصديق قد تدفع بنفسك إلى الأوهام إذا شعرت بالاندفاع إلى إرهاق أعصابك وتأخذ في قرع الأجراس بالليل والسؤال عن الدواء! لقد درست حالات المرض النفساني في أثناء تجاربي، فقد يجد الرجل من نفسه محرضًا على الإلقاء بنفسه من نافذة، أو من على برج، ومثل هذا يكون الشأن في قرع الأجراس...! هذا مرض يا روديون رومانوڤتش.. ولقد ابتدأت بإهمال مرضك، ويجب عليك استشارة طبيب ماهر بدلًا من الاعتماد على هذا الطبيب الضخم.. إنك لطائش! فهل فعلت كل هذا وأنت في غيبوبة؟».

وشعر رسكولنكوف لحظة كأن كل شيء يدور حوله، وخطر له: «هل من الممكن؟ هل من الممكن أنه لا يزال يكذب! إنه لا يستطيع! إنه لا يستطيع».

ورفض هذه الفكرة وهو يشعر إلى أي حد قد يذهب به الغضب، وأن الغضب قد يدفع به إلى الجنون..

صاح رسكولنكوف وقد استيقظت حواسه كلها في محاولته الوقوف على لعبة بورفيري: «لم أكن في غيبوبة وكنت عارفًا ما أفعل، وكنت مالكًا تمامًا لحواسي، فهل تسمع؟».

- نعم أسمع وأفهم! لقد قلت لي أمس إنك لم تكن في غيبوبة، وكنت تؤكد ذلك تأكيدًا خاصًا.. إنني فاهم ما تقوله!.. اسمع لي يا صديقي روديون رومانوفتش! لو أنك كنت المجرم حقيقة، أو لو أن لك دخلًا في هذه القضية اللعينة، فهل كنت تصر على أنك لم تكن في غيبوبة بل إنك كنت متمالكًا قواك العقلية؟ وفي إصرار وتوكيد؟ هل هذا ممكن؟ في رأيي أنه مستحيل، لو أن ضميرك مثقل بشيء لأصررت على أنك كنت في غيبوبة.. هذا ما يجب.. أليس كذلك؟».

كانت في سؤاله نغمة تدل على الدهاء.. واستند رسكولنكوف إلى المقعد حين رأى بورفيري ينحني عليه، وظل ينظر إليه في حيرة.

وأتم بورفيري حديثه: «وأمر آخر يتعلق بزيارة رازوميهين.. إذ كان من الواجب أن تقول إنه جاء من تلقاء نفسه وأن تخفي دورك في مجيئه، ولكنك لا تخفيه بل تؤكد أنه جاء بناء على تحريضك».

ولم يكن رسكولنكوف قد فعل شيئًا من ذلك.. وأحس ببرودة تسري في ظهره..

وقال في بطء وفي صوت ضعيف وقد تقلصت شفتاه عن ابتسامة مريضة: «إنك مستمر في ذكر أكاذيب! وإنك لتحاول أن تظهر أنك تعرف لعبتي كلها وأنك تعلم كل شيء من قبل».

ثم قال وهو شاعر بأنه لا يزن كلماته كما يجب أن يفعل: «إنك تريد أن تخيفني... أو، بأبسط صورة، تريد أن تضحك مني!».

وكان يحدق فيه وهو يقول هذا القول، وظهر في عينيه ثانية وميض كراهية عميقة، ثم صاح: «إنك مستمر على الكذب. إنك تعلم تمام العلم أن خير خطة للمجرم هي أن يقول الصدق بأقرب ما يكون إلى الحقيقة... وأن يخفي أقل ما يمكن! إني لا أصدقك».

وضحك بورڤيري ضحكة قصيرة وقال: «إنك رجل ماكر فلا سبيل لإيقاعك، وفي رأسك فكرة جنونية ثابتة لا تتحول. ألا تصدقني؟ ومع ذلك فإنك تصدق الربع مثلًا من حديثي، وسأحملك سريعًا على تصديق الكل لأني أحبك حبًا خالصًا وأريد لك الخير حقيقة..».

وارتعشت شفتا رسكولنكوف، فأمسك بورڤيري بذراعه في ود واستمر يقول: «نعم، أريد لك الخير! ويجب أن تعني بمرضك.. ثم إن أمك وأختك هنا، فيجب أن تفكر فيهما فتهدئ روعهما وتعمل على راحتهما، وأنت لا تسبب لهما غير الخوف...».

– وما شأنك في هذا؟ وكيف عرفته؟ ولماذا تهتم به؟ هل تراقبني وتريد أن تفهمني ذلك؟

– رباه! لقد سمعت هذه الأنباء منك شخصيًا. ألا تلاحظ أنك في تهيجك تقول كل شيء لي ولغيري؟ وقد علمت كذلك بالأمس من رازوميهين تفصيلات شائقة، لا! إنك تقاطعني ولكن يجب أن أخبرك أنه بالرغم من ذكائك فإن شكوكك تفقدك المقدرة على النظر إلى الأمور نظرة

طبيعية. فلنعد إلى مسألة دق الأجراس على سبيل المثال! فقد بحت لك، وأنا المحقق، بأمر خطير كهذا.. وهي واقعة حقيقية، واقعة جديرة بالمعرفة، وأنت لا ترى فيها شيئًا. لو أني كنت أرتاب فيك أقل ريبة هل كنت أفعل هذا؟ بل كنت أهدئ من شكوكك ولا أدعك تشعر أني أعرف هذه الواقعة، وأوجه اهتمامك جهة أخرى ثم أنزل بك فجأة ضربة قاضية- على تعبيرك- وأسألك: أرجو يا سيدي أن تخبرني ماذا كنت تفعل في الساعة العاشرة أو الحادية عشرة بشقة امرأة قتلت؟ ولماذا قرعت الجرس، ولماذا سألت عن الدم؟ ولماذا دعوت البوابين للذهاب معك إلى مركز الشرطة وإلى ضابط الشرطة؟ هذا ما كنت أقوم به لو أن لدي ذرة من شك فيك، وكنت أقيد أقوالك حسب القواعد المتبعة، وكنت أفتش مسكنك، وربما ألقي القبض عليك... ولكني لا أشك فيك، فلم أفعل ذلك! ولكن أعود فأقول إنك تستطيع أن تنظر للأمر بعين عادية ولا ترى شيئًا!

فارتعد رسكولنكوف، ولم يكن من الممكن أن يلحظ ذلك بورڤيري وصاح قائلًا: «إنك تكذب طول الوقت! إني لا أفهم مرادك، ولكنك تكذب! إنك لم تكن تتكلم بهذا الأسلوب الآن، ولا يمكن أن أكون مخطئًا..».

- أنا أكذب؟

كرر بورڤيري هذه العبارة وقد أثير، ولكنه احتفظ في وجهه بمسحة المرح والسخرية كأنه لا يعير رأي رسكولنكوف أي اهتمام.

- لأكن كاذبًا، ولكن كيف كان مسلكي معك الآن وأنا المحقق؟ إني ألقنك وأعطيك كل طرق الدفاع! فذكرت المرض والغيبوبة والإهانة وتغلب الكآبة وضباط الشرطة وكل ما بقي من أعذار! آه! ها! ها! ولو أن

طرق الدفاع النفسية لا يعتمد عليها كثيرًا، وهي ذات حدين. إن المرض والغيبوبة وغيرهما لأعذار صالحة، ولكن لماذا أيها السيد العزيز كنت في مرضك وغيبوبتك خاضعًا لهذه الأوهام بالذات لا غيرها؟ ألا توجد أوهام أخرى؟ ها! ها! ها!

فنظر رسكولنوف إليه في كبرياء واحتقار، وصاح في صوت الآخر وقد نهض واقفًا على قدميه ومزيحًا بورفيري إلى الوراء قليلًا: «أريد أن أعرف في اختصار هل تعترف بأني بعيد عن الريبة أو لا؟ خبرني يا بورفيري بتروفتش.. خبرني سريعًا!».

صاح بورفيري وقد احتفظ بوجهه المرح الماكر الهادئ: «أي تعب أجده معك! لماذا تريد أن تعرف، لماذا تريد أن تعرف كل شيء ما داموا لم يبدأوا بعد في إرهاقك؟ إنك كالطفل الذي يسأل عن الكبريت! لماذا أنت في قلق؟ ولماذا تلقي بنفسك علينا؟ ها! ها!».

صاح رسكولنكوف في غضب شديد: «أكرر لك القول إني لم أعد أحتمل هذا!».

فقاطعه بورفيري: «ماذا تعني بهذا؟ عدم التأكد؟».

فصرخ رسكولنكوف ضاربًا المنضدة بقبضته مرة أخرى: «لا تسخر مني! لا أقبل هذا! أقول لك لا أقبل هذا! لا أستطيع! لا أقبل! هل أنت سامع؟ هل أنت سامع؟».

فهمس بورفيري: «لا ترفع صوتك هكذا! فقد يسمعك أحد! إني أحذرك جادًا أن تحترس لنفسك..».

وفي هذه المرة لم تكن على وجهه نظرة الطيبة والذعر الشبيهة بنظرة النساء، بل كان قاطعًا عنيفًا ومقطبًا وقد وضع جانبًا كل قناع..

ولكنه ظل على هذه الحالة لحظة واحدة، أما رسكولنكوف فقد أخذته الحيرة ثم استولى عليه الغضب والتهيج، ولكن من العجيب أنه عاد فأطاع الأمر بالكلام في هدوء وإن بلغ به الغضب حده:

- لا أسمح لك بأن تعذبني..

قالها همسًا ثم لاحظ للحال أنه أطاع الأمر فزاد غضبه المكظوم حدة: «فلتقبض عليَّ! ولتفتشني.. ولكن أرجو أن تتبع القواعد في ذلك ولا تلعب بي.. ألا تجرؤ على ذلك؟..».

فقاطعه بورڤيري وعلى فمه ابتسامته الماكرة، وكأنه يشعر بلذة لحالة رسكولنكوف: «أرجو ألا تهتم بالقواعد القانونية فإنني دعوتك بطريقة ودية..».

- لا أريد صداقتك.. إني أبصق عليها! أسامع أنت؟ إني تناولت قبعتي وسأخرج، فماذا تقول الآن إذا كنت تنوي القبض عليّ؟

وتناول قبعته وقصد إلى الباب، فضحك بورڤيري وأمسكه من ذراعيه عند الباب قائلًا: «ألا تحب أن ترى مباغتتي الصغيرة؟».

ويظهر أنه صار أكثر صفاءً وميلًا للمداعبة مما أطار صواب رسكولنكوف، فسأل وقد وقف ونظر إلى بورڤيري في ذعر: «أية مباغتة؟».

- مباغتتي الصغيرة.. إنها جالسة هناك خلف الباب حتى لا تهرب! (وأشار إلى الباب المقفل) لقد أغلقت عليها الباب..

- ما هي؟ أين؟ ماذا؟

وسار رسكولنكوف إلى الباب وأراد فتحه، ولكنه كان مقفلًا بالمفتاح..

قال بورفيري وقد أخرج مفتاحًا من جيبه: «إن الباب مقفل، وهذا هو المفتاح..».

وزأر رسكولنكوف صائحًا من غير حساب: «إنك لا تزال تكذب.. إنك تكذب أيها المهرج اللعين!».

وهجم على بورفيري الذي تراجع إلى الباب الآخر دون أن يظهر عليه أي وجل..

- إني أفهم كل شيء الآن.. إنك تكذب وتسخر مني لتحملني على أن أكشف لك عن نفسي...

- إنك لا تكشف عن نفسك أكثر من ذلك يا عزيزي روديون رومانوڤتش! لا يتملكنك الغضب ولا تصرخ، وإلا دعوت الكتبة!

- أنت تكذب! هل تدعو الكتبة؟ إنك تعلم أني كنت مريضًا ولذلك تريد إثارة غضبي لكي تحملني على أن أكشف عن نفسي! هذا هو قصدك.. أظهر أدلتك.. إني فاهم كل شيء! ليس لديك دليل غير الشكوك الخفية الفارغة مثل أوهام زاميتوف! إنك تعرف طبيعتي، فكل ما تريده هو أن تغضبني، فإذا تم لك ذلك ضربتني ضربة قاضية بالشهود المحلفين، فهل تنتظرهم؟ ما الذي تنتظر؟ أين هم؟ أظهرهم!

- لماذا الشهود المحلفون يا سيدي العزيز؟ ما أكثر خيال الناس!

أتظن أن ذلك يكون من القواعد الرسمية؟ إنك يا صاحبي العزيز لا تعرف تلك الإجراءات... وليس هناك تهرب من تلك القواعد الرسمية كما ترى!

تمتم بورفيري هذه الأقوال وهو يصغي عند الباب الذي نفذت منه صيحة مسموعة..

فصاح رسكولنكوف: «بل جاءوا.. لقد استدعيتهم.. أرى أنك تنتظرهم! فلتظهرهم، من نواب وشهود ومن تشاء... إني على استعداد لأي إنسان! أتم الاستعداد!».

وفي هذه اللحظة حدثت حادثة غريبة غير متوقعة مطلقًا، حتى أن رسكولنكوف وبورفيري بتروفتش لم يكونا ينتظران مثل هذه الخاتمة لمقابلتهما..

* * *

(٦)

هذا ما تذكره رسكولنكوف فيما بعد من ذلك المنظر..

ازدادت الضجة وراء الباب، وفجأة فتح الباب قليلًا..

وصاح بورفيري بتروفتش غاضبًا: «ما هذا؟ لقد أصدرت تعليمات...».

فلم يجبه أحد لحظة، ولكن كان من الواضح أن هناك بعض الأشخاص عند الباب، وأنهم يحاولون منع أحد الناس من الدخول.

قال بورفيري مرة أخرى في قلق: «ما هذا؟».

فأجاب أحدهم: «لقد جيء بالسجين نيكولاي!».

صاح بورفيري وقد أسرع إلى الباب: «لست في حاجة إليه الآن! أبعدوه! فلينتظر! ماذا يعمل هنا؟ هذا إخلال بالنظام!».

فرد الصوت الأول قائلًا: «لكن هو الذي...».

ثم انقطع الصوت ومرت لحظتان في نضال، ثم سمع صوت سقوط عنيف، ودخل الغرفة رجل ممتقع اللون جدًا..

كان منظر الرجل لأول وهلة غريبًا جدًا.. فهو ثابت النظر أمامه كأنه لا يرى شيئًا، على أن في عينيه بريق العزيمة، وقد امتقع لون وجهه امتقاع الموتى، وكأنه يساق للمشنقة، وشفتاه البيضاوان ترتعشان..

وهو في ثياب العمال، متوسط القامة صغير السن نحيل قص شعره مستديرًا، وملامحه ضئيلة نحيلة، وقد تبعه الرجل الذي تخلص منه إلى الغرفة وأمسك به من ذراعه، وهو أحد حراس السجن، ولكن نيكولاي جذب ذراعه منه.

واجتمع عدد من المتطلعين عند الباب، وحاول بعضهم الدخول. وحدث ذلك كله في غاية السرعة. وتمتم بورفيري بتروفتش متضايقًا جدًا لخطل حسابه: «فلتذهب الآن! لقد جئت قبل وقتك.. انتظر حتى تدعى! لماذا جئتم به قبل أوانه؟».

ولكن نيكولاي ركع فجأة..

فصاح بورفيري في دهشة: «ما هذا؟».

فتكلم نيكولاي فجأة في صوت متقطع كأنه مخنوق، إلا أنه واضح مسموع: «إني مذنب! وعليّ خطيئة ذنبي! فأنا القاتل!».

وساد السكون مدة عشر ثوان، وكأن الحاضرين قد جمدوا في أماكنهم، حتى الحارس تراجع في حركة آلية إلى الباب ثم بقي واقفًا لا يتحرك.

وصاح بورفيري بتروفتش بعد أن استفاق من ذهوله: «ماذا؟».

فكرر نيكولاي بعد فترة قصيرة: «إني... أنا القاتل!».

فصاح بورڤيري بتروڤتش، ومن البين أنه كان في حيرة شديدة: «ماذا؟... أنت؟... ماذا؟... من قتلت؟».

وصمت نيكولاي لحظة أخرى ثم قال فجأة: «قتلت إليونا إيفانوڤنا وأختها ليزاڤتا إيفانوڤنا... ببلطة... وكان الظلام قد غشي عليّ!».

ثم عاد للصمت وظل راكعًا على ركبتيه.

أما بورڤيري بتروڤتش فقد ظل لحظات يفكر، ولكنه عاد فجأة لنفسه وأمر الحاضرين الفضوليين بالانصراف فخرجوا في الحال، وأغلق الباب. ثم نظر نحو رسكولنكوف، وكان واقفًا في أحد أركان الغرفة وهو يحدق مذهولًا في نيكولاي، فتحرك بورڤيري نحوه، ولكنه وقف فجأة ونظر من نيكولاي إلى رسكولنكوف، ثم عاد ينظر مرة ثانية إلى نيكولاي وكأنه لم يستطع أن يسيطر على نفسه، فهرول إليه وصاح به وكأنه غاضب: «إنك تسرع أكثر مما يجب... فإني لم أسألك ماذا جرى لك. تكلم.. هل قتلتهما؟».

فأجاب نيكولاي: «إني أنا القاتل وأريد أن أعترف بذلك!».

- حسنًا.. بماذا قتلتهما؟

- ببلطة أعددتها لهذا الغرض..

- إنك تتعجل في الإجابة.. هل فعلت ذلك وحدك؟

فلم يفهم نيكولاي هذا السؤال..

- هل ارتكبت الجريمة وحدك؟

- نعم وحدي، وديمتري بريء ولم يكن له يد في ارتكابها.

- لا تتعجل في أمر ديمتري، فإني لم أسألك عن ذلك! لكن كيف أن البوابين رأياكما وأنتما تجريان في السلالم؟

فأجاب نيكولاي مسرعًا كأنه أعد الجواب:

- أردت أن أموه عليهما... فجريت وراء ديمتري..

فصاح بورفيري: «توقعت ذلك!».

ثم تمتم كأنه يحدث نفسه: «هذه القصة ليست قصته!».

ووقفت عيناه عند رسكولنكوف مرة ثانية، والظاهر أنه كان قد شغل بنيكولاي حتى أنه نسي لحظة وجود رسكولنكوف، فلما رآه ذهل قليلًا. فأسرع إليه قائلًا: «معذرة يا عزيزي روديون رومانوفتش! أظن هذا لا يصح! أظن أنه ينبغي ذهابك... ولا فائدة من بقائك.. فإني... أنت ترى هذه المباغتة الغريبة... وداعًا!».

ثم سحبه من ذراعه وسار نحو الباب، ولم يفهم رسكولنكوف هذا الموقف تمامًا، ولكنه كان قد استرد شجاعته فقال: «لعلك لم تكن تتوقع هذا..».

- ولا أنت أيها الصديق! انظر كيف ترتجف يداك.. ها! ها!

- وأنت أيضًا ترتجف يا بورفيري بتروفتش..

- نعم.. لم أتوقع هذا!

ووصلا إلى الباب، وكان بورفيري متعجلًا في خروج رسكولنكوف،

فسأله رسكولنكوف في شيء من السخرية: «ومباغتتك الصغيرة؟ ألا تريها لي؟».

قال بورڤيري: «إن أسنانك تصطك وأنت تسأل هذا السؤال.. ها! ها! إنك تحب السخرية! انتظر حتى نتقابل..».

– أظن أنه يمكن أن أقول: وداعًا!

فتمتم بورڤيري وعلى وجهه ابتسامة غير طبيعية: «هذه مشيئة الله..».

ولاحظ رسكولنكوف عند مروره بغرفة الكتبة أن أناسًا كثيرين كانوا ينظرون إليه، ورأى بينهم بوابي البيت المعهود وهما اللذان طلب منهما تلك الليلة أن يصحباه إلى مركز الشرطة، وكانا في الانتظار. على أنه ما كاد يبلغ السلم حتى سمع صوت بورڤيري بتروڤتش من خلفه، فالتفت فرآه يجري وراءه وهو يلهث..

قال له: «لي كلمة واحدة يا روديون رومانوڤتش.. إن ما بقي بيد الله.. ولكن، من قبيل الإجراءات الرسمية، أود أن أسألك بعض الأسئلة.. وسنلتقي مرة أخرى.. أليس كذلك؟».

ثم وقف بورڤيري بتروڤتش مبتسمًا أمام الشاب، وأعاد العبارة: «أليس كذلك؟».

ووقف بورڤيري ساكتًا وهو يواجهه بابتسامة، وأعاد ثانية: «أليس كذلك؟».

وبدا عليه أنه يريد أن يقول له شيئًا جديدًا، غير أنه لم يفعل.

وكان رسكولنكوف قد استعاد رباطة جأشه، وشعر برغبة شديدة في إظهار ذلك فقال: «سامحني يا بورفيري بتروفتش على ما كان بيننا... فقد فقدت أعصابي».

فأجاب بورفيري بما يشبه الارتياح: «لا تذكر هذا! وأنا أيضًا سريع الغضب! أعترف بذلك، ولكننا سنتقابل ثانية.. وإن شاء الله قد نتصل كثيرًا!».

أضاف رسكولنكوف: «وسيعرف كل منا الآخر حق المعرفة..».

ووافق بورفيري وقد ضم عينيه، ونظر إلى رسكولنكوف جادًا وقال: «نعم! يعرف كل منا الآخر حق المعرفة.. هل أنت ذاهب الآن إلى حفلة ميلاد؟».

- إلى جنازة!

- نعم! الجنازة.. اعتن بنفسك ليتم شفاؤك!

وكان رسكولنكوف قد بدأ ينزل السلم، إلا أنه استدار وقال: «لا أدري ما أتمناه لك! أتمنى لك النجاح! إن مكتبك لمضحك جدًا».

وكان بورفيري قد استدار للعودة إلى غرفته، فلما وصلت هذه الكلمات إلى أذنيه سأل: «مضحك؟.. لماذا؟».

- لا بد أنك دأبت على تعذيب نيكولاي المسكين ومضايقته نفسانيًا بطريقتك حتى اعترف! ولا شك في أنك كنت تقول له ليل نهار: «أنت القاتل! أنت القاتل!» وتبرهن له على أنه القاتل.. فإذا اعترف بدأت تشريحه حيًا، فتقول له: «أنت تكذب! فلست القاتل.. لا يمكن أن تكونه! إنك لا

تقول قصتك!».. يجب أن تعترف بأن عملك مضحك».

– آه. آه.. لقد لاحظت إذن أنني قلت لنيكولاي أنه لا يقول قصته؟

– وكيف لا ألاحظ ذلك؟

– ها! ها! إنك سريع الملاحظة لا يفوتك شيء، وفضلًا عن ذلك تحب المزاح ويسترعى نظرك الجانب المضحك.. ها! ها! ويقال إن هذه صفة جوجول خاصة من بين كتابنا!

– نعم! صفة جوجول!

– نعم! صفة جوجول!... سأكون في اشتياق إلى لقائك!

– وأنا أيضًا!

قصد رسكولنكوف في الحال إلى منزله، فلما وصل إلى غرفته استلقى على مقعده وظل ربع ساعة يحاول جمع أفكاره المشتتة. ولم يحاول التفكير في أمر نيكولاي، فقد تملكته الدهشة وشعر أن هذا الاعتراف غريب لا يمكن تفسيره.. ولكن اعتراف نيكولاي كان أمرًا واقعًا، على أن نتائجه واضحة، إذ لا يلبث أن يظهر كذبه، وبعدئذ يعودون إليه مرة ثانية.. وإلى أن يحدث ذلك على الأقل سيكون حرًا، ويجب أن يعمل شيئًا من أجل نفسه لأن الخطر قريب إليه..

ولكن إلى أي حد هو قريب؟ لقد اتضح له موقفه تدريجًا، وتذكر في اختصار الخطوط الأساسية لعراكه مع بورفيري، فلم يستطع إلا أن يرتعد استفظاعًا مرة ثانية.. ومن الطبيعي أنه لم يكن يعرف كل أغراض بورفيري، ولا يرى ما يرمي إليه في حسابه، وكأنه مع ذلك كشف جزءًا مما في يده،

ولو استمر على ذلك قليلًا لكان من المحتمل أن يبوح بسره ويسلم نفسه، فقد عرف بورفيري طبعه، ومن النظرة الأولى نفذ إلى نفسه، فكان من المقرر أن يربح بالرغم من أنه كان يلعب لعبة جريئة. ولا يمكن إنكار أن رسكولنكوف أثار الشكوك حول نفسه جديًا، ولكن لم تظهر حتى ذلك الوقت وقائع مادية، ولم يكن هنالك دليل قاطع، ولكن هل كانت نظرته إلى موقفه حقيقية؟ وهل لم يكن مخطئًا؟ وإلام كان يرمي بورفيري؟ وهل كان يدبر له مباغتة حقًا؟ وهل كان ينتظر شيئًا؟ وكيف كانا ينفصلان لو لم يظهر نيكولاي فجأة؟

لقد كشف بورفيري عن أوراقه جميعًا تقريبًا، وقد جازف في سبيل ذلك. ولو كان هنالك شيء في كمه (هكذا فكر رسكولنكوف) لأظهره أيضًا.. فما هي المباغتة؟ هل كان يمزح؟ وهل كان يعني شيئًا؟ هل كان يخفي شيئًا كواقعة أو دليل مثلًا؟ أين زائر الأمس؟ ماذا كان من أمره؟ أين هو اليوم؟ لو أن لدى بورفيري دليلًا لكانت له علاقة بالزائر..

كان جالسًا في مقعده، وقد أسند مرفقيه إلى ركبتيه وأخفى وجهه في يديه، وكان يرتجف ارتجافًا عصبيًا، وأخيرًا وقف وتناول قبعته وفكر لحظة ثم سار نحو الباب..

وكان يشعر أنه بعيد عن الخطر على الأقل في هذا اليوم، فاستولى عليه إحساس سرور مفاجئ، وأراد أن يذهب إلى كاترينا إيفانوڤنا، وقد تأخر عن الجنازة ولكنه سيدرك موعد الطعام التذكاري. وهنالك يرى سونيا في الحال.

ووقف متأملًا، ودبت على شفتيه ابتسامة عليلة. وكرر لنفسه: «اليوم!

اليوم! نعم اليوم... لا بد من ذلك».

وهمّ بفتح الباب، فإذا به يفتح من تلقاء نفسه.. فارتاع وتراجع إلى الوراء، وفتح الباب في رقة وبطء.. وظهر فجأة شخص، هو رجل الأمس الذي زاره، وكأنه خارج من باطن الأرض!

ووقف الرجل عند الباب، وأخذ ينظر إلى رسكولنكوف وهو صامت.. ثم تقدم خطوة داخل الغرفة، وهو يبدو تمامًا كما كان بالأمس في شكله وثيابه، غير أن في وجهه تغيرًا كبيرًا، فقد كان حزينًا يتنهد تنهدًا عميقًا، ولو أنه وضع يده على خده وأمال رأسه إلى جانب لبدا تمامًا كامرأة فلاحة..

فسأله رسكولنكوف وقد جمد جسمه رعبًا: «ماذا تريد؟».

ولزم الرجل الصمت، إلا أنه انحنى فجأة حتى كاد يمس الأرض، ولمسها بأصابعه..

فصاح رسكولنكوف: «ما هذا؟».

فقال الرجل في صوت منخفض: «لقد ارتكبت خطيئة..».

- كيف؟

- سوء الظن!

ونظر كل منهما إلى الآخر..

- لقد استأت عندما جئت- وربما بتأثير الخمر- وطلبت من البوابين الذهاب إلى مركز الشرطة وسألت عن الدم، واستأت لأنهما تركاك طليقًا فقد ظنا أنك سكران، وكان استيائي عظيمًا حتى ذهب عني النوم، وتذكرت العنوان فجئت هنا أمس وسألت عنك..

فقاطعه رسكولنكوف سائلًا وقد بدأ يتذكر للحال: «من جاء؟».

– أنا جئت! وقد أخطأت في حقك!

– إذن جئت من ذاك المنزل؟

– كنت واقفًا عند الباب الكبير معهما... ألا تتذكر؟ وإني أتخذ مكانًا لتجارتي في ذاك المنزل منذ سنوات، نتجر في إعداد الجلود وننقل عملنا إلى مسكننا... وقد استأت بنوع خاص...

وارتسم منظر الأمس أمام الدار واضحًا بأكمله في ذهن رسكولنكوف، وتذكر أنه كان يوجد عدا البوابين أناس كثيرون ومنهم نساء، وتذكر صوتًا يقترح أخذه في الحال إلى مركز الشرطة، لكنه لم يتذكر وجه المتكلم ولم يعرفه الآن، بل تذكر أنه استدار ورد عليه القول.

إذن هذا تفسير الأمر المخيف الذي حدث له أمس، وكان أفظع فكرة مرت بخاطره أنه كاد يضيع وكاد يودي بنفسه بسبب ظرف تافه. فهذا الرجل لا يمكن أن يقول شيئًا، غير أنه سأل عن الشقة وعن الدم! إذن بورفيري لا يستند على شيء غير الغيبوبة، وليس لديه وقائع غير تلك العوامل النفسية ذات الحدين، فليس لديه شيء ثابت، وإذا لم تظهر أدلة أخرى (ويجب ألا تظهر! يجب ألا تظهر!) فماذا يستطيعون أن يفعلوا له؟ وكيف يحكمون بجرمه ليقبضوا عليه؟ إذن لم يسمع بورفيري عن الشقة إلا الآن، ولم يعرف عنها من قبل..

وصاح وقد جاءته فكرة مفاجئة: «وهل أنت الذي أخبر بورفيري... أني ذهبت هناك».

- من هو بورڤيري هذا؟

- رئيس إدارة التحقيقات..

- نعم، لم يذهب البوابان فذهبت أنا..

- اليوم؟

- وصلت قبل حضورك بدقيقتين، وسمعت الحديث بينكما إلى آخره. كم أرهقك؟

- أين.. وكيف.. وماذا؟

- إني كنت في الغرفة المجاورة جالسًا طول الوقت!

- ماذا؟ إذن أنت كنت المباغتة؟ ولكن كيف يحدث هذا بحق الله؟

فشرع الرجل يقول: «عندما رأيت أن البوابين لا يريدان تنفيذ ما أشرت به، إذ زعما فوات الوقت وأن القائمين بالمكتب قد يغضبون منهما لأنهما لم يذهبا في الوقت المناسب، استأت حتى ذهب عني النوم وأخذت أستعلم فعلمت أمس إلى أين يجب أن أذهب، فذهبت اليوم ولم أجده في المرة الأولى التي ذهبت فيها، وعدت بعد ساعة فلم تكن رؤيته ميسورة، وذهبت للمرة الثالثة فأذن لي بالدخول عليه، فرويت له كل ما حدث فأخذ يدور في الغرفة ويضرب صدره. وصاح قائلًا: «ماذا تقصدون بهذا أيها الأوغاد؟ لو عرفت ذلك لقبضت عليه!» ثم جرى إلى الخارج ودعا شخصًا إليه، وأخذ يحادثه في ركن الغرفة. ثم التفت إليّ وهو يؤنبني ويسألني، وقد أنبني كثيرًا، ورويت له كل شيء، وذكرت له أنك لم تجرؤ على الرد عليّ بكلمة أمس، وأنك لم تعرفني. وأخذ يجري ثانية حول الغرفة ويقرع صدره

ثم يغضب، ثم يدور حول الغرفة.. ولما أعلن عن حضورك طلب مني أن أذهب إلى الغرفة الأخرى وقال لي: «اجلس قليلًا ولا تتحرك مهما تسمع». ووضع لي كرسيًا وأغلق عليَّ بالمفتاح وقال: «ربما أدعوك!». فلما جاء نيكولاي أخرجني بمجرد خروجك وقال: «سأرسل في طلبك مرة ثانية وأسألك».

- وهل استجوب نيكولاي أمامك؟

- تخلص مني كما فعل معك ثم شرع في استجوابه.

ووقف الرجل صامتًا، ثم انحنى إلى الأرض فجأة ولمسها بأصبعه..

- سامحني لأفكاري السيئة ولعيبي في حقك!

فأجاب رسكولنكوف: «ليغفر الله لك..».

ولما قال هذا انحنى الرجل مرة ثانية، ولكن لا للأرض، واستدار في بطء وغادر الغرفة..

فكرر رسكولنكوف: «كل هذا له حدان! كل هذا له حدان!».

وخرج وقد عادت إليه الثقة في نفسه أكثر من أي وقت.. وقال في ابتسامة غيظ وهو ينزل السلم: «سنكافح!».

وكان هذا الغيظ موجهًا إلى نفسه، فقد تذكر في خجل واحتقار ما يداهمه من جبن..

* * *

القسم الخامس

(١)

كان صباح اليوم التالي للمقابلة الخطيرة مع دنيا وپولكيريا ألكسندروڤنا ذا تأثير على پيوتر بتروڤتش، إذ أعاد إليه صوابه. فقد اضطر، بالرغم مما في ذلك من مرارة، إلى أن يقبل تدريجًا أمورًا كان يعتبرها في اليوم السابق فقط من الأمور الخيالية التي لا تصدق، وقد ظل ذلك الثعبان الأسود، ثعبان الكبرياء الجريحة، ينهض في قلبه طول الليل، فما نهض پيوتر بتروڤتش من فراشه حتى نظر إلى نفسه في المرآة وقد خشي أن يكون أصيب بداء اليرقان أثناء الليل، ولكن بدا أن صحته لم تسؤ بعد، ورأى وجهه النبيل ذا البشرة النقية وقد أخذ يميل إلى الامتلاء، فشعر حقًا بالارتياح معتقدًا أنه سيجد عروسًا أخرى ربما كانت خيرًا من الأولى. ولكنه عاد للتفكير في موقفه الحاضر، فالتفت إلى جانبه وبصق بقوة فأثار ابتسامة ساخرة لدى أندريه سميونوڤتش ليزياتنكوف صديقه الشاب الذي يقيم هو عنده. ولاحظ پيوتر

بتروفتش هذه الابتسامة وأسرَّها في نفسه لصديقه الشاب، وكان أخيرًا يأخذ عليه أمورًا كثيرة، وتضاعف غضبه حين فكر أنه كان ينبغي ألا يطلع أندريه سميونوفتش على نتيجة مقابلة الأمس، فتلك غلطته الثانية التي ارتكبها في لحظة غضب بسبب اندفاعه وحماقته... وفضلًا عن ذلك لم تنقطع المضايقات طول الصباح، حتى في القضية أمام مجلس الشيوخ، ولكن الذي ضايقه أكبر مضايقة هو صاحب المسكن الذي أجره ليتخذه مسكنًا عند زواجه، وكان يُطلى ويزين على نفقته، فإن هذا الشخص- وهو تاجر ألماني ثري- رفض رفضًا باتًّا أن يفسخ العقد، وأصرّ على الاستيلاء على العربون، بالرغم من أن بيوتر بتروفتش يرد إليه المسكن بعد أن جدّده كله تقريبًا.. وهذا ما حدث أيضًا في الحانوت الذي اشترى منه الأثاث الذي لم ينقل للمسكن..

وفكر بيوتر بتروفتش وهو يصر على أسنانه: «وهل أتزوج من أجل الأثاث وحده؟».. ومرت في خاطره لمحة من الأمل وسط اليأس فتساءل: «هل من الممكن أن يكون كل شيء انتهى بلا رجعة؟ وهل لا فائدة من بذل مجهود آخر؟».. وشعر حين فكر في دنيا بوخز لذيذ في قلبه، وكانت لحظة عذاب مرت به، ولو أنه استطاع أن يقضي على رسكولنكوف بمجرد إبداء الرغبة لما تردد بيوتر بتروفتش في أن يبدي هذه الرغبة في الحال..

وفكر في حزن وهو يقصد مسكن ليزياتنكوف: «لقد ارتكبت أيضًا خطأ إذ لم أقدم لهم نقودًا، لماذا صرت هكذا مقترًا كاليهود؟ كان هذا مني اقتصادًا غير موفق! وقد أردت أن أتركهم قليلًا في عوز كي ينظروا إليَّ كأني منقذهم.. ولكن.. انظر إليهم الآن! إنهم لا يعبأون! فلو أني أنفقت

ألفًا وخمسمائة روبل على ثياب العروس والهدايا وأدوات الزينة والحلي وما أشبهها مما يشترى عند «كثوب» أو من حانوت التاجر الإنجليزي لكان مركزي أقوى منه الآن...! ولما كان التخلص مني سهلًا! إنهم من نوع الناس الذين يرون من واجبهم أن يردوا الهدايا والمال في حال فسخ الزواج! ولكن ردها صعب! ثم هناك تأنيب الضمير.. إذ كيف يطردون رجلًا أظهر مثل هذا الكرم وهذه الرقة؟ حقًا لقد أتيت خطأ كبيرًا..».

وصر بيوتر بتروڤتش على أسنانه مرة ثانية، ووصف نفسه بأنه غبي- ولكن دون أن يرفع صوته بطبيعة الحال- وعاد إلى مسكنه وقد بلغ غضبه ومضايقته ضعف ما كان يشعر به من قبل. على أن الاستعداد للطعام الجنائزي في غرفة كاترينا إيفانوڤنا أثار فضوله بعض الشيء أثناء مروره، وقد سمع في اليوم السابق عن هذا الطعام وخيل إليه أنه دعي إليه، ولكنه كان مشغولًا بهمومه فلم يهتم لهذا الأمر. وقد استفهم من السيدة ليڤيكسل، وكانت منهمكة في إعداد المائدة بدلًا من كاترينا إيفانوڤنا التي ذهبت إلى المقبرة، فعلم منها أن هذا الطعام سيكون حافلًا، وقد دعي جميع أهل البيت تقريبًا حتى الذين لم يعرفوا الفقيد. ودعي أندريه سميونوڤتش ليزياتنكوف أيضًا بالرغم من عراكه مع كاترينا إيفانوڤنا، ولم يكن هو- بيوتر بتروڤتش- مدعوًا فقط بل إنهم ينتظرون حضوره بصبر نافد، حيث إنه أهم الساكنين شأنًا. وقد دعيت أماليا إيفانوڤنا نفسها في أدب واهتمام بالرغم من المشاحنات القريبة، ولذلك كانت مهتمة بالقيام بهذه الإعدادات وشاعرة بارتياح فعلي في القيام بها، وهي فضلًا عن ذلك قد زينت شعرها وصففته على أحدث طراز، وارتدت ثوبًا جديدًا من الحرير الأسود وهي

فخور به. وكان كل هذا مما بعث في رأس پيوتر بتروڤتش فكرة، فدخل إلى غرفته- وعلى الأصح غرفة أندريه سميونوڤتش ليزياتنكوف- وهو بادي التفكير، ولقد علم أن رسكولنكوف من بين المدعوين.

وكان أندريه سميونوڤتش قد لازم غرفته طول الصباح، وكانت العلاقات بين هذا السيد وبين پيوتر بتروڤتش عجيبة وإن كانت طبيعية: فإن پيوتر بتروڤتش شعر نحوه بالاحتقار والكراهية منذ أول يوم سكن فيه عنده تقريبًا، ولكن في الوقت ذاته صار يخشاه بعض الشيء.

وهو لم ينزل بغرفة أندريه سميونوڤتش عند وصوله إلى بطرسبرج من باب الحرص على النقود فقط- ولو أن هذا هو السبب الأساسي- بل نزل عنده لسبب آخر، فقد بلغه أن أندريه سميونوڤتش- الذي كان تحت وصايته في صغره- من زعماء الشبان المشتركين في الحركات التقدمية، وأنه يشغل عملًا مهمًا في بعض الأوساط التي تروى أعمالها في الولايات كما تروى الأساطير، وهذا ما أثر في پيوتر بتروڤتش. وهذه الأوساط العليمة بكل شيء، ذات النفوذ في كل مكان، التي تحتقر الجميع وتشهر بهم، كانت تبعث فيه نوعًا من الرعب الخاص منذ وقت طويل، وإن ظل هذا الرعب غامضًا. ومن الطبيعي أنه لم يستطع أن يكوِّن فكرة تقريبية عن هذه الأوساط، فقد سمع- كما يسمع الناس جميعًا- أن في مدينة بطرسبرج تقدميين وفوضويين إلى غير ذلك، ولكنه- كالكثيرين غيره- كان يبالغ في معنى هذه الكلمات ويشوهها إلى درجة السخرية.

وكان أكبر ما يخشاه منذ سنوات هو التشهير به، وهذا مبعث قلقه الدائم منذ أخذت تراوده فكرة الانتقال بأعماله إلى مدينة بطرسبرج. ومن

هذه الجهة يمكن أن يقال إنه كان ينتابه الرعب كما ينتاب الأطفال الصغار في بعض الأحيان. وحدث منذ سنوات حين كان في مبدأ حياته العملية، أن شاهد في الولاية حادثين وقعا لرجلين كبيرين في مركز سام، كان يظهر لهما الاحترام ويشملانه برعايتهما، فقد شهر بهما وانتهى الحادث الأول بفضيحة للشخص المهاجم، وكان يسبب الثاني متاعب كبيرة لصاحبه. وهذا هو السبب في أن بيوتر بتروڤتش- منذ وصوله إلى العاصمة- عزم على أن يتجنب مثل هذا الموقف، وعند الحاجة يطلب المساعدة والحماية «من أجيالنا الناشئة»، وهو يعتمد على أندريه سميونوڤتش في هذا، وقبل زيارته لرسكولنكوف نجح في التقاط بعض العبارات الجارية على ألسنة هذه الجماعة، على أنه لم يلبث أن تبين له أن أندريه سميونوڤتش لم يكن غير رجل عادي مغفل، ومع هذا لم يطمئن على نفسه، ولو أنه وجد جميع التقدميين على شاكلته لما اطمأن.

ولم يكن ليعنى بكل تلك المذاهب والآراء والنظريات التي يصبها عليه أندريه سميونوڤتش، فإن له غرضًا خاصًا: هو أن يعرف ما يجري هنا! وهل لتلك الجماعة سطوة أم لا؟ وهل هناك ما يخشاه منهم! وهل يشهرون به لو أقدم على مغامرة مثمرة... وما هو الغرض الفعلي من مهاجمتهم للناس؟ وهل يمكن الاتصال بهم والارتباط بهم إذا كانوا أقوياء حقيقة؟ هل يجب أن نفعل ذلك أو لا يجب؟ هل من الممكن أن يستفيد إذا شملوه برعايتهم؟ وفي الواقع أن مئات الأسئلة قامت في نفس بيوتر بتروڤتش..

كان أندريه سميونوڤتش رجلًا نحيل الجسم أحمق، له شعر أشقر عجيب في جانبي وجهه على هيئة شريحة اللحم، وهو يفخر به.. وعيناه

مريضتان: مريضتان دائمًا وإن كان يقوم كثيرًا بأعمال كتابية. وكان على شيء من طيبة القلب ولكنه كبير الثقة بنفسه. ويذهب أحيانًا في حديثه إلى الادعاء، ويغرق فيه حتى يتعارض مع ضآلة جسمه تعارضًا يبعث على السخرية، وهو من أكثر مستأجري السيدة ليڤيكسل استحقاقًا للاحترام، لأنه لا يسكر ويدفع أجرته بانتظام! وكان أندريه سميونوڤتش في الحقيقة أحمق بعض الشيء، وقد انضم إلى حركة تقدم «جيلنا الجديد» بدافع الحماسة، فهو واحد من العدد الضخم المتنوع من الأغبياء وأنصاف الأحياء والمدعين غير المثقفين الذين يسيرون في ركاب أحدث فكرة وأكثرها ذيوعًا فيشوهونها، ويمسخون كل قضية وإن خدموها بإخلاص.

وأندريه سميونوڤتش طيب القلب أيضًا، إلا أنه بدأ يكره پيوتر بتروڤتش، وحدث هذا من الجانبين دون شعور كل منهما بذلك.. فإن أندريه- بالرغم من بساطته- أخذ يرى أن پيوتر بتروڤتش يخدعه ويحتقره سرًا، و«أنه ليس الرجل الجدير». ولقد حاول أن يشرح له آراء ثورية ونظرية داروين، ولكن پيوتر بتروڤتش صار يستمع إليه أخيرًا في سخرية، بل أظهر شيئًا من الخشونة، والواقع أنه بدأ يظن بغريزته أن ليزياتنكوف مع أنه مغفل عادي فقد يكون أيضًا كذوبًا، وأنه ليست له أية علاقات ذات قيمة في وسطه، وأنه لم يصل إلى بعض الأمور إلا بالسماع. ومن الراجح أنه لا يحسن حتى عمله وهو الدعاية؛ لأنه كثير الخلط في أقواله، فهل مثل هذا يستطيع أن يشهر بأحد؟ ومما يلاحظ بهذه المناسبة، أنه في هذه الأيام العشرة كان يتلقى أعجب الثناء من أندريه سميونوڤتش في غبطة، فهو لم يعترض مثلًا حين أغدق عليه أندريه سميونوڤتش المديح، زاعمًا أنه أعرب

عن استعداده للمساعدة في إنشاء وحدة شيوعية، والامتناع عن تعميد أطفاله في المستقبل، ورضائه إذا بدا لدنيا أن تتخذ عشيقًا بعد الشهر الأول لزواجهما، إلى غير ذلك.. وكان پيوتر بتروڤتش يحب الثناء، حتى أنه لم يظهر احتقاره لمثل هذه «الفضائل» حين أسندت إليه..

كان پيوتر بتروڤتش قد حقق في ذاك الصباح جمع فوائد بعض السندات التي تعطي فائدة قدرها خمسة في المائة، وجلس أمام المنضدة يعد رزمًا من ورق النقد. وأخذ أندريه سميونوڤتش الخالي الوفاض يمشي في الغرفة ويتصنع عدم الاحتفال بهذا المال، بل احتقاره. ولم يقتنع پيوتر بتروڤتش بأن ليزياتنكوف ينظر إلى مثل هذا المبلغ من غير مبالاة.. وكان الآخر من جانبه يفكر في مرارة بأن پيوتر بتروڤتش قد يرى هذا الرأي فيه، وأنه لا بد مغتبط بهذه الفرصة لمضايقة صديقه وتذكرته بأنه أقل منه شأنًا وبالفارق الكبير بينهما..

وقد وجده أندريه سميونوڤتش أقل اهتمامًا وأكثر غضبًا من عادته، بالرغم من أنه أخذ يشرح أمامه فكرته المفضلة، وهي إنشاء وحدة شيوعية جديدة من نوع خاص. وكانت الملاحظات القصيرة التي يفوه بها پيوتر بتروڤتش في أثناء تعداد أمواله على لوحة الحساب فيها روح السخرية السافرة الغليظة، ولكن أندريه سميونوڤتش «الإنساني» عزا علائم الغضب لدى زميله إلى التقاطع التي تم أخيرًا بينه وبين دنيا. وكان يتحرق تطلعًا إلى الخوض في هذا الموضوع؛ لأنه يريد أن يعبر عن بعض الآراء التقدمية التي قد تسري من هموم صديقه الكريم وتساعد بلا أدنى ريب على تطوره فيما بعد..

ووجه بيوتر بتروفتش إليه فجأة سؤالًا فقاطعه في أهم موضع من حديثه إذ قال: «ما هذا الاحتفال الذي يعد لدى تلك الأرملة؟».

– كأنك لا تعرف من أمره شيئًا؟ لقد شرحت لك في الليلة الماضية رأيي في هذه العادات كلها... وقد بلغني أنك مدعو إليه أيضًا، وقد كنت تتحدث إليها بالأمس..

– لم أكن أظن أن هذه الغبية التعسة ستنفق على هذا الطعام كل المال الذي أعطاه لها ذلك الغبي رسكولنكوف. ولقد دهشت إذ رأيت عند مروري هذا الاستعداد وهذه الأنبذة! لقد دعت عددًا كبيرًا.. هذا أكثر مما يتصور.

استمر بيوتر بتروفتش، ويبدو أنه كان له غرض من وراء حديثه: «ماذا؟ تقول إني مدعو أيضًا؟ متى كان ذلك؟ لا أذكر.. ولكني لن أذهب، فما شأني هناك؟ لقد تحدثت إليها بالأمس في مروري لأخبرها أنها بصفتها أرملة موظف بائس تستطيع أن تتقاضى مرتب سنة على سبيل الإعانة، فهل دعتني بسبب هذا الأمر؟ ها! ها!».

قال ليزياتنكوف: «أنا أيضًا سوف لا أذهب..».

– أظن هذا بعد أن ضربتها! وأفهم ترددك في الذهاب.. ها! ها! ها!

واضطرب ليزياتنكوف واحمر وجهه وصاح: «من الذي ضربها؟ وفيم تتكلم؟».

– إنك ضربت كاترينا إيفانوفنا منذ شهر! وسمعت ذلك أمس! هذا ما وصلت إليه معتقداتك... ففكرتك عن مسألة المرأة لم تكن مستقيمة

تمامًا.. ها! ها! ها!

وعاد بيوتر بتروفتش إلى حساباته على لوحته، وكأنه شعر بالارتياح بعد ذلك..

وصاح ليزياتنكوف، وكان يخشى دائمًا الخوض في هذا الموضوع: «إنها لفرية لا حقيقة لها! لم يحدث الأمر كما بلغك بل كان شيئًا آخر... إن ما سمعته خطأ يراد به خدش سمعتي! فإني لم أفعل أكثر من الدفاع عن نفسي، فهي التي هاجمتني بأظافرها ونتفت شاربي.. وأظن أن لكل إنسان حق الدفاع عن نفسه.. ثم إني لم أقبل معاملتي بالعنف من جهة المبدأ؛ لأن في ذلك نوعًا من الاستبداد، فهل أبقى بلا حراك أمامها؟ لم أفعل غير دفعها!».

واستمر لوجين يضحك في خبث: «ها! ها! ها!».

- إنك تستمر في سخريتك لأنك غاضب!... ولكن ما تقوله كلام تافه لا علاقة له بمشكلة المرأة! إنك أخطأت الفهم! فقد قلت لنفسي: حيث إن المرأة اعتبرت مساوية للرجل في جميع الأمور حتى في القوة (كما يقول البعض الآن) فيجب أن يمتد هذا المبدأ إلى هذه الحالة.. ومن المفهوم أنني فكرت في هذا الموضوع فيما بعد، وتبين لي أن هذه المسألة يجب ألا تثار لأن المشاحنات يجب ألا تحدث، وستكون مستحيلة في الهيئة الاجتماعية المستقبلة... وأخيرًا من السخافة أن تبحث عن المساواة في المشاحنة! ولست سخيفًا إلى هذا الحد... على أن المشاحنات لا تزال قائمة الآن... وسوف لا تكون هناك مشاحنات في المستقبل، ولكنها موجودة الآن... فلعنة الله عليها! ما أكثر ما يفقد المرء توازنه معك!... إني لا أذهب

لطعامهم لهذا السبب، بل إنني ممتنع عن الذهاب من حيث المبدأ! إذ لا أحب الاشتراك في تلك العادة البغيضة، ألا وهي طعام الذكرى! هذا هو السبب.. ومع ذلك يمكن الذهاب، لا لغرض إلا السخرية منها! ومما يؤسف له أنه لا يوجد هناك قسس، وإلا لذهبت أكيدًا!

- أي أنك تقبل الجلوس على مائدة رجل لتهين المائدة والذين دعوك إليها.. أليس كذلك؟

- لا! لا أهين بل أحتج! أفعل ذلك لغرض نافع.. فإني عندئذ أساهم في قضية التقدم والدعوة لها. ومن واجب كل رجل أن يخدم هذه القضية، وأخشن الطرق ربما كانت أحسنها.. إني أستطيع أن أبث فكرة بأن ألقي بذورها، ومن هذه البذور تنشأ الحوادث. كيف أهينهم؟ إنهم يتضايقون في مبدأ الأمر، ثم يرون فيما بعد أني خدمتهم. فقد تعلم مثلًا أن «تريبيفا»- وهي الآن ضمن الجماعة الشيوعية- وجه إليها اللوم لأنها كتبت إلى أبيها وأمها، حين هجرت أسرتها وكرست للجماعة نفسها، تنبئهما بأنها لا تريد العيش بين العقائد السخيفة، وأنها تزوجت زواجًا حرًا. وقال اللائمون إن هذا العمل منها ينطوي على خشونة أكثر مما يجب، وكان يجب أن تتجنب إيلامهما وتكتب إليهما في لطف أكثر من ذلك! وعندي أن هذا رأي فاسد، وأنه لا داعي للطف بل يجب الاحتجاج. انظر مثلًا إلى «فارنتز» التي عاشت مع زوجها سبع سنوات ثم هجرت طفليها وكتبت إلى زوجها في صراحة: «لقد تحقق لديّ أني لن أكون سعيدة معك! ولن أصفح عنك أبدًا إذ خدعتني فأخفيت عني أنه يوجد نظام آخر من النظم الاجتماعية هو حياة الوحدة الشيوعية.. لقد علمت ذلك من رجل كريم، فوهبته نفسي وأنشأت

معه وحدة! أقول لك ذلك صراحة إذ أعتبر نفسي خائنة إذ خدعتك.. فلتتصرف في الأمر كما تحب، ولكن لا تمن النفس بعودتي فإنك تأخرت كثيرًا، وأرجو أن تكون سعيدًا».. هذا ما يجب أن يكتب في هذه الرسالة!

- إن تريبيفا التي تتكلم عنها هي التي قلت عنها إنها في زواجها الحر الثالث؟

- الحق أقول إنها في زواجها الثاني... وماذا يتغير لو كانت في زواجها الرابع أو الخامس عشر؟ وإذا كنت قد أسفت على وفاة والديّ فكثيرًا ما فكرت في الاحتجاج الشديد الذي كنت أوجهه لهما لو أنهما كانا على قيد الحياة! فإني كنت أعمد إلى عمل شديد... وكنت أريهما! وكنت أدهشهما! مما يؤسف له حقًا أن ليس لي أحد...

قاطعه بيوتر بتروڤتش قائلًا: «ليس لديك أحد تدهشه.. ها! ها! حسنًا.. فليكن كما تريد.. ولكن قل لي إذن.. هل تعرف ابنة الرجل المتوفى؟ تلك الصبية الرقيقة النحيلة القوام؟ هل ما يقال عنها حقيقي؟».

- وماذا في ذلك؟ أظن ذلك!.. بل في عقيدتي الشخصية أن هذا هو المركز الطبيعي للمرأة.. لم لا؟ يجب أن تميز بين الأمور! ففي الهيئة الاجتماعية الحاضرة من الواضح أن هذا المركز غير طبيعي تمامًا لأنه إجباري، ولكن في الهيئة الاجتماعية المقبلة سيكون الأمر طبيعيًا لأنه اختياري.. وحتى الآن أجدها على صواب، فقد كانت تعسة، وما «وهبته» كان ملكها المدخر ورأس مالها، ولها حق التصرف فيه كما تشاء.. ومن المفهوم أن الهيئة الاجتماعية في المستقبل سوف لا تحتاج للمال المدخر، وسيكون لدور المرأة معنى آخر معقول يتلاءم مع بيئتها... أما صوفيا

سيميونوفنا شخصيًا فإني أعتبر عملها احتجاجًا قويًا على نظام الهيئة الاجتماعية، وإني لأحترمها من أعماق نفسي لأجل هذا، بل إني أسرّ عند رؤيتها!

– ومع ذلك قيل لي إنك عملت على طردها من هذا المسكن!

فاستشاط ليزياتنكوف غضبًا وصاح: «أكذوبة أخرى! فإن الأمر لم يكن على هذا الوجه.. هذا من اختراعات كاترينا إيفانوفنا، وهي التي لم تفهم شيئًا! فإني لم أحاول مطلقًا أن أتعشق صوفيا سيميونوفنا! بل إني عملت دون غاية لأقوي فيها روح الاحتجاج... هذا كل ما أردته، ومع ذلك فإن صوفيا سيميونوفنا لا يمكنها الإقامة هنا على كل حال..».

– هل اقترحت عليها أن تنضم إلى وحدتك الشيوعية؟

– إنك مصر على الضحك، واسمح لي أن أقول في غير مواربة إنك لا تفهم! فليس لهذا الدور وجود في الوحدة الشيوعية، بل إن نظام الشيوعية يقضي عليه، وهو يتحول فيها إلى معنى آخر. وما يبدو سخيفًا هنا يكون معقولًا هناك. وما هو غير طبيعي في الظروف الحاضرة يكون طبيعيًا في الوحدة الشيوعية. كل ذلك يتوقف على البيئة، فالجماعة هي كل شيء، والإنسان لا شيء. وأكبر برهان على أني لم أمس صوفيا سيميونوفنا بسوء أني على خير علاقة معها إلى اليوم، وأعمل في الوقت الحاضر على جذبها إلى الوحدة الشيوعية، ولكن على أساس مختلف تمامًا! لماذا تضحك؟ إننا نسعى لإنشاء وحدة شيوعية خاصة بنا على أسس أوسع، فقد تقدمنا في معتقداتنا! وتوسعنا في إنكار أشياء كثيرة، ولو خرج روبروليونوف من قبره لجادلته في آرائه، أما بلفسكي فإني كنت أحطمه.. وإلى أن يتم هذا

سأستمر في العمل على تثقيف صوفيا سيميونوڤنا! إنها ذات طبيعة عظيمة وجميلة جدًا..

– وأنت تريد الاستفادة من هذه الطبيعة الجميلة جدًا! أليس كذلك! ها! ها.

– لا! لا! لا! على العكس!

– إنك تقول على العكس؟ ها! ها! هذا أمر غريب!

– يمكنك أن تصدقني! لماذا لا أخفي ذلك لو أردت؟ والواقع أني مندهش لما تظهره أمامي من حياء وخفر وطهر..

– من المفهوم أنك تعمل على تثقيفها... ها! ها! فتوضح لها أن هذا الحياء، أمر لا معنى له!

– أبدًا! أبدًا! أي معنى خشن بل سخيف– معذرة!– تعزوه إلى كلمة تثقيف! إنك لا تفهم من الأمر شيئًا.. رباه! إلى أي حد أنت لا تزال غير مستعد.. إننا نعمل لحرية المرأة، وأنت لا يتسلط على عقلك غير فكرة واحدة.. فإذا أطرحنا جانبًا فكرة العفاف والحياء في المرأة– وهما صفتان لا فائدة منهما ومجرد تقليد مصطلح عليه– فإني أقبل تمامًا محافظتها على نفسها؛ لأنها مسألة من حقها أن تفصل فيها، فإذا أخبرتني أنها تريدني لاعتبرت نفسي سعيدًا جدًا لأن هذه الفتاة تعجبني كثيرًا.. ولكن في الوقت الحاضر لا أعرف أحدًا يعاملها بأدب ومجاملة وباحترام لكرامتها أكثر مني... إني أنتظر وأؤجل، هذا كل شيء!

– خير وسيلة أن تهدي إليها شيئًا.. أراهن أنك لم تفكر في ذلك!

– قلت لك إنك لا تفهم هذا! إنها بلا شك في مركز خاص، ولكن هذه مسألة أخرى! مسألة أخرى تمامًا! إنك تحتقرها ببساطة.. إنك أمام أمر تعتبره جديرًا بالاحتقار، ومن باب الخطأ.. ولذلك ترفض أن تنظر إلى مخلوق بشري مثلك نظرة إنسانية! إنك لا تعرف ما انطوت عليه نفسها من مزايا، وكل ما آسف له الآن هو أنها انقطعت في هذه الأيام عن القراءة، ولم تعد تستعير مني كتبًا كما كانت تفعل في الماضي. ومما يؤسف له أيضًا أنه بالرغم من نشاطها ورغبتها في الاحتجاج، وهو ما برهنت عليه مرة، فإنها قليلة الاعتماد على نفسها، ولنقل ليس لها من الاستقلال ما يدفعها نهائيا إلى نبذ بعض الآراء العتيقة والسخافات، ومع ذلك فهي تفهم تمامًا مسائل عدة، فمثلًا لقد فهمت تمامًا مسألة تقبيل اليد! فإن تقبيل الرجل ليد المرأة فيه إهانة لها؛ لأنه علامة عدم المساواة بين الجنسين. وقد تناقشنا في هذه المسألة، وشرحت لها هذا الرأي، وأصغت باهتمام إلى وصف نقابات العمال بفرنسا، وإني في الوقت الحاضر أفسر لها مسألة حرية الدخول إلى غرفة الهيئة الاجتماعية المستقبلة..

– أرجو أن تزيدني بيانًا عن هذا المسألة!

– لقد تجادلنا أخيرًا لنعلم هل لأحد أعضاء الوحدة الشيوعية الحق في أن يدخل غرفة عضو آخر سواء أكان رجلًا أم امرأة في أي وقت يشاء.. فوصلنا إلى تأييد هذا الرأي!

– قد تكون اللحظة غير مناسبة، إذ يقضي صاحبها حاجة طبيعية! ها! ها!

غضب أندريه سميونوفتش غضبًا شديدًا وصاح في صوت مليء

بالكراهية:

– إنك تفكر دائمًا في الأمور الكريهة (ثم بصق) لقد ارتكبت خطأً جسيمًا إذ أشرت وأنا أشرح لك نظامنا إلى مسألة المحافظة على الحرية الشخصية الداخلية قبل الأوان، فهي الحجر الذي يتعثر فيه أمثالك الذين يسخرون من هذه المسألة قبل أن يفهموها تمامًا! وهم يفخرون بخطئهم (يبصق).. حقًا لقد كنت أرى دائمًا أنه لا يجب تفسير هذه الأمور والخوض فيها أمام المبتدئين إلى أن يثبت فيهم الإيمان الراسخ بالنظام! وإني لأرجوك أن تخبرني لماذا تخجل حتى من مستودع المياه القذرة! إني لأول من يرغب في العمل على تنظيفه! وليس هذا من باب التضحية بل هو مجرد عمل شريف ونافع للهيئة الاجتماعية؛ وهو لا يقل عن أي عمل آخر، بل هو خير مما عمله أمثال رافائيل أو بوشكين لأنه أكثر نفعًا..

– إنه أشرف وأشرف! ها! ها!

– ما معنى أشرف؟ إني لا أفهم هذا التعبير في وصف النشاط الإنساني، فالقول بأن هذا أشرف أو أنبل يقوم على عقائد قديمة لا أقرها! إن كل ما هو نافع للإنسانية شريف! وإني لا أفهم غير كلمة واحدة: نافع! لك أن تهزأ كما تريد»، ولكن هذا هو الواقع!

وضحك پيوتر بتروڤتش من قلبه، وكان قد انتهى من عد النقود وجمعها، ولكن ظلت بضع أوراق من العملة على المنضدة، فإن مسألة مستودعات المياه القذرة كانت موضوع خلاف بينهما.. وأغرب ما في الأمر أن أندريه سميونوڤتش غضب من المناقشة، أما لوجين فكان يتسلى بها، وفي تلك اللحظة كان يشعر برغبة قوية في إغضاب صديقه..

وجهر ليزياتنكوف بالقول: «إن ما وقع لك بالأمس من سوء الحظ هو الذي جعلك هكذا متضايقًا وحاقدًا..».

وكان ليزياتنكوف، بالرغم من استقلاله واحتجاجاته، لا يجرؤ على معارضة پيوتر بتروڤتش، وكان لا يزال يعامله بشيء من الاحترام الذي اعتاده في سنيه الماضية..

فقاطعه پيوتر بتروڤتش في استياء وكبرياء: «من الخير أن تخبرني.. هل أنت على صلة ود بالفتاة تسمح لك أن تدعوها للحضور هنا لحظة؟ فإني أعتقد أنهم عادوا جميعًا من المقبرة، إذ أسمع وقع أقدام.. وإني أرغب في رؤية هذه الفتاة..».

وسأله ليزياتنكوف مندهشًا: «لماذا؟».

- إني راغب في ذلك، فسأرحل من هنا اليوم أو غدًا. وأردت أن أحدثها في أمر... وعلى كل يمكنك أن تحضر هذه المقابلة، بل من الخير أن تكون حاضرًا وإلا ذهبت بك الظنون!

- إني لا أظن شيئًا، فقد سألت لمجرد السؤال. وإذا كانت لك مسألة معها فليس من أسهل من استدعائها. سأذهب في الحال، وكن واثقًا من أني لا أكون في طريقكما..

وعاد ليزياتنكوف فعلًا بعد خمس دقائق تصحبه سونيا، ودخلت وهي شديدة الدهشة وقد غلبها الخجل كعادتها، وكانت دائمًا خجولًا في مثل هذه الظروف وتخشى الذين لا تعرفهم. هذا شأنها منذ هي طفلة وربما زاد فيها الخجل الآن... وقابلها پيوتر بتروڤتش في تأدب ورقة مع شيء من

الألفة الساخرة، مما يراه مناسبًا لرجل في مثل مركزه المحترم ووزنه وهو يعامل مخلوقًا صغيرًا وظريفًا مثلها، فأخذ يطمئنها وطلب منها الجلوس أمام المنضدة في مواجهته، وجلست سونيا ونظرت إلى ليزياتنكوف وإلى الأوراق المالية الملقاة على المنضدة ثم إلى بيوتر بتروڤتش وظلت عيناها ثابتتين عليه. وكان ليزياتنكوف قد تحرك نحو الباب، وأشار بيوتر بتروڤتش إلى سونيا بأن تظل جالسة، وأوقف ليزياتنكوف وسأله في همس: «هل جاءهم رسكولنكوف؟ هل هو هناك؟».

- رسكولنكوف؟ نعم! لماذا؟ نعم هو هناك.. رأيته داخلًا في هذه اللحظة... لماذا؟

- حسنًا.. إني أرجوك في إلحاح أن تبقى هنا معنا ولا تتركني على انفراد مع تلك... السيدة الصغيرة. فإني لا أريد أن أحدثها إلا ببضع كلمات، ولكن الله يعلم كيف تؤول، ولا أحب أن يكرر رسكولنكوف شيئًا عني... هل تفهم ما أعني؟

قال ليزياتنكوف منتبهًا: «إني أفهم! إنك على صواب!... إني أعتقد شخصيًا ألا حاجة للقلق، ولكنك على صواب... وسأبقى... وأجلس بجوار النافذة فلا أضايقكما... أظنك على صواب».

عاد بيوتر بتروڤتش إلى المقعد الكبير وجلس في مواجهة سونيا، ونظر إليها في اهتمام ثم اتخذ فجأة سمة وقار يكاد يكون أقرب إلى العبوس وكأنه يريد أن يقول: «وأنت أيتها السيدة لا تظني بي الظنون..».

وغلب على سونيا الارتباك.. وابتدأ بيوتر بتروڤتش الحديث في

وقار كبير لا يخلو من الرقة: «أرجوك أولًا يا صوفيا سيميونوفنا أن تتقبلي اعتذاري لأمك المحترمة... أظن أني لم أخطئ إذ اعتبرت كاترينا إيفانوفنا بمثابة الأم لك..».

وكان من الظاهر أن نياته ودية نحوها، فأسرعت سونيا إلى الإجابة في خجل وبسرعة: «هذا حق! إنها في الواقع بمثابة الأم!».

- إذن أرجو تبليغها اعتذاري، فسأضطر لأسباب لا يمكن تجنبها أن أتغيب عن طعام الجنازة... بالرغم من دعوتها الكريمة..

- حسنًا... سأبلغها هذا في الحال!

ونهضت سونيا من مقعدها في الحال.. على أن بيوتر بتروفتش أوقفها وقال وهو يبتسم لبساطتها وجهلها بآداب السلوك..

- انتظري.. ليس هذا كل شيء. إنك تعرفينني قليلًا يا عزيزتي صوفيا سيميونوفنا.. أو كنت تظنين أني لسبب تافه لا يمس غيري أسمح لنفسي بأن أشغل شخصًا مثلك بأن لي غرضًا آخر؟..

وعادت سونيا للجلوس، ووقع نظرها على تلك الأوراق المالية الملونة بألوان رمادية وألوان قوس المطر التي ظلت على المائدة، ثم حولت نظرتها وثبتت عينيها على بيوتر بتروفتش. وقد شعرت بأنه من غير اللائق مطلقًا- لا سيما لمثلها..- أن تتأمل في نقود شخص آخر، ونظرت إلى المنظار الذهبي الذي يمسك به بيوتر بتروفتش في يده اليسرى، ثم إلى الخاتم الكبير الجميل جدًا المرصع بحجر كريم أصفر الذي يضعه في بنصره، ثم حولت عينيها ولم تدر أين تتجه بهما.. فعادت تحدق في وجه

لوجين. وبعد صمت كبير، أراد أن يظهر فيه وقارًا أكبر، تابع هذا حديثه:

- كانت أمامي الفرصة أمس لكي أبادل كاترينا إيفانوڤنا المسكينة بضع كلمات، وقد كانت هذه الكلمات كافية لأن أتبين أنها في حالة غير عادية، إذا كان يصح هذا التعبير..

فأسرعت سونيا إلى موافقته قائلة: «نعم... غير عادية».

- أو لنتكلم في بساطة ووضوح فنقول إنها في حالة مرضية..

- نعم، في بساطة ووضوح.. إنها مريضة!

- هذا حق، ولذلك تحركت لديّ عاطفة الإنسانية- أو بعبارة أخرى عاطفة الشفقة- وإني أود أن أكون ذا نفع لها، إذ أتوقع ما سيكون عليه مركزها من سوء... أظن أن هذه الأسرة التعسة تعتمد عليك كلية منذ الآن؟

قالت سونيا وقد وقفت فجأة: «اسمح لي بأن أسأل: هل ذكرت لها أمس شيئًا عن احتمال حصولها على معاش؟... فلقد أخبرتني بأنك توليت أمر السعي في الحصول لها على معاش.. هل هذا صحيح؟».

- ليس هذا صحيحًا، بل هو سخافة! إني أشرت إشارة عابرة إلى احتمال الحصول على إعانة مؤقتة- وهي أرملة موظف مات في الخدمة- إذا وجدت من يرعاها.. ولكن يظهر أن والدك لم يعمل في الحكومة وقتًا كافيًا ليكون له مثل هذا الحق، وأنه لم يكن يقوم بعمله أخيرًا. وفي الواقع إذا كان هناك أمل في شيء من ذلك فهو أمل ضعيف جدًا، إذ لا يستند على أي حق؛ بل على العكس من ذلك... فهل أخذت تحلم في الحال بالحصول على مرتب للمعاش؟ ها! ها! ها! إنها لسيدة مندفعة!

- نعم.. إنها تحلم بذلك لأنها سهلة التصديق طيبة القلب، وهي تصدق كل شيء لطيبة قلبها... وهذه خصالها. نعم، يجب أن نعذرها..

قالت سونيا ذلك ونهضت للانصراف، فقال لها: «ولكنك لم تستمعي ما أريد قوله!».

فغمغمت سونيا: «لا، لم أستمع!».

- اجلسي إذن!

فجلست سونيا للمرة الثالثة وهي شديدة الارتباك..

- حين رأيت مركزها مع أطفالها المساكين شعرت أني أكون سعيدًا كما قلت من قبل لو أديت لها خدمة في حدود مقدرتي، وهي ليست كبيرة.. فقد نستطيع مثلًا أن نجمع لها اكتتابات، أو نوزع أوراقًا تربح بالقرعة، أو ما شاكل ذلك من الأمور التي يرتبها الأصدقاء والأجانب الذين يرغبون في مساعدة الناس. هذا ما أردت الحديث بشأنه، وهو شيء من الممكن تحقيقه!

فغمغمت سونيا وهي تحدق في پيوتر بتروڤتش بنظرها: «هذا حسن! ليجزك الله عليه!».

- نعم، هذا ممكن وسنتحدث عنه فيما بعد... وقد نبدأ فيه اليوم، ولنبحث فيه هذا المساء ونضع الأساس، إذا صح هذا التعبير.. ويمكنك أن تمري عليّ في الساعة السابعة، وأرجو أن يساعدنا السيد ليزياتنكوف في ذلك. ولكن... هناك أمر يجب أن أنبهك إليه مبدئيًا، وهو السبب في أني سمحت لنفسي بأن أدعوك إلى هنا. ففي رأيي أنه ليس من الحكمة تسليم

نقود لكاترينا إيفانوڤنا، وإن الطعام الذي أعدته اليوم لدليل على ذلك، فهي- بأصرح تعبير- ليس لديها كسرة خبز للغد.. لا أحذية ولا شيء.. ومع ذلك تشتري خمر الروم الوارد من جامايكا، وإذا لم أكن مخطئًا تشتري نبيذ ماديرا وقهوة اليمن.. لقد رأيت ذلك في مروري. ومن الغد يعودون عبئًا عليك إذ ليس لديهم كسرة خبز، وهذا أمر سخيف.. فمن رأيي إذن أن تعمل الاكتتابات بحيث لا تعلم عنها الأرملة المسكينة شيئًا، ولا يعلم من أمرها غيرك مثلًا.. هل أنا على صواب؟

- لا أعرف تمامًا.. إنها تفعل ذلك اليوم فقط.. مرة في حياتها وكانت حريصة جدًا على تكرم ذكرى الفقيد.. ولكنها ذكية جدًا. على كل حال كما تود، وسأكون لك شاكرة جدًا.. نحن جميعًا.. وليجزك الله لعطفك على اليتامى!

ولم تتم سونيا حديثها بل اندفعت في البكاء.

- حسنًا.. فكري في ذلك.. والآن هل تقبلين نيابة عن قريبتك هذا المبلغ الصغير الذي أستطيع الاستغناء عنه شخصيًا؟... وإني لأطلب في إلحاح ألا يذكر اسمي بمناسبته... إليك المبلغ، وإن لديَّ بعض المصاعب، ولذلك لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك!..

ومد پيوتر بتروڤتش يده بورقة ذات عشرة روبل غير مطوية في عناية، وأخذتها سونيا وقد احمر وجهها احمرارًا شديدًا، وهبت واقفة وتمتمت بضع كلمات واستأذنت في الخروج، فصحبها پيوتر بتروڤتش حتى الباب في احتفال، وغادرت الغرفة أخيرًا في حيرة واضطراب، وعادت إلى كاترينا إيفانوڤنا وقد استولى عليها الارتباك الشديد..

كان أندريه سميونوفتش طوال مدة هذا المنظر لا يريد أن يقطع المحادثة، فيقف أحيانًا عند النافذة وأحيانًا يسير في الغرفة ذهابًا وجيئة وبعد خروج سونيا قصد إلى بيوتر بتروفتش ومد إليه يده مصافحًا إياه في احترام..

- لقد سمعت كل شيء ورأيت كل شيء! إن هذا لشريف.. بل أريد أن أقول هذا إنساني.. إنك أردت أن تتخلص من الشكر! لقد رأيت ذلك! ولو أني أعترف بأني من حيث المبدأ لا أوافق على الإحسان الخاص؛ لأنه لا يمكن أن يقضي على هذا الشر، بل يساعد على المضي فيه! ولكن يجب مع ذلك أن أعترف بأن عملك سبب لي سرورًا! نعم.. نعم.. إنه يعجبني!

فغمغم بيوتر بتروفتش وهو قلق بعض الشيء، وكان يفحص ليزياتنكوف بنظره: «هذا لا معنى له!».

- لا! إن له معنى! فإن الرجل الذي تحدث له مضايقات ومتاعب، كما حدث لك بالأمس، ومع ذلك يفكر في تعاسة الآخرين.. هذا الرجل- بالرغم من أنه يرتكب خطأ اجتماعيًا- جدير بالاحترام! لم أكن أنتظر هذا منك يا بيوتر بتروفتش.. فإلى أي حد مثلًا تضايقت أنت لما حدث لك أمس سوء الحظ!

وصاح أندريه سميونوفتش في بساطة وقد شعر فجأة بعودة حبه لبيوتر بتروفتش: «ما حاجتك إلى الزواج الشرعي، يا صديقي بيوتر بتروفتش العزيز الشريف؟ لماذا تبحث عن الشريعة في الزواج؟ لك أن تضربني لذلك- ولكني أقر أني سعيد حقًا لفشل هذا الزواج! وأنك الآن حر! ولم تخسرك الإنسانية... إنك ترى أني أصرح برأيي».

ورد لوجين، لمجرد الرد: «إني لا أريد زواجك الحر لكي لا أكون مغفلًا وأربي أطفال رجل آخر.. هذا هو سبب رغبتي في الزواج الشرعي..».

وكان يبدو عليه الانشغال بأمر: «فاستأنف أندريه سميونوڤتش الحديث كالجواد الذي سمع نداء البوق للقتال: «الأطفال! تشير لمسألة الأطفال؟ أوفاقك على أنها مسألة اجتماعية وفي الدرجة الأولى من الأهمية، على أن لها حلًا آخر.. إذ يرفض البعض فكرة الأطفال لأنها تؤيد فكرة الأسرة.. ولكن لنتكلم عن مسألة الأطفال فيما بعد. أما مسألة الشرف فهي نقطة الضعف عندي، فإن هذا التعبير العسكري الفظيع من تعبيرات بوشكين ليس له مكان في قاموس المستقبل! فما معنى هذا؟ ليس له معنى مطلقًا! فالزواج الحر ليس فيه خداع! إنما يكون الخداع في الزواج الشرعي، أي هو العقوبة له والاحتجاج عليه... ولذلك لا أجد فيه تحقيرًا... وإذا فرض المستحيل وتزوجت زواجًا شرعيًا فإني أكون راضيًا عنه كل الرضا، إذ أقول لزوجتي: «لقد كنت يا عزيزتي حتى الآن أحبك، ولكني الآن أحترمك لأنك عرفت كيف تحتجين.. هل تضحك؟ ذلك لأنك غير قادر على التخلص من الأوضاع القديمة! ولعنة الله على هذه المسألة! وإني أفهم الآن وجه التضايق من الخداع في الزواج الشرعي، ولكنه ببساطة نتيجة كريهة لموقف كريه فيه تحقير للطرفين. ولكن إذا كان الخداع مكشوفًا- كما هو الشأن في الزواج الحر- فلا يكون له وجود، ولا يمكن التفكير فيه. فإن زوجتك ستبرهن فقط إلى أي حد تحترمك، إذ هي تعرف أنك غير قادر على معارضة سعادتها والانتقام منها لزواجها الجديد.. لعنة الله على كل هذا! إني أتصور أحيانًا أني تزوجت! لو تزوجت زواجًا شرعيًا

أو غير شرعي فإني في الحالين أهدي لزوجتي عشيقًا- إذا لم تجد لنفسها عشيقًا- وأقول لها: «عزيزتي! إني أحبك، ولكني أرغب أكثر من ذلك في أن تحترميني!». انظر.. ألست على صواب؟».

وضحك پيوتر بتروڤتش، ولكن من غير أن يشعر بسرور كبير، إذ لم يكد يسمع الحديث، فقد كان مشغولًا بأمر آخر، حتى أن ليزياتنكوف لاحظ ذلك أخيرًا. وكان يبدو على پيوتر بتروڤتش القلق وهو يفرك يديه، وقد تذكر ليزياتنكوف كل ذلك فيما بعد وعلق عليه.

***

(٢)

من الصعب علينا أن نفسر كيف نشأت فكرة هذا العشاء الذي لا معنى له في عقل كاترينا إيفانوڤنا المريض، فقد أنفقت عليه ما يقرب من عشرة روبل من العشرين التي أعطاها إياها رسكولنكوف لجنازة مارملادوف. ربما شعرت كاترينا إيفانوڤنا أنها مضطرة لتكريم ذكرى الفقيد تكريمًا «لائقًا» حتى يعرف جميع السكان- ولا سيما أماليا إيفانوڤنا- أنه لم يكن مطلقًا أقل منهم شأنًا، بل ربما كان أرفع منهم كثيرًا، ولأنه ليس لأحد الحق في أن يشمخ عليها بأنفه، وربما كان العنصر الأساسي في الموضوع تلك الكبرياء الخاصة بالفقراء التي تدفع الكثيرين منهم إلى أن ينفقوا كل ما ادخروه على حفلة تقليدية اجتماعية لمجرد أن يفعلوا ما يفعله غيرهم من الناس ولا يكونوا عرضة للاحتقار. ومن الراجح جدًا أن كاترينا إيفانوڤنا رغبت أيضًا في هذا الظرف، وفي هذا الوقت الذي تبدو فيه كأنها مهجورة

من الناس جميعًا، أن تظهر لهؤلاء السكان الفقراء التعساء أنها تعرف كيف تدبر الأمور، وكيف تدعو الناس، وأنها نشأت في بيت كريم لأسرة ضابط عظيم يكاد يكون من طبقة الأرستقراطية، وأنه لم يكن يراد بها أن تكنس البلاط وتغسل أسمال الأطفال في الليل إن.. أفقر الناس وأذلهم يكونون أحيانًا عرضة لمثل هذه الكبرياء والتظاهر الذي يتخذ شكل رغبة عصبية لا تقاوم، ولم تكن كاترينا إيفانوڤنا من الذليلات. لقد قتلتها الظروف ولكن روحها لم تنهزم، أي إنها لا يمكن إخافتها أو تحطيم إرادتها. وفضلًا عن ذلك لقد صدقت سونيا حين قالت إن عقلها قد تخلخل ولكن لا يكمن أن يقال إنها مجنونة، ولقد طاردها الشقاء في السنة الأخيرة حتى تأثر عقلها وتعب. ويخبرنا الأطباء كذلك أن مرض السل من شأنه أن يؤثر في العقل في أطواره الأخيرة.

لم تكن المأدبة متميزة بتنوع النبيذ، ولم يكن فيها منه إلا مقادير قليلة، وكان فيها خمر الڤودكا والروم ونبيذ لشبونة، وكلها خمور من أحط الأنواع، ولكن في كميات كبيرة. وإلى جانب الأرز والعسل التقليدي قدمت ثلاثة أو أربعة ألوان من الطعام، منها نوع من الفطائر السكرية، وقد طهيت كلها في مطبخ أماليا إيفانوڤنا. وهناك إناءان كبيران بموقديهما يغلي فيهما الماء ليقدم الشاي الممزوج بالروم بعد الطعام، وقامت كاترينا إيفانوڤنا نفسها بشراء المعدات يساعدها أحد السكان، وهو رجل بولندي ضئيل تعس، حل بطريقة ما في دار السيدة، ووضع نفسه في الحال تحت تصرف كاترينا إيفانوڤنا. وكان في هذا الصباح كله وفي اليوم السابق بأكمله، يجري هنا وهناك بأسرع ما تحمله قدماه، وكأنه يهمه أن يشعر كل إنسان بما يفعله.

فكان يجري نحو كاترينا إيفانوڤنا في كل تافه من الأمور، بل يبحث عنها حتى في الأسواق، وهو في كل لحظة يناديها: سيدتي الرئيسة!.. وملت كاترينا إيفانوڤنا هذا الإلحاح منه حتى قبل نهاية الاحتفال، ولو أنها في مبدأ الأمر كانت تعلن أنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئًا دون مساعدة ذلك «الرجل المعين الكريم». ومن صفات كاترينا إيفانوڤنا أنها تصور كل ما تقابله في أكثر الألوان بريقًا، وكان مديحها مبالغًا فيه، حتى أنها في بعض الأحيان تحدث ارتباكًا للممدوح، فهي تخترع ظروفًا تبعث على الثناء على الشخص الذي عرفته من جديد، وتعتقد في صدق ما اخترعته.. ولكن على حين فجأة تتبدد أوهامها في الشخص وتلفظه في خشونة واحتقار، بعد أن كانت تعبده فعلًا منذ ساعات! وهي بطبيعتها مرحة ضاحكة تحب السلام، ولكن لكثرة ما حل بها من إخفاق وكوارث أصبحت تتلهف على أن يعيش الناس في سلام وسرور، وألا يجرؤوا على تعكير هذا السلام. وصارت أقل مضايقة وأخف كارثة تدفع بها إلى الجنون تقريبًا، وتنتقل في لحظة من أكثر الآمال والأحلام بريقًا، فإذا هي تندب حظها وتلعن وتضرب برأسها الحائط.

ولقد زادت فجأة أهمية أماليا إيفانوڤنا أيضًا في عيني كاترينا إيفانوڤنا، فأخذت تعاملها باحترام غريب، والأرجح أن ذلك فقط لاهتمام أماليا إيفانوڤنا قلبًا وقالبًا بالاستعداد للطعام. فقد تولت إعداد المائدة وتقديم الأغطية والأطباق وغيرها، ثم طهي ألوان الطعام في مطبخها، وتركت كاترينا إيفانوڤنا كل هذه الأمور في يديها وذهبت إلى المقبرة. وكان كل شيء منظمًا خير تنظيم، حتى غطاء الماء يكاد يكون نظيفًا. وإذا كانت

الصحاف والملاعق والسكاكين والشوكات والكوبات متنوعة- إذ استعيرت من السكان المختلفين- فإن المائدة كانت معدة في وقتها، وشعرت أماليا إيفانوڤنا أنها قامت بعملها خير قيام، فارتدت ثوبًا من الحرير الأسود ووضعت على رأسها قبعة ربطتها بشرائط تدل على الحداد، وقابلت العائدين من الجنازة في شيء من الزهو. ولم تشعر كاترينا إيفانوڤنا بالارتياح لهذا الزهو، وإن كان له ما يبرره، وكأن المائدة لا تعد إذا لم تعدها أماليا إيفانوڤنا. وكرهت منها هذه القبعة ذات الشرائط الجديدة وقالت: «إن هذه الألمانية الغبية تتباهى لأنها صاحبة الدار وأنها تفضلت بمساعدة أحد سكان دارها المساكين! تصوروا أنها تعد هذا فضلًا! لقد كان والد كاترينا إيفانوڤنا ضابطًا عظيمًا يكاد يكون حاكمًا، وتعد مائدته أحيانًا لأربعين شخصًا! وحينئذ لا يسمح لمثل أماليا إيفانوڤنا- أو على الأصح لودفيجوڤنا- بأن تدخل المطبخ..».

على أن كاترينا إيفانوڤنا كتمت مشاعرها عندئذ واكتفت بأن تقابلها بجفاء، ولو أنها قررت في أعماق نفسها أن لا بد من وضع أماليا إيفانوڤنا في المكان اللائق بها، إذ لا يعلم إلا الله ماذا تظنه هذه المرأة في نفسها. ومما ضايق كاترينا إيفانوڤنا أيضًا أنه لم يذهب لتشييع الجنازة أحد من السكان الذين دعوا لهذا الطعام إلا الرجل البولندي الذي لحق بالجنازة في المقبرة.. بينما أسرع إلى المأدبة التذكارية أحقر السكان وأفقرهم، وجاء بعض هؤلاء بعد أن احتسوا الخمر.. أما البارزون بين السكان فتخلفوا وكأنهم على اتفاق، فبيوتر بتروڤتش لوجين مثلًا- وقد يعتبر أكبر السكان مقامًا- لم يظهر، مع أن كاترينا إيفانوڤنا قالت في المساء السابق للملأ-

أي لأماليا إيفانوڤنا وپولنكا وسونيا والبولندي- إنه أكرم الرجال وأنبلهم، وأن له اتصالات كبيرة وثروة ضخمة، وهو صديق لزوجها الأول، وإنه أحد الضيوف الذين زاروا منزل أبيها وقد وعد بأن يبذل كل نفوذه ليحصل لها على معاش كبير. وليلاحظ بهذه المناسبة أن كاترينا إيفانوڤنا حين تفخر بثروة أحد الناس واتصالاته إنما تفعل ذلك بغير غرض إلا الثناء عليه والرفع من شأنه، والراجح أن ليزياتنكوف الوغد الحقير أراد أن يحذو حذو لوجين فلم يحضر أيضًا، فماذا يظن في نفسه؟ إنه لم يدع إلا لمجرد العطف عليه ولأنه يسكن الغرفة التي يقيم فيها پيوتر بتروڤتش وهو من أصدقائه، وكان من غير اللائق ألا يدعى..

ولم تحضر أيضًا سيدة من أصل كريم وابنة لها عانس، كانتا قد سكنتا في الدار منذ أسبوعين ولكنهما جأرتا بالشكوى لصاحبة الدار عدة مرات من الضجة والصراع في غرفة كاترينا إيفانوڤنا لا سيما عند عودة مرملادوف وهو سكران: ومن الطبيعي أن تسرع أماليا إيفانوڤنا في إبلاغ كاترينا إيفانوڤنا هذه الشكوى وتهددها أثناء عراكهما بطردها وأسرتها من البيت، وهي تصيح بأعلى صوتها معلنة أنها تعكر هدوء سكان محترمين «لا يمكن أن تصل إلى موطئ أقدامهم».. وقد حرصت كاترينا إيفانوڤنا على دعوة هذه السيدة التي لا تصل إلى موطئ أقدامها هي وابنتها- مع أنهما كانتا تحولان نظرهما عنها في كبرياء إذا ما قابلتاها- حتى تبرهن لهما أنها أنبل منهما في أفكارها ومشاعرها وأنها تنسى الإساءة، ولكي يريا من جهة أخرى أن كاترينا إيفانوڤنا معتادة على معيشة أخرى. وكانت عازمة عزمًا أكيدًا على أن تشرح لهما ذلك أثناء الطعام، مشيرة إلى مركز أبيها كحاكم

وتفهمهما أن الإعراض عنها حين يتقابلن دليل على شدة الحماقة..

كذلك لم يحضر الكولونيل الضخم (والواقع أنه كان يوزباشي أركان حرب في المعاش) ولكن يظهر أنه كان مريضًا منذ يومين..

وعلى ذلك لم يحضر غير البولندي الضئيل، وموظف زري المنظر صامت له وجه به لطع وسترة قذرة وله رائحة تزكم الأنوف، وشيخ ضئيل الجسم أصم وأعشى، كان يعمل سابقًا في البريد ويدفع له أحد الناس إيجار إقامته بمسكن أماليا إيفانوڤنا منذ عهد بعيد جدًا..

وجاء أيضًا موظف على المعاش كان يعمل في الشرطة وقد أخذ منه الشراب، فكان يضحك ضحكًا عاليًا غير لائق، وبلغ به الاستهتار أنه لم يلبس صدارًا. وجلس أحد الزائرين إلى المائدة دون أن يحيي كاترينا إيفانوڤنا، وأخيرًا حضر أحدهم بمعطف البيت لأنه كان لا يملك ثيابًا خارجية وكان ذلك غاية الاستهتار، فتولت أماليا إيفانوڤنا والبولندي طرده.. على أن البولندي جاء باثنين من البولنديين من غير سكان أماليا إيفانوڤنا لم يكن أحد قد رآهما في تلك الدار من قبل، فكان كل هذا مما أثار غضب كاترينا إيفانوڤنا فأخذت تتساءل: «لمن إذن كانت هذه الاستعدادات؟..».

أما أطفالها فلم يجلسوا إلى المائدة حتى لا تضيق على الزائرين، بل أجلس الصغيران منهم على مقعد خشبي في ركن الغرفة ووضع طعامهما على صندوق، وعهد إلى پولنكا كبيرة الأطفال في مراقبتهما وإطعامهما وتنظيف أنفيهما، شأن الأطفال الذين نشأوا نشأة طيبة.

والواقع أن كاترينا إيفانوڤنا لم تستطع إلا أن تقابل مدعويها في وقار

متزايد، بل في كبرياء.. وكانت تحدق في البعض منهم في خشونة، خاصة وهي تدعوهم في تعاظم إلى أماكنهم.. وقام لديها أن أماليا إيفانوڤنا مسئولة عن غياب المتغيبين فأخذت تعاملها بكثير من عدم الاكتراث، وشعرت الأخرى بذلك وتضايقت، وتلك بداية لا تبشر بالخير.. وأخيرًا جلس كل إلى مكانه..

ودخل رسكولنكوف في اللحظة التي عاد فيها المشيعون من المقبرة، فسرت كاترينا إيفانوڤنا سرورًا كبيرًا لحضوره.. أولًا لأنه كان المدعو المثقف الوحيد، ولأنه- كما نعلم- سيشغل بعد سنين كرسي الأستاذية في الجامعة، ثم لأنه اعتذر في الحال وفي احترام من عدم استطاعته تشييع الجنازة... فهجمت عليه وأجلسته إلى يسارها (وكانت أماليا إيفانوڤنا إلى يمينها)، وبالرغم من اهتمامها الدائم وعنايتها بأن ترى صحاف الطعام وقد مرت على الجميع، وبالرغم من السعال المؤلم الذي كان يقطع كلامها كل لحظة- ويظهر أنه زاد سوءًا في الأيام الثلاثة الأخيرة- فإنها كانت توجه الحديث إلى رسكولنكوف باستمرار، وأسرعت تفضي إليه في صوت منخفض بجميع المشاعر المكتومة في نفسها، والسبب الحقيقي لفشل هذه المأدبة، وكان يتخلل ملاحظتها ضحك عال لا يقاوم تقصد به الاستخفاف بالمدعوين، لا سيما صاحبة الدار..

قالت كاترينا إيفانوڤنا وهي تشير برأسها نحو صاحبة الدار:

- إن كل هذا الخطأ ناشئ من هذه البغاء.. وأنت تفهم من أعني! هي! هي! انظر إليها وقد فتحت عينيها في دهشة إذ شعرت بأننا نتحدث عنها، ولكنها لا تفهم الكلام! حقًا إنها كالبومة. هي! هي (ثم سعال شديد) ولماذا

لبست هذه القبعة؟ (سعال شديد) ألم تلاحظ أنها تريد أن يعتقد كل الناس أنها تعطف عليّ وأن حضورها يشرفني؟ لقد طلبت إليها كامرأة عاقلة أن تدعو من تشاء، لا سيما أولئك الذين يعرفون زوجي الفقيد، فانظر إلى جمع الأغبياء الذين أتت بهم.. هذه الحثالة! انظر إلى ذلك الرجل الذي ترى بوجهه اللطع، وهؤلاء البولنديين الحقيرين.. ها! ها! ها! (ثم سعال شديد) لم يسبق لأحد منهم أن وضع أنفه في هذا المكان ولم تقع عيني عليهم من قبل.. لماذا جاءوا هنا؟ إنهم يجلسون صفًا واحدًا..

ثم صاحت فجأة بأحدهم: «أنت أيها السيد.. هل ذقت هذه الفطائر الحلوة؟ خذ بعضها أيضًا! خذ كوبًا من الجعة.. ألا تشرب كأسًا من الفودكا؟ انظر.. إنه قفز وبدأ ينحني. لا بد أنهم يكادون يموتون جوعًا.. يا لهم من مساكين! لا بأس، فليأكلوا.. فهم لا يثيرون ضجة على كل حال، وإن كنت أخشى على ملاعق صاحبة المنزل الفضية!».

ثم اتجهت إليها بالحديث فجأة وفي صوت يكاد يكون مسموعًا: «اسمعي يا أماليا بتروفنا! إذا حدث أن سرقت ملاعقك فلست أنا المسئولة! إني أنذرك! ها! ها! ها!».

وأخذت تضحك لنكتتها متجهة نحو رسكولنكوف، ثم قالت وهي تشير برأسها نحو صاحبة المسكن: «إنها لم تفهم! لم تفهم مرة ثانية! انظر كيف تجلس وقد فغرت فاهًا! إنها لبومة حقيقية! بومة في شرائط جديدة! ها! ها! ها!».

وهنا انقلب ضحكها مرة ثانية إلى نوبة سعال لا تحتمل استمرت خمس دقائق، وتجمعت قطرات العرق في جبينها وتخضب منديلها بالدم،

وأرت رسكولنكوف الدم في صمت.. وبمجرد أن استردت أنفاسها عادت إلى الحديث معه همسًا في اهتمام، وقد اصطبغت وجنتاها بلون وردي من تأثير المرض:

- هل تعلم أني زودتها بأدق التعليمات الممكنة كي تدعو تلك السيدة وابنتها؟ إنك تفهم من أعني بكلامي. فإن هذا الأمر كان يتطلب منتهى الرقة واللطف، ولكنها أساءت تدبير الأمور حتى أن تلك الغبية الخرقاء، تلك الريفية المجهولة، لمجرد أنها أرملة ضابط كبير، جاءت لتحاول الحصول على المعاش وتعرض ثيابها في مكاتب الحكومة- فهي في الخمسين من عمرها ومع ذلك تدهن وجهها بالأصباغ، وكل الناس يعرفون ذلك- هذه المخلوقة لا ترى مما يناسبها أن تأتي، ولم ترد على الدعوة كما تتطلبه أبسط مبادئ اللياقة. وإني لا أفهم لماذا لم يأت بيوتر بتروفتش.. ولكن أين سونيا؟ أين ذهبت؟ هذه هي أخيرًا.. ماذا جرى يا سونيا؟ وأين كنت؟ عجيب ألا تحافظي على المواعيد حتى في جنازة أبيك! أفسح لها مكانًا إلى جانبك يا روديون رومانوفتش.. هذا هو مكانك يا سونيا.. تناولي ما تحبين من الطعام... لتأكلي شيئًا من طبق اللحم بالجيلاتين فإنه أحسن الألوان.. وسيأتون بالفطائر الحلوة الآن! هل أعطوا الأطفال منها؟ بولنكا! هل تناولت من كل شيء؟ (ثم سعال شديد) هذا حسن! أحسني سلوكك يا ليدا، وأنت يا كوليا لا تحرك قدميك كثيرًا واجلس كالسيد المهذب الصغير.. ماذا تقولين يا سونيا؟

أسرعت سونيا في إبداء المعاذير التي ذكرها بيوتر بتروفتش، وكانت تحاول أن تتكلم بصوت مرتفع ليسمعها الآخرون وهي تختار في عناية أكثر

العبارات احترامًا وتعزوها لبيوتر بتروڤتش، وأضافت أن بيوتر بتروڤتش أخبرها أن تقول بصفة عامة إنه- بمجرد استطاعته- سيأتي بنفسه ليبحث في بعض الأمور معها على انفراد ويرى ما يمكن عمله لها، إلى غير ذلك..

وكانت سونيا تعرف أن هذا الكلام ترتاح له نفس كاترينا إيفانوڤنا ويفرحها ويرضي كبرياءها، وجلست إلى جانب رسكولنكوف بعد انحناءة سريعة له وهي تنظر إليه في فضول، ولكن يظهر أنها ظلت طول الوقت تتحاشى النظر إليه أو الكلام معه، كما يظهر أن ذهنها كان منصرفًا إلى التفكير في أمر، ولو أنها ظلت تنظر إلى كاترينا إيفانوڤنا محاولة أن ترضيها ولم تكن هي ولا كاترينا إيفانوڤنا قد استطاعتا تدبير ثياب للحداد، فكانت سونيا في ثياب بنية اللون قاتمة، وكانت كاترينا إيفانوڤنا مرتدية ثوبها الوحيد ذا الخطوط القاتمة من القطن.

وكانت الرسالة التي حملتها من بيوتر بتروڤتش ناجحة جدًا، فقد أصغت إليها كاترينا إيفانوڤنا في وقار، وسألت- في وقار أيضًا- كيف حال بيوتر بتروڤتش.. وفي الحال همست لرسكولنكوف في صوت يكاد يكون مسموعًا أنه من الغريب على رجل في مركز بيوتر بتروڤتش ومكانته أن يجد نفسه في مثل «هذه المجموعة العجيبة»، بالرغم من إخلاصه لأسرتها وصداقته القديمة لأبيها.

وأضافت في صوت يكاد يكون عاليًا: «هذا هو السبب يا روديون رومانوڤتش في أني أشعر بجميلك إذ لم تحتقر ضيافتي حتى في مثل هذا المحيط.. ولكني على ثقة من أن ذلك كان بدافع حبك الخاص لزوجي المسكين، مما حملك على الوفاء بالعهد..».

ثم أنعمت النظر مرة أخرى في زائريها، وفجأة سألت الرجل الأصم الجالس في الجانب الآخر من المائدة هل يتناول نصيبًا آخر من اللحم، وهل أعطى نبيذًا؟ فلم يجب الشيخ، وظل مدة طويلة لا يفهم ما سئل عنه، ولو أن جيرانه أخذوا يتلهون بوخزه وهزه، وقد اكتفى بالنظر حوله وفغر فاه مما زاد في سرورهم..

استمرت كاترينا إيفانوڤنا في حديثها قائلة: «إنه لأبله! انظر! انظر! لماذا جيء به؟ أما بيوتر بتروڤتش فإني واثقة فيه، وهو بالطبع ليس مثل..».

ثم خاطبت في عبوس شديد أماليا إيفانوڤنا وفي صوت عال، حتى أن هذه بدت عليها علامات الارتباك: «إنه ليس مثل هؤلاء اللواتي يجررن ذيولهن وكان والدي يأبى أن يشغلهن طاهيات في مطبخه، وكان زوجي الفقيد يشرفهن لوداعهن إلى طعام بطيبة قلبه...».

صاح كاتب الشرطة، وهو يجرع الكأس الثاني عشر من الڤودكا: «نعم.. كان يحب الخمر، وكان مغرمًا بها!.. كان يشرب منها كثيرًا».

وهاجمته كاترينا إيفانوڤنا في الحال: «لقد كان زوجي الفقيد ضعيفًا في هذه الناحية، وكل الناس يعرفون ذلك! ولكنه كان شفيقًا وشريفًا يحب أسرته ويخدمها، وأسوأ ما فيه أنه كان لنزعته للخير يثق في أناس سيئي السمعة ويشرب الخمر مع أناس لا يساوون نعل حذائه.. هل تصدق يا روديون رومانوڤتش أنه بالرغم من حالة سكره الفظيع التي كان فيها قد وجدوا في جيبه ديكًا مصنوعًا من الخبز المعجون بالسكر والزنجبيل؟ فهو لم ينس أطفاله..».

وصاح كاتب الشرطة: «ديكًا؟ تقولين ديكًا؟».

فلم تتنازل كاترينا إيفانوڤنا بالرد عليه، وتنهدت وغاصت في الأفكار ثم استأنفت حديثها لرسكولنكوف: «لا شك في أنك تظن- كسائر الناس- أني كنت شديدة جدًا عليه، ولكن ليس الأمر كذلك! لقد كان يحترمني.. كان يحترمني كثيرًا جدًا.. لقد كان رجلًا طيب القلب وكنت أحيانًا أشعر بالحزن من أجله! كان يجلس في ركن وينظر إليّ فأشعر بالحزن من أجله، وأرغب في أن أشفق عليه.. ثم أفكر في نفسي إن أشفقت عليه عاد إلى الخمر، فالشدة هي التي توقفه عند حده..».

صاح كاتب الشرطة مرة ثانية وهو يجرع كأسًا من الڤودكا: «نعم! إن شعر رأسه يُشد أحيانًا كثيرة..»، فصاحت به كاترينا إيفانوڤنا: «إن بعض البلهاء جديرون بالضرب فوق شد الشعور، وإني لا أتكلم الآن عن زوجي الفقيد..».

وأخذ احمرار وجنتيها يزداد اضطرامًا، وكان صدرها يعلو ويهبط فصار من المتوقع ألا تمضي لحظة حتى تكون على استعداد لمشاجرة.. وكان كثير من الزائرين يضحكون، ومن البين أنهم سروا وأخذوا يحرضون كاتب الشرطة ويهمسون له بآراء، والواضح أنهم كانوا يعملون على أن يندفع..

وابتدأ الكاتب يقول: «اسمحي لي أن أسأل ماذا تعنين... أي إلى من... وعمن... تتكلمين الآن... ولكني لا أهتم لذلك.. هذا هراء... أيتها الأرملة إني أعفو عنك.. فلنمر على هذا!» وشرب كأسًا آخر من الڤودكا..

كان رسكولنكوف جالسًا في صمت وهو يصغي في استياء شديد ويأكل تأدبًا فقط، ويمس الطعام الذي استمرت كاترينا إيفانوڤنا تضعه في صفحته مسًا ليتجنب جرح إحساساتها، ويراقب سونيا باهتمام.. ولكن سونيا استولى عليها القلق والحيرة، فقد توقعت ألا يمر الطعام في سلام.. وتملكها الرعب لرؤيتها غضب كاترينا إيفانوڤنا المتزايد، وقد عرفت أنها هي- سونيا- السبب الأساسي فيما أظهرته السيدتان الراقيتان من احتقار لدعوة كاترينا إيفانوڤنا. فقد سمعت من أماليا إيفانوڤنا أن الأم شعرت بالإهانة لهذه الدعوة سائلة: «كيف تسمح لابنتها بأن تجلس إلى جانب مثل تلك الشابة؟». وشعرت سونيا بأن كاترينا إيفانوڤنا سمعت بهذا، وإنها لتشعر بالإهانة الموجهة إلى سونيا أكثر من أية إهانة توجه إليها أو لأطفالها، أو لأبيها. وعرفت سونيا أن كاترينا إيفانوڤنا لن تقنع الآن «حتى تظهر لهاتين القذرتين أنهما...». ومما زاد الأمر سوءًا أن أحد المدعوين مد إلى سونيا صحفة من الجانب الآخر من المائدة فإذا عليها قلبان من الخبز الأسود يخترقهما سهم، فاحمر وجه كاترينا إيفانوڤنا حتى صار بلون الدم، وصاحت في الحال إلى ذلك الجانب من المائدة قائلة إن الرجل الذي أرسل هذه الصفحة إنما هو حمار مخمور..

ولاحظت أماليا إيفانوڤنا أن الجو يسوء، وشعرت في الوقت ذاته باستياء كبير لما أظهرته كاترينا من كبرياء، فأرادت أن تعيد الهدوء إلى الجماعة وترفع نفسها في أعينهم، فبدأت بغير داع تروي قصة عن شخص تعرفه اسمه كارل يعمل لدى كيماوي، وكان في إحدى الليالي قد ركب عربة «وأراد سائق العربة أن يقتله، فصار كارل يتوسل إليه ألا يفعل، وبكى

وشبك يديه وهو يرجوه، وبدا عليه الخوف فأثر ذلك في قلب القاتل». وابتسمت كاترينا إيفانوڤنا للقصة، ولكنها أبدت ملاحظة في الحال بأنه لا ينبغي أن تروي أماليا إيفانوڤنا نادرة باللغة الروسية، فغضبت هذه السيدة وردت عليها بأن أباها وإن كان من أهل برلين إلا أنه كان رجلًا بارزًا جدًا.. «كان يسير دائمًا وهو يضع يديه في الجيوب..» ولم تستطع كاترينا إيفانوڤنا أن تمنع نفسها من الاندفاع في الضحك طويلًا حتى نفد صبر أماليا إيفانوڤنا ولم تعد تتمالك زمام نفسها إلا بصعوبة.

وهمست كاترينا إيفانوڤنا لرسكولنكوف وقد عادت إليها بشاشتها:

- أسمعت هذه البومة؟ إنها أرادت أن تقول إنه يضع يديه في جيوبه فقالت ما يفهم منه أن يضع يديه في جيوب الناس (ثم سعال) وهل لاحظت يا روديون رومانوڤتش أن الأجانب الذين يسكنون بطرسبرج- لا سيما الألمان- هم جميعًا أغبى منا؟ هل تتصور واحدًا منا يروي قصة مثل قصة كارل الذي يعمل لدى الكيماوي، والذي اخترق الخوف قلبه، وأن هذا الأبله بدلًا من معاقبة سائق العربة يشبك يديه ويبكي ويتوسل؟ يا لها من غبية! ومع ذلك تتصور أن القصة مؤثرة جدًا، ولا يخطر ببالها إلى أي حد هي غبية! في رأيي أن رجل الشرطة السكير أذكى منها بكثير، إذ يمكننا أن نرى أنه ملأ رأسه بالشراب.. ولكنك تعلم أن هؤلاء الأجانب حسنو السلوك دائمًا، وهم رجال جد... انظر كيف يتطاير الشرر من عينيها غضبًا! ها ها! (ثم نوبة سعال شديد).

ولما استردت كاترينا إيفانوڤنا بشاشتها أخذت تخبر رسكولنكوف أنها عندما تحصل على المعاش ستفتتح مدرسة لبنات السادة في مدينة ت...

موطنها، وكانت هذه أول مرة تحدثت فيها عن هذا المشروع فرسمته في أبهى تفصيلاته. وتبين فجأة أن تحت يد كاترينا إيفانوڤنا شهادة الشرف التي تكلم عنها مرملادوف في الحانة لرسكولنكوف، حين أخبره أنها رقصت رقصة الشال أمام الحاكم وغيره من الكبراء عند مغادرتها للمدرسة، وهذه الشهادة تعطي لكاترينا إيفانوڤنا الحق في افتتاح مدرسة داخلية، ولكنها سلحت نفسها بها الآن بصفة خاصة بقصد إسكات «السيدتين المتكبرتين» إذا «جاءتا للطعام»، لتبرهن برهانًا قاطعًا على أن كاترينا إيفانوڤنا من أعرق الأسر، بل يمكن أن يقال إنها من أسرة أرستقراطية وابنة كولونيل، وأنها أعلى مقامًا من «بعض المغامرات اللاتي برزن أخيرًا».. ومرت شهادة الشرف سريعًا إلى أيدي الضيوف السكارى، ولم تحاول كاترينا إيفانوڤنا أن تحتجزها، إذ فيها ما يدل بوضوح على أن أباها كان برتبة ماجور، وأنه حاصل على وسام فهي حقًا تكاد تكون ابنة ضابط برتبة كولونيل..

وتحمست كاترينا إيفانوڤنا فأخذت تتوسع في وصف الحياة الهادئة السعيدة التي سوف تعيشها ببلدة ت... وأساتذة المدارس الثانوية الذين ستندبهم لإلقاء الدروس في مدرستها، وذكرت رجلًا فرنسيًا محترمًا اسمه مانجو كانت تتلقى منه دروسًا في الأيام الخالية ولا يزال مقيمًا في مدينة ت... ولا ريب أنه سيعلم في مدرستها.. ثم تكلمت عن سونيا التي سوف تذهب معها إلى تلك المدينة وتساعدها في مشروعاتها جميعًا..

وهنا بدر من أحد الجالسين على الجانب الآخر من المائدة ضحك فجائي، وحاولت كاترينا إيفانوڤنا أن تظهر عدم مبالاتها احتقارًا، ولكنها أخذت في الحال تتكلم عن اعتقاد في مقدرة سونيا والتي لا شك فيها على

مساعدتها، وفي «رقتها وصبرها وإخلاصها وكرمها وحسن تربيتها».. وقد ربتت على خد سونيا وقبلتها مرتين، واحمر وجه سونيا بلون الدم وانخرطت كاترينا إيفانوڤنا فجأة في البكاء.. ولاحظت على نفسها في الحال أنها عصبية وناقصة العقل، وأنها متألمة، وأن الوقت حان للانتهاء من هذا بعد إذ انتهى الطعام وبمجرد الفراغ من تناول الشاي!

في تلك اللحظة رأت أماليا إيفانوڤنا- وقد استاءت استياء عميقًا لأنها لم تشترك في الحديث ولم يصغ إليها أحد- أن تبذل جهدًا أخيرًا، وأبدت ملاحظة عميقة ذات قيمة وهي تخشى في أعماق نفسها نتيجة هذه الملاحظة فقالت: «يجب أن يعنى عناية خاصة بنظافة الثياب في المدرسة الخارجية المستقبلة، ولا بد من وجود سيدة محترمة للعناية بالملابس والفراش، وألا يسمح للفتيات بقراءة قصص في الليل..».

وكانت كاترينا إيفانوڤنا قد تضايقت تمامًا وتعبت وملت هذا الطعام، فقطعت على أماليا إيفانوڤنا الحديث في الحال وأخبرتها بأنها «لا تعرف شيئًا عن هذا الموضوع، وأن هذا كلام فارغ فإن من شأن الغسالة لا مديرة المدرسة الداخلية أن تعنى بالغسيل، أما قراءة القصص فإن هذا القول مجرد إهانة»، وطلبت إليها أن تسكت..

واشتعلت نيران الغضب في نفس أماليا إيفانوڤنا وأجابت بأنها لا تقصد غير النفع، وأنها لا تريد إلا ما فيه فائدتها، وأنه قد مضى وقت طويل منذ أن رأت نقودها أجرة مسكنها..

وألزمت كاترينا إيفانوڤنا حدودها في الحال قائلة إن زعمها أنها تريد نفعها أكذوبة؛ لأنها بالأمس فقط بينما كان زوجها في رقدته الأخيرة على

المنضدة كانت ترهقها بشأن مسكنها..

وقالت أماليا إيفانوڤنا بهذه المناسبة إنها قد دعت السيدتين، ولكنهما لم تحضرا لأنهما سيدتان حقيقيتان، ولا يمكن أن تزورا امرأة ليست بسيدة..

فردت كاترينا إيفانوڤنا في الحال بأنها لما كانت من السوقة فهي لا تحكم على ما يميز السيدات..

وأعلنت أماليا إيفانوڤنا أن أباها من برلين، وأنه عظيم الشأن يضع يديه في الجيوب وكان يقول دائمًا: «بوف! بوف!».

فعلا ضحك الساكنين الذين كانوا يشجعون أماليا إيفانوڤنا آملين أن يشاهدوا المعركة، ولم تطق كاترينا إيفانوڤنا هذا القول منها وأعلنت في الحال في صوت يسمعه الجميع أن من الراجح ألا يكون لأماليا إيفانوڤنا أب معروف، بل هو رجل من أهل فنلندة الذين يعيشون في بطرسبرج ولا هم لهم إلا السكر، والغالب أنه كان يعمل طاهيًا أو ما هو أحقر من هذا.

واحمر لون أماليا إيفانوڤنا احمرارًا شديدًا، وصاحت أن كاترينا إيفانوڤنا ربما لم يكن لها أب مطلقًا، أما أبوها هي فكان من أهل برلين يرتدي سترة طويلة ويقول دائمًا: «بوف! بوف!».

فلاحظت كاترينا إيفانوڤنا أن الجميع يعرفون أسرتها، وأن اسم أبيها ذكر في شهادة الشرف على أنه كولونيل، بينما والد أماليا إيفانوڤنا- إن كان لها أب معروف- فإنه في الغالب كان بائع لبن فنلندي، ولكن الراجح أنه ليس لها أب، إذ ليس من المؤكد أن اسمها إيفانوڤنا أو أماليا لدڤيجوڤنا..

وعندئذ ثارت أماليا إيفانوڤنا فضربت المائدة بقبضتها وصرخت أن اسمها أماليا إيفانوڤنا وليس لدڤيجوڤنا، وأن أباها اسمه يوهان وكان عمدة، بينما والد كاترينا إيفانوڤنا لم يكن عمدة مطلقًا..

فقامت كاترينا إيفانوڤنا من مقعدها وفي صوت شديد وإن كان ظاهر الهدوء- مع أن وجهها كان ممتقعًا وصدرها يرتفع ويهبط- لاحظت أنها إذا جرؤت لحظة أن تضع أباها الحقير في مستوى أبيها فإنها- كاترينا إيفانوڤنا- ستنزع القبعة عن رأسها وتدهسها بقدميها..

وأخذت أماليا إيفانوڤنا تجري حول الغرفة وهي تصيح بأعلى صوتها أنها صاحبة البيت، وأنه يجب أن تغادر كاترينا إيفانوڤنا المسكن في الحال، ثم هجمت فأخذت تجمع الملاعق الفضية من المائدة.. وحدث ضجيج وصراخ، وأخذ الأطفال في البكاء، وجرت سونيا لتهدئ كاترينا إيفانوڤنا، ولكن عندما فاهت أماليا إيفانوڤنا بكلمات عن «التذكرة الصفراء» نحت كاترينا إيفانوڤنا الفتاة جانبًا وهجمت على صاحبة المنزل لتنفذ تهديدها..

وفي تلك اللحظة فتح الباب وظهر پيوتر بتروڤتش لوجين على عتبته، ووقف ينعم النظر في الجماعة بعين شديدة ويقظة، واندفعت كاترينا إيفانوڤنا نحوه..

* * *

(٣)

صاحت قائلة: «احمني أنت على الأقل يا پيوتر بتروڤتش.. ولتفهم هذه المرأة المعتوهة أنها لا تستطيع أن تعامل سيدة في مصابها هذه المعاملة، وأن هناك قانونًا لمثل هذه الأمور... وسأذهب إلى الحاكم العام نفسه وستكون مسئولة عن فعلتها... فلتتذكر كرم والدي في ضيافته ولتحم هؤلاء اليتامى..».

فأزاحها پيوتر بتروڤتش جانبًا وهو يقول: «اسمحي لي يا سيدتي! اسمحي لي فإنك تعلمين جيدًا أني لم أتشرف بمعرفة أبيك (وضحك أحد الحضور في صوت عال) ولست أنوي الاشتراك في مشاحناتك الدائمة مع أماليا إيفانوڤنا... لقد جئت هنا لأتكلم عن أموري الخاصة.. وأريد أن أقول كلمة لابنة زوجك صوفيا.. إيفانوڤنا على ما أظن! فاسمحي لي بالمرور..».

ودار بيوتر بتروڤتش حول كاترينا إيفانوڤنا ليصل إلى الركن الآخر من الغرفة الذي وقفت فيه سونيا.

وتسمرت كاترينا إيفانوڤنا في مكانها كأنها صعقت، إذ لم تستطع أن تفهم كيف ينكر بيوتر بتروڤتش ضيافة أبيها، فقد صارت هذه الضيافة التي اخترعتها عقيدة ثابتة لديها، وقد صعقت أيضًا بالنغمة الرسمية الخشنة المنطوية على التهديد والاحتقار. وقد سكتت الضجة عند وصول لوجين، ولم يكن مظهر هذا الرجل المحترم الجاد غير ملائم فقط لبقية الجماعة،ولكن كان من الواضح أن حضوره في مثل هذا المكان لم يكن إلا لغرض مهم، وسينشأ عنه حدوث شيء ما.. وكان رسكولنكوف واقفًا إلى جانب سونيا فتنحى ليدعه يمر، وبدا على بيوتر بتروڤتش أنه لم يلاحظه، وظهر بعد لحظة ليزياتنكوف أيضًا على عتبة الباب، ولكنه لم يدخل بل ظل واقفًا في تطلع شديد بل في عجب، وكان يصغي وكأنه لا يفهم.

قال بيوتر بتروڤتش دون أن يوجه الكلام لشخص بعينه: «معذرة إذا كنت قد أثقلت عليكم.. ولكن هذا الأمر له عندي بعض الأهمية، بل إني مرتاح لأني أتكلم أمام ملأ من الناس.. وإني أرجوك يا أماليا إيفانوڤنا- بصفتك صاحبة هذا المنزل- أن توجهي اهتمامك لحديثي مع سونيا إيفانوڤنا..».

ثم توجه بكلامه إلى سونيا التي بدت عليها الدهشة والذعر وقال: «لقد وجدت على أثر زيارتك مباشرة يا صوفيا إيفانوڤنا أن ورقة مالية من ذات المائة روبل فقدت من المنضدة في غرفة صديقي السيد ليزياتنكوف، فإذا كنت تخبريننا بأي طريقة أين هي الآن، فأؤكد لك بشرفي- ويشهد بذلك

جميع الحاضرين- أن هذه المسألة ستقف عند هذا الحد. أما إذا كان الأمر غير ذلك فإني سأضطر للالتجاء إلى إجراءات جدية جدًا.. وعندئذ لا تلومين إلا نفسك..».

وساد الغرفة سكون تام، حتى الأطفال انقطعوا عن البكاء.. ووقفت سونيا وقد امتقع لونها حتى صارت كالموتى، وهي تحدق في لوجين ولا تستطيع النطق بكلمة.. وبدا عليها أنها لا تفهم...

ومرت بضع ثوان، ثم سألها لوجين وهو يحدق فيها: «حسنًا! ماذا تريدين أن يكون عليه الحال؟».

ونطقت سونيا أخيرًا في صوت غير مسموع: «لست أعلم... لا أعلم شيئًا عن هذا الأمر».

فكرر لوجين: «ألا تعلمين شيئًا؟».

وصمت بضع ثوان ثم استأنف الحديث في لهجة شديدة، ولكن كأنه لا يزال ينصحها: «فكري يا آنسة وأنعمي الفكر.. فإني على استعداد لأن أمنحك وقتًا للتفكير، وأرجو أن تلاحظي هذا.. إني لو لم أكن مقتنعا كل الاقتناع فكوني على ثقة من أني لم أكن مع تجربتي لأجرؤ على اتهامك هكذا مباشرة، فإن مثل هذا الاتهام المباشر أمام شهود- إذا كان الاتهام كاذبًا، بل خاطئًا- يضع على عاتقي شيئًا من المسئولية.. ففي هذا الصباح قمت لأغراض خاصة ببيع سندات ذات فائدة خمسة في المائة بمبلغ ثلاثة آلاف روبل تقريبًا وقيدت الحساب في مذكرتي، وعند عودتي إلى مسكني أخذت في عد النقود- كما يشهد السيد ليزياتنكوف- وبعد أن

عددت ألفين وثلاثمائة روبل، وضعت بقية المبلغ في محفظتي في جيب سترتي، وبقي على المنضدة نحو خمسمائة روبل، وبينها ثلاث ورقات كل منها بمائة روبل.. وفي تلك اللحظة دخلت (بناء على دعوتي لك) وكنت طول الوقت في ارتباك شديد، حتى أنك قفزت ثلاث مرات وسط الحديث وحاولت الخروج.. ويمكن أن يشهد السيد ليزياتنكوف- وأنت أيضًا يا سيدتي ربما لا ترفضين أن تؤيدي قولي- بأني دعوتك بواسطة السيد ليزياتنكوف لمجرد مناقشتك في مركز قريبتك كاترينا إيفانوڤنا (التي لم أستطع حضور طعامها) والتي صارت إلى حال لا أمل فيه من الفاقة وأن من حسن الرأي أن يعمل لها شيء كـ«اكتتاب» أو ورق اليانصيب أو ما ماثل ذلك لفائدتها، وقد شكرتني بل بكيت.. وإني أصف كل هذا كما حدث، أولًا لأذكرك به ولأدلك على أنه لم يفت ذاكرتي أي أمر صغير.. ثم أخذت ورقة بعشرة روبلات من المنضدة وقدمتها إليك على أنها القسط الأول من تبرعي لقريبتك.. وقد رأى السيد ليزياتنكوف كل هذا، ثم صحبتك إلى الباب- وكنت لا تزالين في ارتباك- وبعد ذلك بقيت على انفراد مع السيد ليزياتنكوف أتحدث إليه مدة عشر دقائق، ثم خرج فعدت إلى المنضدة بما عليها من مال، عازمًا على أن أعده قبل وضعه جانبًا كما كنت عازمًا من قبل، فإذا ورقة بمائة روبل قد اختفت.. أرجو أن تفكري في هذا المركز.. إني لا أستطيع أن أشك في السيد ليزياتنكوف، بل إني أخجل لمجرد الإشارة إلى مثل هذا الفرض.. ولا يمكن أن أكون أخطأت حسابي؛ لأني في الدقيقة السابقة على دخولك كنت قد أنهيت حسابي ووجدت المجموع صحيحًا. وقد تقرين أني إذا ما تذكرت ارتباكك واهتمامك

بالخروج، وأنك وضعت يدك على المنضدة مدة من الزمن، وإذا أدخلت في اعتباري مركزك الاجتماعي والعادات الملازمة له صرت مضطرًا لأن- وأقول هذا مع شدة استفظاعي له ورغمًا عن إرادتي- لأن يوجد لديَّ شك، شك قاس، ولكن له ما يبرره.. وأضيف إلى ذلك وأكرر أنه بالرغم من اعتقادي الثابت فإني عالم بأني أتحمل شيئًا من المغامرة في إبداء هذا الاتهام.. ولكن كما ترين لا أستطيع أن أدع المسألة تمر، لقد أقدمت على هذه الخطوة وسأخبرك لماذا: لمجرد إنكارك الفظيع للجميل يا سيدتي.. ألا ترين أني دعوتك لفائدة قريبتك المعدمة، ثم قدمت لك تبرعًا بعشرة روبلات فإذا بك تقابلين معروفي في الحال بهذا العمل؟.. ما أسوأ هذا! إنك في حاجة إلى درس! فكري.. ثم إني كصديق حقيقي- ولن يكون لك صديق خيرًا مني في هذه اللحظة- أرجوك أن تفكري فيما أنت فاعلة، وإلا صرت شديدًا لا أتحول! ماذا تقولين في ذلك؟».

همست سونيا في هلع شديد: «إنك أعطيتني ورقة بعشرة روبلات.. هذه هي.. خذها!».

وجذبت سونيا منديلها من جيبها وفكت رابطة من أحد أركانه وأخرجت ورقة بعشرة روبلات وأعطتها إلى لوجين. فأصر يقول في عتاب دون أن يأخذ الورقة: «ولا تعترفين بأخذ المائة روبل؟».

نظرت سونيا حولها، وكان الجميع ينظرون إليها بعيون فظيعة جامدة ساخرة ومعادية، ونظرت إلى رسكولنكوف... وقد ارتكن إلى الحائط وشبك ذراعيه وهو ينظر إليها بعينين براقتين...

تأوهت سونيا قائلة: «رباه!».

وقال لوجين في صوت ناعم بل رقيق: «أظن يا أماليا إيفانوڤنا أننا سوف نخطر رجال الشرطة، ولذلك أرجوك الآن أن ترسلي في طلب بواب المنزل».

صاحت أماليا إيفانوڤنا وقد رفعت يديها: «رباه القدير! لقد كنت أعرف أنها لصة!».

فعقب لوجين على صيحتها: «كنت تعلمين؟ إذن لا بد أن لديك سببًا يحملك على هذا! أرجوك يا سيدتي أماليا إيفانوڤنا أن تتذكري هذه الكلمات التي نطقت بها أمام شهود..».

وحدث حينئذ لغط من جميع الجهات وكان الجميع في حركة..

وصاحت كاترينا إيفانوڤنا وقد فهمت الموقف فجأة، فهجمت نحو لوجين: «ماذا؟ ماذا؟ أتتهمها بالسرقة؟ سونيا! تبًا للأشرار! تبًا للأشرار!».

وجرت نحو سونيا وأحاطتها بذراعيها النحيلتين وكأن لا سبيل لانتزاعها منها.. «سونيا! كيف تجاسرت على أخذ عشرة روبلات منه؟ إنك فتاة بلهاء! هاتيها.. هاتيها.. العشرة روبلات في الحال.. هذه هي!».

واختطفت كاترينا إيفانوڤنا الورقة المالية من يد سونيا ثم طوتها وقذفت بها لوجين في وجهه، فأصابت الورقة عينه ثم سقطت إلى الأرض، وأسرعت أماليا إيفانوڤنا فالتقطتها، واستولى على پيوتر بتروڤتش الغضب فصاح: «امسكوا هذه المرأة المجنونة!».

وفي تلك اللحظة ظهر عدد من الناس على عتبة الباب، فضلًا عن ليزياتنكوف، ومن بينهم السيدتان.

وصرخت كاترينا إيفانوڤنا: «ماذا؟ مجنونة؟ أنا المجنونة؟ أيها الغبي.. إنك لرجل غبي.. أيها المحامي الحقير السافل! سونيا! سونيا تأخذ مالك؟ سونيا لصة؟ وهي التي تعطي ما لديها من نقود!» واستولى عليها ضحك عصبي «هل رأيتم مثل هذا الغبي؟».

وكانت تحول نظرها من جانب إلى جانب، ووقع نظرها فجأة على صاحبة المنزل.. «وأنت أيضًا يا آكلة اللحم النيئ تقولين إنها لصة؟ أنت التي تشبهين رجل دجاجة بروسية قذرة في ثوب امرأة! إنها لم تغادر هذه الغرفة، وقد جاءت مباشرة من غرفتك أيها الوغد، وجلست مكانها بجانبي، وكل شخص هنا رآها... جلست إلى جانب روديون رومانوڤتش! فلتفتشوها.. فهي لم تبرح الغرفة، ولو أنها أخذت نقودك لكانت معها! فتشوها! فتشوها! ولكن إذا لم تجد مالك فمعذرة أيها العزيز إذا كنت تتحمل نتيجة ذلك.. سأذهب إلى مليكنا! إلى مليكنا! إلى قيصرنا الكريم نفسه! وأرتمي على قدميه اليوم في هذه اللحظة! إني وحيدة في هذا العالم! وسيدخلونني عليه! هل تظن أنهم لا يفعلون؟ أنت مخطئ! سأدخل! سأدخل! إنك بنيت حسابك على ضعفها.. اعتمدت على ذلك! ولكن دعني أقول لك إني لست سهلة القياد مثلها! لقد غلوت في تصرفاتك! فتشها! فتشها!».

وفي سورة الغضب هزت كاترينا إيفانوڤنا لوجين في عنف وسحبته نحو سونيا.. فتمتم لوجين: «إني على استعداد، وسأكون مسئولًا.. ولكن هدئي روعك يا سيدتي.. هدئي روعك. إني أرى أنك لست سهلة القياد، ولهذا ليكن الأمر أمام الشرطة.. ولو أن هنا عددًا كافيًا من الشهود.. إني

على استعداد.. ولكن هذا أمر صعب على الرجل على أي حال.. فهي امرأة.. ولكن بمساعدة أماليا إيفانوڤنا.. ولو أن هذا ليس السبيل لعمل هذه الأشياء..».

صاحت كاترينا إيفانوڤنا: «كما تريد! فليفتشها الشخص الذي تريده! سونيا! اقلبي جيوبك! انظر أيها الوحش.. هذا الجيب خال ليس فيه غير المنديل! انظر إلى الجيب الآخر. هل ترى؟ هل ترى؟».

وقلبت كاترينا إيفانوڤنا الجيبين، أو على الأصح جذبتهما في عنف، فطارت من الجيب الأيمن ورقة دارت في الهواء ثم سقطت عند قدم لوجين.. ورآها الجميع، وصاح بعض الحضور، وانحنى پيوتر بتروڤتش فالتقط الورقة بأصبعيه كي يراها الجميع، وفتحها.. ورقة مالية بمائة روبل مطوية ثماني طيات.. وأمسك پيوتر بتروڤتش الورقة وعرضها على الجميع..

وصاحت أماليا إيفانوڤنا: «أيتها اللصة! اخرجوا من بيتي! نادوا رجال الشرطة! نادوا رجال الشرطة! يجب أن يرسلوا إلى سيبيريا! اخرجوا!».

وارتفعت صيحات التعجب من كل جانب.. أما رسكولنكوف فظل صامتًا وقد ثبت عينيه في سونيا لا يتحول عنها إلا لكي يلقي نظرة سريعة بين حين وآخر على لوجين.. ووقفت سونيا ساكتة كأنها لم تعد تشعر بشيء.. ولم تكن تستطيع حتى الشعور بالدهشة.. ثم اصطبغت وجنتاها فجأة بالاحمرار، وصدرت عنها صرخة ثم أخفت وجهها بين يديها.. وصاحت في صرخة قوية تكاد تمزق القلب: «لا! لست أنا! لم آخذ هذه الورقة ولا أعرف عنها شيئًا!».

وجرت إلى كاترينا إيفانوڤنا التي ضمتها بشدة بين ذراعيها كأنها تريد أن تحميها من العالم.. وصاحت كاترينا إيفانوڤنا بالرغم من وضوح الحادث: «سونيا! سونيا! أنا لا أصدق.. إني لا أصدق!».

وصارت تهزها بين ذراعيها وكأنها طفلة، وتقبلها في وجهها باستمرار.. ثم أمسكت بيديها وقبلتهما أيضًا.. «أنت أخذت الورقة؟ ما أغبى هؤلاء الناس! حقًا إنكم أغبياء!».. وصرخت وهي توجه الكلام لجميع من بالغرفة: «إنكم لا تعلمون أي قلب لها، وأية فتاة هي! هي تأخذ هذه الورقة؟ إنها لتبيع آخر خرقة تمتلكها، وإنها لتمشي حافية القدمين لتساعدكم إذا كنتم في حاجة إلى المساعدة! هذا شأنها.. لقد حصلت على الترخيص الأصفر لأن أطفالي كانوا جائعين، فباعت نفسها من أجلنا! إيه أيها الزوج! أيها الزوج.. هل ترى أي طعام تذكاري لك أيها الأب الرحيم؟ فلتدافع عنها.. لماذا أنتم واقفون بلا حراك؟ لماذا لا تتقدم للدفاع عنها يا روديون رومانوڤتش؟ هل تصدق أنت أيضًا؟ إنكم جميعًا لا تساوون أصبعها الصغير! رباه.. فلتدافع عنها الآن على الأقل!».

وتأثر الحاضرون بولولة المرأة المسكينة المصدورة العاجزة، فقد كان الوجه الذي ارتسم عليه الشقاء والألم، والشفتان الجافتان المخضبتان بالدم، والصوت الأجش والدموع المتدفقة كأنها دموع طفل، وذلك الدعاء للمساعدة الذي هو مزيج من الثقة والطفولة واليأس، كل ذلك كان مؤثرًا حتى شعر كل واحد من الحاضرين بالرثاء لها، وأظهر پيوتر بتروڤتش أنه شعر في الحال بشيء من العطف، فصاح في صوت أراد به التأثير: «سيدتي.. سيدتي.. إن هذا الحادث لا يؤثر في سمعتك فما من أحد يتهمك بأنك

محرضة أو شريكة، لا سيما بعد أن برهنت على جرمها بأن قلبت جيبها، مما يدل على أنك كنت خالية الذهن من هذا الأمر.. وإني على استعداد لأن أظهر الشفقة إذا كان الفقر كما يقولون هو الذي دفع صوفيا سميونوڤنا إلى هذا العمل.. ولكن لماذا رفضت الاعتراف أيتها الآنسة؟ هل كنت تخشين الفضيحة؟ ولكن كيف نزلت بنفسك إلى مثل هذا العمل؟.. أيها السادة!» قال ذلك موجهًا الخطاب لجميع الحاضرين.. «أيها السادة. إني في سبيل الشفقة على هؤلاء الناس- أو كما يقولون: الرثاء لهم- على استعداد للتجاوز عن هذا الأمر، حتى بالرغم من الإهانة الشخصية التي أمطرت عليَّ، وليكن في هذه المذلة درس لك في المستقبل! وكفى!».

ونظر پيوتر بتروڤتش نظرة خاطفة إلى رسكولنكوف، وتقابلت أعينهما.. وكان الشرر في عيني رسكولنكوف يكاد يحيلهما رمادًا، وكانت كاترينا إيفانوڤنا في هذه الأثناء كأنها لم تسمع شيئًا، فقد كانت تقبل سونيا وتعانقها وكأنها جنت، وكان الأطفال أيضًا يحتضنون سونيا من كل جانب، أما پولنكا فإنها لم تفهم تمامًا ماذا حدث، ولكنها كانت غارقة في دموعها ترتعد من كثرة البكاء وهي تخفي وجهها الصغير الجميل في كتف سونيا وقد تورم من البكاء..

وفجأة سمع صوت عال عند الباب يقول: «هذا شر ما رأيت!» واستدار پيوتر بتروڤتش سريعًا، وكان ليزياتنكوف يكرر: «لم أر شرًا من هذا!» وهو يحدق في وجهه..

ارتبك پيوتر بتروڤتش بشكل ظاهر لاحظه الجميع وتذكروه فيما بعد، ودخل ليزياتنكوف الغرفة وسار نحو پيوتر بتروڤتش وهو يقول: «كيف

جرؤت على الاستناد إلى شهادتي؟» وغمغم لوجين: «ماذا تعني؟ فيم تتكلم؟..».

قال ليزياتنكوف في حرارة وهو ينظر إليه في شدة بعينيه قصيرتي النظر: «أقصد أنك شتام كذوب.. هذا ما تعنيه كلماتي!».

وكان في أشد حالات الغضب، وكان رسكولنكوف ينظر إليه في اهتمام كأنه يمسك بكل كلمة ويزنها.. وساد السكون مرة أخرى، وكأن پيوتر بتروڤتش في اللحظة الأولى قد أصيب بالخرس.

ثم ابتدأ يغمغم: «إذن كنت تعنيني بهذا القول؟ ولكن ماذا جرى لك؟ هل فقدت عقلك؟».

– إني في قواي العقلية، ولكنك وغد شرير! لقد سمعت كل شيء، وظللت أنتظر خاصة لأفهم هذا الأمر.. إذ أعترف بأن الأمر يبدو لي حتى الآن غير منطقي، ولا أفهم لماذا أتيت كل هذا العمل..

– ماذا عملت؟ اطرح الألغاز التي لا معنى لها جانبًا، أم لعلك قد نالت منك الخمر؟

– قد تكون أنت المخمور أيها الرجل الشرير، ولكني لست كذلك! فإني لا أذوق الڤودكا مطلقًا؛ لأن ذلك يتعارض مع عقيدتي.. هل تصدقون أنه هو بنفسه أعطى صوفيا سميونوفنا هذه الورقة بمائة روبل؟ لقد رأيت ذلك وكنت شاهدًا، وأقسم على ما أقول!».

وكرر ليزياتنكوف هذا وهو يوجه الكلام للجميع..

فصرخ لوجين: «هل جننت أيها المغفل؟ إنها الآن قد أعلنت أمامكم

جميعًا أني أعطيتها ورقة بعشرة روبلات، فكيف أكون أعطيتها هذه الورقة؟».

كرر ليزياتنكوف كلامه قائلًا: «لقد رأيتها.. رأيتها.. ولو أن ذلك يتعارض مع مبادئي.. إني على استعداد لأني أقسم أي قسم تريدونه أمام المحكمة بأني رأيتك تضع المال خفية في جيبها.. غير أني كنت غبيًا فظننتك تفعل ذلك على سبيل الشفقة! فحين كنت تودعها عند الباب أمسكت إحدى يديها، وباليد الأخرى- يدك اليسرى- وضعت الورقة في جيبها! لقد رأيت هذا! لقد رأيت هذا!».

وامتقع لون لوجين وصاح في جرأة: «إنها لأكاذيب! كيف ترى الورقة وأنت واقف عند النافذة؟ إنك تخيلت هذا بعينيك اللتين لا تبصران بعيدًا! إنك تهجس!».

- لا! إني لا أتوهم.. لقد كنت واقفًا من بعيد إلى حد ما، ولكني رأيت كل شيء.. ومن المؤكد أنه يصعب تمييز ورقة مالية من النافذة، هذا حق، ولكني كنت متأكدًا من أنها ورقة بمائة روبل.. لأنك عندما أردت أن تعطي صوفيا سميونوفنا ورقة بعشرة روبلات تناولت من المنضدة ورقة بمائة روبل (وقد رأيتها لأني كنت واقفًا عندئذ على مقربة منك، وجاءتني للحال فكرة فلم أنس أنها كانت في يدك) وقد طويتها وكنت ممسكًا بها طول الوقت في يدك، ولم أفكر فيها عندما قمت إلا حين نقلتها من اليد اليمنى إلى اليسرى وكادت تسقط منك.. ولاحظت هذا لأن الفكرة التي خطرت لي عادت ثانية وظننت أنك تريد عمل الخير من غير أن أراك! لقد راقبتك ورأيتك عندما نجحت في وضع الورقة خلسة في جيبها! لقد رأيت هذا..

لقد رأيت هذا وسأقسم عليه..

وكان ليزياتنكوف يكاد لا يستطيع التنفس، وارتفعت الأصوات بالتعجب والدهشة من جميع الجهات، واتخذ بعضها شكل التهديد، والتف الناس جميعًا حول پيوتر بتروڤتش، وطارت كاترينا إيفانوڤنا نحو ليزياتنكوف: «لقد كنت مخطئة الظن فيك.. احمها.. إنك الوحيد الذي وقف في صفها.. إنها يتيمة.. وقد أرسلك الله لنصرتها!».

وركعت كاترينا إيفانوڤنا أمامه وهي لا تكاد تعي ما تعمله، وصرخ لوجين وقد أخذ منه الغضب: «إن ما تقوله كلام فارغ.. كل كلامك لا معنى له! فكرة جاءتك.. لاحظت.. ما قيمة كل هذا؟ إذن أنا أعطيتها الورقة خلسة عن عمد؟ لماذا؟ لأي غرض؟ لماذا أعمل هذا؟».

قال ليزياتنكوف: «لماذا؟ هذا ما لا أفهمه! أما أني أقول الواقع فهذا مؤكد! بل إني- أيها الرجل الشرير المجرم- أتذكر أني حين كنت أشكرك وأضغط على يدك خطر لي سؤال في الحال: ما الذي دفعك إلى وضع الورقة في جيبها سرًا؟ هل كان غرضك ببساطة أن تخفيها مني لعلمك بأن معتقداتي مخالفة لآرائك، وأني لا أوافق على الإحسان الخاص الذي لا يؤدي إلى علاج حاسم؟ لقد قدرت أنك كنت خجلًا من إعطاء مبلغ كبير كهذا أمامي، وفكرت أيضًا أنك ربما أردت أن تبعث فيها الدهشة حين تجد ورقة بمائة روبل في جيبها- لأني أعرف أناسًا من الخيرين مولعين بعمل الخير بهذه الطريقة.. وجاءتني أيضًا فكرة: هي أنك ربما أردت تجربتها لترى هل تأتي لشكرك حين تجد الورقة.. وفكرت أيضًا أنك ربما كنت زاهدًا في الشكر عملًا بالمثل القائل أن يمينك يجب ألا تعرف... أو شيئًا

كهذا... وفكرت في احتمالات كثيرة حتى أني عدلت عن التفكير فيها.. ولكنني ظننت أن من عدم الكياسة أن أريك أني أعرف سرك.. ثم جاءتني فكرة أخرى هي أن صوفيا سميونوڤنا قد تفقد الورقة قبل أن تلاحظ وجودها، وهذا هو السبب في أني قررت المجيء إلى هنا لأدعوها إلى خارج الغرفة وأخبرها أنك وضعت في جيبها ورقة بمائة روبل.. ولكني في طريقي قصدت مسكن مدام كويلاتنكوف لأعيرها رسالة عامة في الطريقة الإيجابية وأنصحها بنوع خاص بقراءة مقال بيدريت ومقال ڤاجنر، ثم جئت إلى هنا.. فأية حال وجدت؟ هل كان هذا من الممكن؟ هل كان من الممكن أن أفكر في مثل هذه الآراء لو أني لم أرك تضع الورقة ذات المائة روبل في جيبها؟».

وعندما فرغ ليزياتنكوف من خطابه الطويل مختتمًا إياه بهذا الاستنتاج المنطقي كان التعب قد بلغ منه وأخذ العرق يتصبب على وجهه، وكان- ويا للأسف!- لا يحسن التعبير حتى بلغته الروسية، كما كان لا يعرف لغة غيرها، لذلك أنهكت قواه، بل خارت، بعد هذا العمل المجيد.. ولكن حديثه كان له تأثير قوي، وقد تحدث في حماسة وعقيدة حتى أنه كان من الواضح أن كل إنسان صدقه..

وشعر پيوتر بتروڤتش أن الأمور تسير في غير صالحه فصاح: «ما شأني إذا كانت تمر بذهنك خواطر سحيقة؟ هذا ليس بدليل.. فقد تكون حلمت.. وهذا كل ما في الأمر! وأخبرك يا سيدي أنك تكذب! إنك تكذب وتقذف في حقي لشيء في نفسك، أو لمجرد الحقد لأني لم أوافق على آرائك الاجتماعية الحرة الملحدة!».

ولكن هذه الأقوال لم تفد پيوتر بتروڤتش، وارتفعت همهمة الاستنكار من كل جانب، وصاح ليزياتنكوف: «إذن هذا دفاعك الآن.. أن كلامي فارغ؟.. ادع رجال الشرطة إذن وسأقسم أمامهم.. غير أن أمرًا واحدًا لا أفهمه.. ما الذي دفعك إلى هذا العمل الحقير، أيها الرجل الشرير؟..».

فتكلم رسكولنكوف أخيرًا في صوت ثابت وقد تقدم للأمام: «إني أستطيع أن أفسر لماذا غامر بهذا العمل، وإذا كانت هناك ضرورة فسأقسم على ذلك أيضًا..».

وكان ثابتًا هادئًا.. وأحس كل شخص من مجرد منظره أنه يعرف السر حقًا..

ووجه رسكولنكوف الخطاب إلى ليزياتنكوف قائلًا: «إني أستطيع الآن أن أفسر هذا الأمر لنفسي.. لقد ارتبت منذ البداية في أن وراء هذا دسيسة دنيئة! بدأت عندي الريبة لظروف خاصة معروفة لي فقط وسأعلنها للجميع في الحال، فإن فيها تفسيرًا لكل شيء وشهادتك القيمة أوضحت لي كل الأمور، وأرجو الجميع أن يصغوا إليَّ: إن هذا السيد (وأشار إلى لوجين) كان إلى وقت قريب خاطبًا لأختي أفدوتيا رومانوڤنا رسكولنكوف، ولكنه جاء إلى مدينة بطرسبرج وتشاحن معي أول من أمس في أول اجتماع لنا، وطردته من غرفتي، ولديّ شاهدان على ذلك! وهو رجل حقود جدًا.. وأول من أمس عرفت أنه يقيم هنا في غرفتك.. وفي اليوم الذي تشاحنا فيه أول من أمس رآني أعطي كاترينا إيفانوڤنا بعض النقود للجنازة بصفتي صديقًا للسيد مرملادوف الفقيد، فكتب للحال رسالة إلى أمي وأخبرها أني أعطيت كل نقودي لا لكاترينا إيفانوڤنا ولكن لصوفيا سميونوڤنا، وأشار

بطريقة حقيرة جدًا إلى صفات صوفيا سميونوڤنا، وفي هذا إشارة إلى نوع علاقتي بها.. وكان كل هذا- كما تفهمون- للوقيعة بيني وبين أمي وأختي، زاعمًا أني أبعثر الأموال التي أرسلتاها لي في أغراض غير شريفة، وهي كل ما تملكان.. وفي مساء أمس أعلنت أمام أمي وأختي وفي حضوره أني أعطيت هذا المال لكاترينا إيفانوڤنا من أجل الجنازة لا لصوفيا سميونوڤنا، وأني لم أتصل بصوفيا سميونوڤنا ولم أرها من قبل، وهذا صحيح.. وقلت في الوقت ذاته إن پيوتر بتروڤتش لوجين بكل فضائله لا يساوي خنصر صوفيا سميونوڤنا بالرغم مما يقوله عنها من سوء.. وعندما سألني هل أسمح لصوفيا سميونوڤنا بأن تجلس إلى جانب أختي أجبت بأني فعلت ذلك في ذاك اليوم، وقد تضايق لأن أمي وأختي رفضتا العراك معي بدسائسه فبدأ تدريجًا يظهر خشونة لا تغتفر نحوهما، وانتهى الأمر بالقطيعة وطرده من المنزل..

حدث هذا في مساء أمس، والآن أرجو أن تنتبهوا جيدًا، وتفكروا أنه لو نجح الآن في إثبات أن صوفيا سميونوڤنا لصة لأظهر لأمي وأختي أنه كان على صواب في شكوكه، وأن لديه من الأسباب ما يحمله على الغضب إذ أضع أختي في مستوى صوفيا سميونوڤنا، وأنه بمهاجمته إياي إنما يحمي خطيبته ويحافظ على شرفها وهي أختي.. والواقع أنه ربما كان يستطيع بهذا أن يوجد شقاقًا بيني وبين أسرتي، ولا شك أنه كان يعود إلى مكانته عندهما، فضلًا عن الانتقام مني شخصيًا لأن لديه من الأسباب ما يحمله على الظن بأن شرف صوفيا سميونوڤنا وسعادتها مما له قيمة كبيرة عندي! هذا ما كان يعمل له! هذا فهمي للمسألة، وهذا هو السبب كله وليس من

سبب آخر!».

تكلم رسكولنكوف هذا الكلام أو ما يشبهه، وكان الجميع يتتبعون حديثه باهتمام ويقاطعونه كثيرًا بعلامات الدهشة، ولكنه بالرغم من المقاطعات تكلم في وضوح وهدوء وإصرار وثبات، وكان في صوته القاطع لهجة الثقة فيما يقول وأثر وجهه المقطب في كل شخص..

وأيده ليزياتنكوف في ابتهاج قائلًا: «نعم! نعم! هذا صحيح! لا بد أن الأمر كذلك.. لأنه سألني بمجرد مجيء صوفيا سميونوفنا إلى الغرفة هل كنت هنا وهل رأيتك بين ضيوف كاترينا إيفانوڤنا، وقد دعاني إلى النافذة وسألني ذلك سرًا، وكان من الضروري لديه أن تكون هنا! هذا هو الأمر! هذا هو الأمر!».

وكان لوجين يبتسم احتقارًا ولا يتكلم، وقد امتقع لونه جدًا.. ويظهر أنه يفكر في طريقة للخلاص، وربما يسره لو أنه عدل عن كل شيء وغادر المكان.. ولكن ذلك بدا مستحيلًا في تلك اللحظة، إذ معناه الاعتراف بصحة الاتهامات التي وجهت إليه، وفضلًا عن ذلك فإن الحاضرين وقد نال منهم الشراب، كانوا قد تأثروا بحيث لا يسمحون بذلك. وكان كاتب الشرطة- مع أنه لم يفهم الموقف بأكمله- يصيح بصوت أعلى من الجميع، ويبدي بعض مقترحات لا تسر لوجين مطلقًا.. ولم يكن جميع الحاضرين سكارى، فقد جاء السكان من جميع الغرف وكان البولنديون الثلاثة في شدة التأثر وهم يصيحون به دائمًا: «إن السيد وغد!» ويهددونه بالبولندية.. وكانت سونيا تسمع في اهتمام كبير، وإن كانت في الغالب لا تفهم كل ما قيل، وكأنها لم تسترد مشاعرها إلا في تلك اللحظة.. وكانت

لا ترفع عينيها عن رسكولنكوف وكأنها تشعر بأن سلامتها تتوقف عليه.. وكانت كاترينا إيفانوڤنا تتنفس في صعوبة وفي ألم، وقد بدا عليها الإرهاق الشديد.. ووقفت أماليا إيفانوڤنا وقد بدا عليها الغباء أكثر من أي إنسان آخر، وهي فاغرة فاها غير قادرة على تفهم ما حدث، وكل ما أدركته أن پيوتر بتروڤتش وقع لأمر ما في مأزق..

وحاول رسكولنكوف أن يتكلم مرة ثانية، ولكنهم لم يسمحوا له، فقد كان الجميع يتزاحمون حول لوجين يهددونه ويسبونه، ولكن پيوتر بتروڤتش لم يرهب جانبهم، وقد رأى أن اتهامه لسونيا فشل تمامًا فالتجأ إلى العجرفة!

وقال وهو يخترق الجمع: «اسمحوا لي يا سادة.. اسمحوا لي! لا تضغطوا! دعوني أمر.. وأرجو ألا تهددوني! أؤكد لكم أن لا فائدة من ذلك، وأنتم لا تستطيعون عمل شيء، ولست خائفًا مطلقًا منكم.. إنكم أنتم المسئولون يا سادة؛ لأنكم عملتم بالقوة على منع سير العدالة! لقد أوضحت جريمة اللصة وسأتخذ إجراءات الاتهام، وليس قضاتنا فاقدي البصيرة ولا بالسكارى.. ولن يأخذوا بشهادة اثنين معروفين بإلحادهما وميولهما الثورية وكفرهما بالله، وهما يتهماني تشفيًا وانتقامًا، وبلغت بهما السخافة أن أقرا بذلك.. اسمحوا لي!».

قال ليزياتنكوف: «لا أريد أن أرى أثرًا لك في غرفتي ولتنتقل منها، فكل شيء انتهى بيننا! أي تعب ضائع وأي مجهود أنفقته كي أفسر لك.. في هذين الأسبوعين!».

فرد عليه: «لقد قلت لك يا أندريه سميونوڤتش أني سأرحل فحاولت

أن تستبقيني، وفي هذا الوقت لا أقول لك أكثر من إنك غبي وأرجو أن تنشد طبيبًا لتعالج عينيك ورأسك.. أفسحوا لي يا سادة!..».

وشق طريقه بينهم، ولكن كاتب الشرطة لم يقنع بتركه يمر في سهولة فأمسك بكوبة ورماها بقوة نحو پيوتر بتروڤتش، ولكن الكوبة أصابت أماليا إيفانوڤنا فصرخت صرخة شديدة.. أما الكاتب ففقد توازنه وسقط بثقله وتدحرج تحت المنضدة.. ووصل پيوتر بتروڤتش إلى غرفته، وبعد نصف ساعة كان قد غادر الغرفة.. وكانت سونيا- وهي خجول بطبيعتها- تشعر قبل هذا اليوم أنه يمكن الإساءة إليها أكثر من الإساءة إلى الآخرين، وأن تمر الإهانة بلا عتاب. ولكنها كانت تظن حتى تلك اللحظة أنها تستطيع تجنب السوء بالعناية والرقة والخضوع؛ على أن خيبة آمالها كانت عظيمة، فهي تستطيع أن تتحمل بلا ريب في صبر دون تذمر أي شيء حتى هذا! ولكن في الدقيقة الأولى كان الكأس أشد مرارة مما قدرت، وبالرغم من انتصارها وظهور براءتها بعد أن ذهب خوفها ودهشتها، وفهمت كل شيء بوضوح، كان شعورها بعجزها والإهانة التي لحقت بها مما جعل قلبها يفيض ألمًا. فاندفعت في بكاء عصبي، ولم تستطع أخيرًا تحمل أكثر من ذلك فخرجت مسرعة من الغرفة.. وجرت إلى مسكنها على أثر رحيل لوجين. وحين أصابت الكوبة أماليا إيفانوڤنا وارتفع ضحك عال لم تستطع صاحبة الدار أن تتحمل هذا، فهجمت على كاترينا إيفانوڤنا وهي تصرخ صرخة الغضب وقد اعتبرتها المسئولة عن كل هذا: «اخرجي من مسكني! في الحال! هيا أسرعي!».

وأخذت تختطف كل ما تقع عليه يدها مما تملكه كاترينا إيفانوڤنا

وتلقي به إلى الأرض.. وقفزت كاترينا إيفانوڤنا وهي ممتقعة اللون يكاد يغمي عليها وقد أعوزها النفس، من الفراش الذي كانت قد ارتمت عليه من الإعياء وهجمت على أماليا إيفانوڤنا، لكن المعركة لم تكن متساوية فإن صاحبة البيت أزاحتها وكأنها ريشة، وولولت المرأة المسكينة، وهي تبكي وتتنهد:

- ماذا؟ كأن هذه الأكذوبة الحقيرة لم تكن كافية.. فتهاجمني هذه المرأة الشريرة! ماذا؟ في يوم جنازة زوجي أطرد من مسكني! بعد أن تأكل من خبزي وملحي تلقي بي إلى الشارع مع أطفالي اليتامى! إلى أين أذهب؟

وصاحت وقد برقت عيناها: «رباه! ألا يوجد عدل في هذه الأرض؟ من تحميه إذا لم تكن الأرامل واليتامى؟.. سترين أن في الأرض قانونًا وعدلًا، وسأجده! انتظري لحظة أيتها المرأة الجحود! پولنكا! انتظري مع الأطفال حتى أعود! انتظري عودتي ولو في الشارع! وسترين إذا كان هناك عدل في هذه الأرض..».

ورمت كاترينا إيفانوڤنا على رأسها ذلك الشال الأخضر الذي ذكره مرملادوف لرسكولنكوف، واخترقت طريقها وسط هذا الجمع من السكان الذي يملأ الغرفة بضجته وسكاراه وهي تولول وتبكي، وجرت إلى الشارع ولديها نية غامضة بأن تذهب في الحال لتجد العدالة.. واحتضنت پولنكا الطفلين الصغيرين بين ذراعيها وقبعت وهي خائفة فوق الحقيبة في ركن الغرفة منتظرة عودة أمها. وظلت أماليا إيفانوڤنا تسير في الغرفة وهي تصرخ وتهدد وترمي كل شيء تجده أمامها إلى الأرض، وكان السكان يلغطون ويعلق البعض منهم بقدر ما يستطيع على ما حدث، ويتشاجر البعض

ويسب، بينما أخذ البعض ينشد نشيدًا!..

وفكر رسكولنكوف: «لقد حان الوقت لذهابي! سنرى يا صوفيا سميونوڤنا ماذا تقولين الآن!».

وخرج متجهًا إلى مسكن سونيا..

* * *

(٤)

دافع رسكولنكوف دفاعًا قويًا جريئًا عن سونيا أمام لوجين، بالرغم مما يحمله قلبه من مخاوف وآلاف.. ولكنه وقد تحمل الشيء الكثير في هذا الصباح، وجد نوعًا من الراحة في تغير المشاعر، وذلك فضلًا عن شعوره الشخصي القوي الذي حمله على الدفاع عن سونيا. وكان يشعر باضطراب في بعض اللحظات حين يفكر في اجتماعه المقبل بسونيا، إذ عليه أن يكشف لها عن قاتل ليزاڤتا.. وكان يعلم ما سوف يسببه له ذلك من آلام فظيعة، فحاول أن يبعد عنه هذا التفكير. ولذلك فإنه حين صاح عند مغادرته لغرفة كاترينا إيفانوڤنا: «سنرى ماذا تقولين عن قريب يا صوفيا سميونوڤنا» كان لا يزال في نشوة انتصاره على لوجين وقوة تحديه. ولكن من الغريب أنه عندما بلغ مسكن سونيا أحس فجأة بضعف شديد وخوف، ووقف مترددًا أمام الباب يسأل نفسه: «هل يجب أن أقول لها من

قتل ليزاڤتا؟».. وكان السؤال غريبًا؛ لأنه في تلك اللحظة ذاتها بدا له أنه لا بد من إخبارها.. وليس ذلك فقط بل من المستحيل أن يؤجل هذا الأمر؛ وكان يجهل لماذا لا يرى بدًا من ذلك، وإنما كان يشعر به في بساطة.. وكان إحساسه الأليم بضعفه يكاد يحطمه، ولذلك أسرع في فتح الباب ليضع حدًا لتردده وآلامه، ونظر إلى سونيا وهو واقف في مدخل الغرفة.. وكانت جالسة وقد أسندت مرفقيها على المنضدة ووجهها بين يديها، فما رأت رسكولنكوف حتى خفت للقائه وكأنها في انتظاره، وفتحت له في سرعة.. والتقت به وسط الغرفة وهي تقول: «ماذا كان مصيري لولاك؟».

ومن الواضح أنها كانت تريد أن تقول له هذا في أقرب فرصة، ولهذا الغرض كانت في انتظاره. وقصد رسكولنكوف المنضدة وجلس على الكرسي الذي أخلته، وظلت هي واقفة على خطوتين منه كما فعلت تمامًا في اليوم السابق.

وسألها وقد شعر بأن صوته يرتعش: «حسنًا يا سونيا؟ إن كل هذا كان بسبب مركزك الاجتماعي والعادات الملازمة له.. هل فهمت هذا اليوم؟».

وارتسم الألم على وجه سونيا وقاطعته قائلة: «كل ما أرجوه ألا تتكلم كما تكلمت بالأمس، وألا تستأنف ذاك الحديث.. فكفاني تعاسة من غير ذلك!».

وأسرعت بالابتسام وقد خشيت أن يتضايق من هذا اللوم وقالت: «لقد كنت بلهاء في تركهم، فماذا حدث لهم هناك الآن؟ وكنت أريد العودة، ولكني فكرت في أنك ستأتي!».

فروى لها كيف طردتهم أماليا إيفانوفنا من مسكنهم، وكيف خرجت كاترينا إيفانوفنا تبحث عن العدالة! فصاحت سونيا: «رباه! لنذهب في الحال!».

وأمسكت بمعطفها.. وصاح رسكولنكوف متضايقًا: «ستظلين هكذا دائمًا.. لا تفكرين إلا فيهم! فلتبقي معي قليلًا!».

- و... كاترينا إيفانوفنا؟..

فقال في لهجة خشنة: «تأكدي أنك لن تفقدي كاترينا إيفانوفنا، وستأتي إليك حيث إنها خرجت جارية!» وأضاف قائلًا في تبرم وضيق: «وإذا لم تجدك هنا فإنك ستلامين على ذلك...!».

وجلست سونيا وهي في قلق شديد، وسكت رسكولنكوف وهو مطرق إلى الأرض يفكر.. ثم بدأ يتكلم دون أن ينظر إلى سونيا: «لنفرض أن لوجين لم يرد اتهامك هذه المرة، ولكنه لو أراد وكان ذلك ملائمًا لمشروعاته، لاستطاع أن يضعك في السجن لو لم يكن ليزياتنكوف وأنا حاضرين! أليس كذلك؟».

فقالت في صوت ضعيف: «نعم!».. ثم عادت فكررت وهي مشغولة وقلقة: «نعم!».

- وكان من الممكن ألا أكون موجودًا.. أما فيما يتعلق بليزياتنكوف فإن مجرد الصدفة هي التي أوجدته!

والتزمت سونيا الصمت..

- وإذا ذهبت إلى السجن فماذا يكون؟.. هل تتذكرين ما قلته لك

أمس؟

فظلت صامتة، وانتظر هو لحظة ثم استطرد يقول:

- ظننت أنك ستصيحين بي مرة ثانية: «لا تتكلم في هذا! دع هذا!».

وضحك ضحكة مغتصبة ثم سأل بعد لحظة: «سكوت دائمًا؟.. يجب أن تقولي شيئًا على كل حال... فإني أتطلع لمعرفة كيف تحلين مسألة معينة، كما يقول ليزياتنكوف.. (وأخذ يفقد خيط الحديث) لا، إني أتكلم جديًا! افرضي يا سونيا أنك كنت تعرفين مقدمًا نيات لوجين، وأنك كنت تعلمين مؤكدًا أن في ذلك القضاء على كاترينا إيفانوفنا وعلى الأطفال وعليك أيضًا بالجملة- وأقولها لأنك ليست لديك ذرة من التقدير لنفسك- وكذلك پولنكا... لأنها ستسلك الطريق نفسه.. حسنًا.. إذا كان عليك أن تقرري من الذي يبقى في هذه الحياة: لوجين مع مساوئه أو كاترينا إيفانوفنا، فماذا كنت تقررين؟ ومن منهما يجب أن يموت؟ أجيبي!».

تأملت سونيا فيه بقلق، فقد تبينت شيئًا خاصًا وراء هذا السؤال المتردد الذي يقترب من أمر من الأمور بطريقة ملتوية.. ثم قالت وقد نظرت إليه نظرة فاحصة: «لقد شعرت بأنك ستسأل سؤالًا كهذا!».

- أعتقد أنك شعرت! ولكن كيف تجيبين عليه؟

قالت سونيا في تردد: «لماذا تسأل عن أمور لا يمكن أن تحدث؟».

- هل ترين أن يعيش لوجين ويأتي الشر؟ إنك لم تقرري شيئًا حتى في هذا الأمر!

- إن لله حكمة في ذلك لا يمكن أن أعرفها... فلماذا تسألني عن

أشياء لا تمكن الإجابة عنها؟ ما الفائدة من هذه الأسئلة التي لا طائل من وراءها؟ كيف يتوقف هذا على إرادتي ومنذا الذي جعل مني قاضيًا أقرر الموت أو الحياة؟

فقال رسكولنكوف في استياء: «إذا دخلت حكمة الله في هذا فليس لي ما أقوله!».

صاحت سونيا في ألم: «فلتقل إذن صراحة ماذا تريد، وإلام تريد الوصول؟.. فهل جئت لتعذيبي؟».

ولم تستطع السيطرة على نفسها واندفعت في البكاء، وظل يراقبها في ألم شديد مظلم، ومضت هكذا خمس دقائق..

ونطق أخيرًا في صوت رقيق: «إنك على حق يا سونيا!». وقد حدث فيه تغير مفاجئ، فذهبت لهجة الكبرياء المفتعلة وعدم المبالاة وبدا صوته ضعيفًا..

– لقد قلت لك أمس إني لا أحضر للاعتذار إليك، ومع ذلك أكاد أبدأ حديثي بأن أسألك العفو... وإن ما قلته عن لوجين وعن العناية الإلهية إنما أقصد به نفسي، وإني أسألك المغفرة يا سونيا..

وحاول أن يبتسم ولكن ابتسامته الباهتة كان فيها ما ينم على أنها لم تكن ابتسامة كاملة أو قوية، فأحنى رأسه وغطى وجهه بيديه..

وفجأة شعر نحو سونيا بعاطفة غريبة، هي كراهية عميقة اخترقت قلبه.. فرفع رأسه يراقبها وكأنه دهش، وخاف لهذا الشعور ولكنه رأى عينيها القلقتين المتأملتين مثبتتين فيه. وكان فيهما دلالات الحب.. فزالت

الكراهية من قلبه كما تزول الأشباح، إذ لم تكن هي العاطفة الحقيقية، بل إنه أخطأ فظن إحدى العاطفتين هي الأخرى، ولم يكن لذلك معنى إلا أن اللحظة قد حانت..

فأخفى وجهه بين يديه وأحنى رأسه وامتقع لونه فجأة وقام من مقعده ونظر إلى سونيا، ودون أن يقول شيئًا جلس في حركة آلية على سريرها.. وكانت عواطفه في تلك اللحظة تشبه مشابهة عجيبة اللحظة التي مرت به حين كان واقفًا أمام العجوز والفأس في يده، وقد شعر بأنه ليس أمامه دقيقة واحدة يضيعها.

وسألت سونيا وقد انتابها خوف شديد: «ماذا بك؟».

ولم يستطع أن يقول شيئًا، فما كانت تلك طريقته التي أراد بها أن يبوح بالأمر، ولم يكن فاهمًا ما يمر به الآن. أما هي فاقتربت منه في سكون، وجلست إلى جانبه على السرير، وانتظرت دون أن تحول عينيها عنه.. وكان قلبها يدق في شدة، وصار كل هذا مما لا يحتمل.. وأدار نحوها وجهه الممتقع كلون الموتى، وقد تحركت شفتاه وهو يبذل مجهودًا كي يتكلم، وطغى الخوف على قلب سونيا..

وكررت وقد ابتعدت عنه قليلًا: «ماذا بك؟».

فتمتم وكأنه يهذي: «لا شيء يا سونيا.. لا تخافي، إنه لأمر لا قيمة له.. في الحق أنه أمر لا قيمة له إذا فكرت فيه...».

ثم أضاف قائلًا وقد نظر إليها فجأة: «ولكن لماذا جئت لأعذبك؟ حقًا، لماذا؟ لا أنقطع عن إلقاء هذا السؤال على نفسي يا سونيا..».

ربما كان قد ساءل نفسه هذا السؤال قبل ربع ساعة، أما في الوقت الحاضر فقد كان يتحدث يائسًا وكأنه لا يشعر بما يقول، وقد استولت عليه رعشة عصبية، وقالت سونيا في ألم وهي تتمعن في وجهه: «ما أشد آلامك!».

- لا شيء من هذا! اسمعي يا سونيا..

وظهرت على فمه ابتسامة باهتة مدة لحظتين: «هل تذكرين ما أردت أن أقوله لك أمس؟».

وانتظرت سونيا في قلق..

- لقد صرحت لك ونحن نفترق أني ربما أقول لك وداعًا للأبد.. ولكني جئت اليوم لأعلمك من الذي قتل ليزاڤتا...

فأخذ كل جزء من جسدها يرتعد..

- لقد جئت لأقول لك هذا!

تمتمت في ألم: «حقًا كان ذلك مساء الأمس..». ثم سألت في حماسة كأنها عادت إلى عقلها: «ولكن كيف عرفته؟».

وابتدأت سونيا تتنفس في جهد، وزاد وجهها امتقاعًا فقال: «إني أعرفه!».

وظلت لحظة وهي ساكتة، ثم سألت: «هل قبض عليه؟».

- لا!

فسألت في صوت لا يكاد يكون مسموعًا بعد سكوت جديد: «إذن

كيف عرفت هذا؟».

فأدار وجهه إليها ونظر إليها في إمعان، وقال وهو يبتسم ابتسامة الضعف المحزنة: «خمني!».

وعرتها رعشة، ثم قالت وهي تبتسم كالطفل: «ولكن.. لماذا تخيفني على هذه الصورة؟».

واستمر رسكولنكوف يقول وقد ثبت نظره فيها كأنه لا يستطيع أن يتحول عنها: «لا بد أن أكون صديقًا حميمًا له.. حيث إني أعرفه.. إنه لم يقصد قتل ليزاڤتا هذه... فقد قتلها صدفة... كان عازمًا على قتل العجوز وهي منفردة، وذهب إلى دارها، ولكن ليزاڤتا دخلت مسكنها فقتلها أيضًا..».

ومرت لحظة رهيبة أخرى على الاثنين، وكان كل منهما ينظر للآخر.. ثم سألها فجأة وقد شعر كأنه ألقى بنفسه من أعلى برج كنيسة: «ألم تخمني بعد؟».

فهمست سونيا: «لا...».

- انظري إليَّ جيدًا!...

وبمجرد أن قال هذا القول مرة ثانية، شعر بالإحساس المعروف يجمد من قلبه، ونظر إليها وقد خيل إليه فجأة أنه يرى في وجهها وجه ليزاڤتا، حين اقترب منها بالبلطة وارتدت إلى الحائط وقد مدت يدها وارتسم على وجهها الرعب كالأطفال الصغار حين يأخذهم الخوف من أمر فيحدقون بقلق فيما يخيفهم، بينما هم يتراجعون ويرفعون أيديهم وهم على وشك

البكاء.. وقد حدث مثل هذا الأمر تقريبًا لسونيا، فجعلت تنظر إليه لحظة في مثل هذا العجز وهذا الخوف، ثم مدت فجأة يدها اليسرى ولمست بأصابعها صدره لمسًا خفيفًا، وأخذت تقوم من السرير في بطء وهي تبتعد عنه ولكنها لا تحول عينيها عنه، وانتقل إليه منها الخوف وارتسم على وجهه، فأخذ بالطريقة نفسها يحدق فيها ويبتسم ابتسامة الطفولة نفسها، وهمس أخيرًا: «هل خمنت؟».

وصاحت في ولولة رهيبة خرجت من أعماق صدرها: «رباه!».

ثم رمت بنفسها في عجز على الفراش ووجهها إلى المخدة، ثم قامت بعد لحظة وتحركت سريعًا نحوه وأمسكت بيديه وضغطت عليهما بشدة بين أصابعها النحيلة، وأخذت تحدق في وجهه بنظرتها المتأملة مرة ثانية.. وفي هذه النظرة الأخيرة اليائسة حاولت أن تصل إلى أعماق نفسه وتمسك بخيط أخير من أمل، ولكن لم تجد سبيلًا للأمل ولم يبق لديها من شك! فكان كل شيء حقيقيًا، وكانت حين تتذكر تلك اللحظة فيما بعد تراها غريبة وتتعجب لماذا اعتقدت أن لا شك هنالك! فهي مثلًا لا تستطيع أن تقول إنها كانت تتوقع شيئًا من هذا، ولكنها الآن بمجرد أن أخبرها خيل إليها أنها توقعت هذا الأمر عينه حقًا..

وتوسل إليها في تعاسة: «كفى يا سونيا! لا تعذبيني!».

لم يكن يريد إخبارها على هذه الصورة مطلقًا! ولكن هكذا حدث..

قفزت وكأنها لا تشعر بما تفعل، ومشت إلى وسط الغرفة وهي تقرع كفًا بأخرى، ثم عادت سريعًا وجلست إلى جانبه وكتفها يكاد يلمسه.. ثم

هبت فجأة كأن طعنة أصابتها، وصرخت وركعت على ركبتيها أمامه دون أن تعرف لماذا..

وقالت في يأس: «ماذا فعلت؟ ماذا فعلت بنفسك؟».

ثم قفزت وارتمت على رقبته وطوقته بذراعيها، وعانقته في قوة..

ورجع رسكولنكوف إلى الوراء ونظر إليها وعلى فمه ابتسامة حزينة..

- إنك فتاة عجيبة يا سونيا.. تقبلينني وتحتضنينني بينما أخبرك عن ذلك؟ إنك لا تفكرين فيما تفعلين..

صاحت في سورة دون أن تستمع إلى ما قال: «لا أحد.. لا أحد في العالم بأسره أشد تعاسة منك..».

ثم اندفعت فجأة في بكاء عصبي عنيف..

وطغى على قلبه إحساس كان قد نسيه منذ زمن بعيد، ورق قلبه للحال ولم يقاوم هذا الإحساس، وبدت دمعتان في عينيه وقفتا عند أهدابه..

وقال وهو ينظر إليها فيما يشبه الأمل: «إذن سوف لا تتركينني يا سونيا؟».

فصاحت سونيا: «لا! لا! لان أتركك أبدًا! سأتبعك إلى أي مكان! رباه! ما أتعسني!.. لماذا.. لماذا.. لماذا لم أعرفك من قبل؟ لماذا لم تأت من قبل؟ رباه!».

- هأنذا جئت!

- نعم.. الآن! ماذا نعمل الآن؟... معًا! معًا!..

كررت هذا القول وكأنها تفعل دون وعي، وعانقته ثانية: «سأتبعك.. إلى سيبيريا!».

تراجع عند هذا القول وظهرت على شفتيه تلك الابتسامة العدائية المتكبرة وقال: «ربما أني لا أريد الذهاب إلى سيبيريا..».

ونظرت سونيا إليه سريعًا، وطغت عليها لحظة فكرة القتل الفظيعة بعد العطف الشديد الأليم على الرجل التعس. وخيل إليها أنها تسمع كلام القاتل في نغمته المتغيرة. فنظرت إليه في حيرة، ولم تكن قد عرفت بعد لماذا، وكيف، وما هو غرضه من فعل ما فعله! وأسرعت جميع هذه الأسئلة إلى عقلها، ثم عادت تفكر فيما حدث وتتساءل: «هل هو قاتل؟ هل هذا حقيقي؟».

وأجاب في تعب، أو ما يكاد يشبه المضايقة: «فعلت ذلك.. لكي أسطو! اتركي هذا الموضوع يا سونيا..».

وقفت سونيا ساكتة كأنما أصابها خرس، ثم صاحت فجأة: «كنت جائعًا.. أو لعلك أردت مساعدة والدتك.. أليس كذلك؟».

تمتم قائلًا، وقد تلفت ناحية أخرى وأحنى رأسه: «لا يا سونيا، لا! لم أكن جائعًا... إنني فعلًا أردت مساعدة أمي.. ولكن لم يكن هذا هو السبب الحقيقي أيضًا... لا تعذبيني يا سونيا!».

وضمت سونيا يديها: «هل يمكن، هل يمكن أن يكون ذلك حقًا؟ رباه! هل هو حقيقة؟ من كان يصدق ذلك؟ وكيف تهب آخر مال في جيبك ومع ذلك تسرق وتقتل؟».

ثم صاحت فجأة: «آه! هذه النقود التي أعطيتها لكاترينا إيفانوڤنا.. هذه النقود... هل هذه النقود...».

قاطعها في سرعة: «لا يا سونيا.. هذه النقود كانت غيرها! لا تشقي نفسك! لقد أرسلت أمي إليَّ هذه النقود، ووصلتني وأنا مريض في اليوم الذي أعطيتها لكم... وقد رآها رازوميهين... وتسلمها بدلًا مني... كانت هذه نقودي، وملكي!».

أصغت إليه سونيا في حيرة، وبذلت أقصى جهدها لتفهم.. وأضاف في صوت منخفض وكأنه يفكر: «أما تلك النقود.. فإني لا أعرف تمامًا هل كانت هنالك نقود... لقد أخذت من عنقها كيسًا من جلد ناعم... وكان مليئًا... ولكني لم أنظر فيه، وأظن أنه لم يكن عندي وقت.. أما الأشياء الأخرى من سلاسل وحلي، فإني دفنتها مع الكيس تحت حجر في صباح اليوم التالي في فناء على مقربة من ساحة ف... وكل هذه الأشياء هنالك الآن!».

وجمعت سونيا كل أعصابها وهي تسمعه، وسألت سريعًا وكأنها تتعلق بقشة لإنقاذه: «إذن لماذا.. لماذا قلت إنك قتلت لتسرق، في حين أنك لم تأخذ شيئًا؟».

قال وهو يفكر مرة ثانية: «لا أعلم.. لم أقرر بعد هل آخذ هذه النقود أو لا آخذها».

ثم كأنه استيقظ فجأة، فابتسم ابتسامة قصيرة فيها سخرية، وتساءل: «بأية سخافات أتحدث؟».

ومر في ذهن سونيا خاطر سريع: ألا يكون مجنونًا؟

وقال هو لنفسه: لا! إن هنالك أمرًا آخر! ولكنها لا تستطيع أن تفهم شيئًا مطلقًا..

ثم قال فجأة عن عقيدة، وهو يؤكد كل كلمة وينظر إليها نظرة غامضة وإن كانت مخلصة: «هل تعلمين يا سونيا؟.. دعيني أخبرك أني لو كنت قتلتها لمجرد أني جائع لكنت الآن سعيدًا! يجب أن تصدقي هذا».

ثم صاح فجأة في نوع من اليأس: «ماذا يهمك؟ ماذا يهمك لو أني اعترفت أني كنت مخطئًا؟ ماذا تكسبين بمثل هذا الانتصار السخيف عليَّ؟ آه يا سونيا.. هل جئت إليك اليوم من أجل هذا؟».

وحاولت سونيا مرة ثانية أن تقول شيئًا، ثم لم تتكلم..

– سألتك أمس أن تذهبي معي، لأنك كل ما بقي لي!

سألت سونيا في حياء: ««إلى أين أذهب؟»».

فابتسم في مرارة وقال: «لا لتسرقي ولا لتقتلي! لا يأخذنك القلق! إننا نختلف اختلافًا كبيرًا... هل تعلمين يا سونيا أني لم أفهم إلى أين كنت أريد أن تذهبي معي أمس إلا... الآن... في هذه اللحظة؟.. فعندما قلت لك ذلك أمس لم أكن أعرف إلى أين.. سألتك لأمر واحد، وجئت إليك لأمر واحد- كي لا تتركيني.. سوف لا تتركينني، أليس كذلك؟».

وضغطت سونيا على يده..

وصاح بعد لحظة في يأس، وهو ينظر إليها في ألم شديد: «ماذا؟ لماذا أخبرتها؟ لماذا أوقفتها على هذا؟ كنت تريدين تفسيرًا مني يا سونيا!

أراك جالسة تنتظرين هذا التفسير، ولكن بماذا أخبرك؟ إنك لا تفهمين، وستشعرين فقط بالتعاسة... من أجلي! إنك تبكين وتعانقينني مرة ثانية.. لماذا تفعلين هذا؟ لأني لم أستطع أن أحمل العبء، وألقيته على آخر.. فأنت تتألمين أيضًا، وأنا أشعر بأني أحسن حالًا! هل تحبين وغدًا دنيئًا كهذا؟».

صاحت سونيا: «ألا تتعذب أنت أيضًا؟».

وطغى على قلبه مرة ثانية ذلك الإحساس، فرق قلبه لحظة:

- سونيا! إن قلبي مليء بالسوء، فلاحظي هذا.. قد يفسر هذا أمورًا كثيرة.. لقد جئت إليك لأني رجل شرير، وهنالك رجال كانوا لا يأتون، ولكنني جبان و... وحقير! ولكن.. دعي هذا! ليست هذه هي المسألة! يجب أن أتكلم الآن، ولكني لا أعرف كيف أبتدئ!

وقف لحظة وغاص في أفكاره، ثم صاح ثانية: «حقًا إننا مختلفان! نحن لا نتشابه! ولكن لماذا.. لماذا جئت؟ لن أعفو عن نفسي من أجل هذا!».

صاحت سونيا: «لا! لا! لقد أحسنت بمجيئك! من الخير أن أعرف! إني أفضل ذلك كثيرًا».

ونظر إليها في ألم شديد، ثم قال وكأنه وصل إلى نتيجة: «ماذا لو أني كنت كذلك حقًا؟ أجل، هذا ما كان! لقد أردت أن أكون مثل نابليون! وهذا هو السبب في أني قتلتها!... هل تفهمينني؟».

وهمست سونيا في بساطة وحياء: «لا! ولكن تكلم! تكلم! وسأفهم!

سأفهم في أعماق نفسي...».

وظلت تتوسل إليه..

- ستفهمين؟ حسنًا! سترين..

ثم صمت هنيهة وظل يفكر:

- لقد حدث هذا الأمر.. وهكذا سألت نفسي- في أحد الأيام- سؤالًا: ماذا يكون من أمر نابليون مثلًا، لو أنه في مكاني ولم تكن أمامه فرصة طولون أو مصر أو طريق الجبل الأبيض ليبدأ مستقبله، وبدلًا من هذه الأشياء الشائقة العظيمة كانت هنالك امرأة عجوز سخيفة تقرض النقود ويجب عليه أن يقدم على قتلها كي يحصل على نقود من حقيبتها (ليبدأ مستقبله كما تفهمين)؟ هل يقدم على هذا الأمر لو لم يكن هنالك سبيل آخر؟ وهل كان يشعر بوخز الضمير لأن العمل بعيد عن العظمة... ويعترف بارتكابه خطيئة أيضًا؟ يجب أن أخبرك أني أرهقت نفسي بهذه المسألة... حتى أني شعرت بخجل شديد حين بدا لي (فجأة بطريقة ما) أنه ما كان ليشعر مطلقًا بأي وخز، وأنه ما كان ليفكر مطلقًا بأن هذا العمل غير عظيم... وأنه ما كان ليرى أن هنالك ما يقف عنده، وأنه إذا لم تكن أمامه طريقة أخرى لما تردد لحظة في خنقها دون أن يفكر في هذا الأمر... ففعلت أنا أيضًا مثله.. وتركت التفكير في هذا الأمر... وقتلتها... احتذاء به.. هذا ما حدث تمامًا! هل تظنين في هذا ما يدعو إلى الضحك؟ نعم يا سونيا، إن أكبر ما يدعو إلى الضحك أنه حدث هكذا..

لم تظن سونيا مطلقًا أن في ذلك ما يدعو للضحك، توسلت إليه في

حياء وفي صوت لا يكاد يسمع: «أخبرني في صراحة.. دون أمثلة..».

فاستدار نحوها، وأمسك بيديها ونظر إليها نظرة حزينة وقال:

- إنك أيضًا على حق يا سونيا! كل هذا هراء لا طائل من ورائه!.. إنك ترين أن أمي لا تكاد تمتلك شيئًا، وقد حدث أن كانت أختي متعلمة فقدر عليها أن تقضي حياتها كمربية، وكنت أنا أملهما الوحيد، وقمت بدراساتي، ولكن لقلة وسائل المعيشة اضطررت مؤقتًا إلى ترك الجامعة.. ولنفرض أني استمررت في دراستي، فإني كنت آمل بعد عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة- لو سارت الأمور على خير منوال- أن أعين مدرسًا أو موظفًا بمرتب ألف روبل... (وكان كأنه يسمّع درسًا) وإلى أن يتم ذلك، لا بد أن توهن قوى والدتي المتاعب والأحزان، ولا يكون من المستطاع لديّ أن أوفر لها الراحة. أما أختي... أما أختي فقد يحدث لها ما هو شر من ذلك... ومن الصعب أن يمر الإنسان مرًا سريعًا على كل هذا، ويدير ظهره لكل شيء، وينسى أمه ويقبل توجيه الإهانة إلى أخته.. لماذا يقبل هذا؟ وبعد أن يدفنهما يحمل نفسه عبئًا آخر- بزوجة وأطفال- كي يترك هؤلاء بدورهم في شقاء؟.. لذلك قررت الاستيلاء على مال العجوز؛ لكي أضمن وجودي في الجامعة وخطواتي الأولى في الحياة دون أن أرهق أمي.. لقد فكرت في القيام بكل هذا على أساس واسع متين.. كي أبني مستقبلًا جديدًا وأسير في طريق مستقل! حسنًا! هذا كل شيء! ومن الطبيعي أني أتيت عملًا سيئًا بقتل العجوز... وهذا يكفي!

وكان يحاول أن يتم حديثه وهو متعب، ثم خفض من رأسه..

صاحت سونيا متألمة: «ليس هذا هو السبب! هل يمكن هذا؟ لا!

هنالك سبب آخر!».

- هل ترين أن هذا ليس السبب؟ ومع ذلك لقد قصصت كل شيء في صراحة، وقلت الحقيقة!

- هل يمكن أن يكون هذا هو الحقيقة؟ رباه!

- إني لم أفعل يا سونيا أكثر من قتل قملة، أي حشرة لا نفع منها، حقيرة ومؤذية!

- هل المخلوق البشري بمثابة القملة؟

فأجابها وهو ينظر إليها نظرة غريبة: «أعرف جيدًا يا سونيا أنها ليست حشرة، ولكن حديثي كان هراء!». ثم أضاف: «كان حديثي هراء منذ زمن طويل... إنك على حق.. ليس هذا هو السبب. هنالك عوامل أخرى.. إني لم أتكلم مع أحد منذ وقت بعيد يا سونيا، وأشعر بألم شديد في رأسي..».

ولمعت عيناه ببريق الحمى، وكاد يفقد الوعي، وظهرت على شفتيه ابتسامة قلقة. وكان يبدو من خلال قلقه ما حل به من إعياء شديد. وفهمت سونيا إلى أي حد هو يتألم، وبدأت هي أيضًا تشعر بدوران، وكان حديثه غريبًا، على أنه كان يبدو مفهومًا إلى حد ما. ولكن هل هذا ممكن؟ يا إلهي!.. وكانت تقرع كفًا بكف في يأس..

واستأنف الحديث فجأة بعد أن رفع رأسه كأنما جاءته فكرة جديدة أثارته:

- لا يا سونيا، ليس هذا هو السبب! ليس هذا هو السبب! خير من ذلك أن تتخيلي أني رجل مغرور حسود شرير وضيع محب للانتقام.. وأن بي

مسًا من الجنون (لتضع كل هذا معًا! وقد لاحظت أن مسألة الجنون أثيرت أيضًا) لقد قلت لك منذ لحظة أني لم أستطع البقاء في الجامعة.. ولكن هل تعلمين أني ربما كنت أستطيع البقاء بأن ترسل أمي نفقات الدراسة، وكان من الممكن أن أكتسب ما أشتري به الأحذية والملابس والطعام؟ هذا مؤكد! فقد عرض عليّ إعطاء دروس بنصف روبل، ورازوميهين يفعل هذا! ولكني عاندت وأبيت (والواقع أن كلمة العناد في موضعها) ثم انسحبت إلى غرفتي كما يفعل العنكبوت، وجئت أنت إلى المغارة التي أسكنها ورأيتها.. هل تعلمين يا سونيا أن الأسقف المنخفضة والغرف الضيقة تضغط على النفس والعقل؟ إني لأكره هذا الوكر، ومع ذلك لم أرد الخروج منه! لقد عمدت إلى البقاء فيه أيامًا كاملة، ولم أرد أن أعمل، وكنت لا أريد حتى الطعام، بل أقضي وقتي راقدًا، فإذا جاءتني نستاسيا بشيء أكلته، وإذا لم تأت قضيت اليوم هكذا راقدًا! كنت لمجرد العناد لا أريد أن أطلب شيئًا! والليل أقضيه بلا إضاءة؛ لأني لا أريد أن أكسب ما أشتري به شمعة. وكان من الواجب أن أقبل على الدراسة، ولكني بعت كتبي، وارتفع الغبار شبرًا على كراساتي الملقاة على المنضدة! صرت أفضل الرقاد لكي أفكر، وتبدو لي أحلام غريبة لا فائدة من ذكرها. وحينئذ توهمت أني... لا! لم أتوهم... إني لا أروي الأمور كما هي!

«إنك ترين أن هنالك مسألة كنت أسأل نفسي دائمًا عنها: لماذا كنت على هذا الغباء؟ وإذا كان الناس الآخرون أغبياء- وهذا ما تبين لي في وضوح- فلماذا لا أكون أعقل منهم؟ وقد قررت فيما بعد يا سونيا، أني لو انتظرت حتى يصير كل الناس أعقل، فإن علينا أن ننتظر فترة طويلة..

ثم علمت أن هذا لا يحدث، وأن الناس لا يتغيرون، وأنه لا فائدة من بذل المجهود لتغييرهم! هكذا كان، وهذا قانون طبيعتهم، نعم يا سونيا! وأعرف الآن أن من يكون أقوى منهم عقلًا وإرادة يسود عليهم، وأن الجريء المقدام هو على حق في أعينهم. وأن الذي يحتقر أكثر الأشياء يصير المشرع لهم، وأن المقدام أكثر من غيره هو على حق أكثر من الآخرين! هكذا تسير الأمور دائمًا، وستستمر كذلك.. والأعمى هو الذي لا يرى هذا الأمر!».

كان رسكولنكوف ينظر إلى سونيا، ولكنه لم يعد يهتم بفهمها أو عدم فهمها.. فقد استولت عليه الحمى، وكان في سورة نفسية مظلمة، ومن المؤكد أنه لم يتكلم إلى أحد منذ زمن طويل، وقد شعرت سونيا بأن هذه الآراء المظلمة صارت عقيدته وقانونه..

وتابع حديثه في اهتمام: «لقد تبين لي عندئذ، يا سونيا، أن السلطة تمنح لمن يجرؤ على الانحناء لاقتطافها، ولا حاجة إلا لشيء واحد فقط- هو الجرأة. وجاءتني للمرة الأولى فكرة لم تخطر لأحد من قبل، إذ رأيت كوضوح الشمس أنه من الغريب أن أحدًا من الناس في هذا العالم المجنون لم يتقدم ويلق بها إلى الشيطان، وقد أردت أنا أن أظهر هذه الجرأة.. فقتلتها.. إني أردت في بساطة أن أكون جريئًا يا سونيا.. هل هذا هو السبب الوحيد؟..

صاحت سونيا وقد ضمت يديها: «اصمت! اصمت! لقد بعدت عن هداية الله فانتقم منك بأن أسلمك للشيطان!».

- هل عندما كنت أرقد في الظلام يا سونيا، ووضح لي هذا الأمر- هل كان ذلك من عمل الشيطان؟..

- اصمت! لا تضحك أيها الجاحد... إنك لا تفهم شيئًا! رباه! إنه لا يستطيع أن يفهم!

- اصمتي أنت يا سونيا! إني لا أضحك! إني أعرف جيدًا أن الشيطان كان هو الذي يغريني.. اصمتي أنت يا سونيا! اصمتي!

وكرر هذا القول في إصرار مظلم!

- إني أعرف كل هذا! قلت هذا لنفسي.. وفكرت فيه عندما كنت راقدًا في الظلام.. ناقشت نفسي في هذه الأمور إلى أدق تفصيلاتها، وأعرف كل شيء! كل شيء! وقد شبعت من كل هذا الكلام. كنت أود لو أنسى كل شيء، وأبتدئ من جديد يا سونيا، وأترك التفكير. هل تظنين أني ألقيت بنفسي في غمار هذا الأمر كالمجنون؟ إني أقدمت عليه بكامل عقلي، وفي هذا كان القضاء عليّ! ولا تظني أني لم أكن أعرف حقيقة موقفي، فإني مثلًا إذا ساءلت نفسي عن المخلوق البشري وهل هو كالقملة، فهذا يثبت أنه ليس كذلك في نظري، ولو أن الرجل الذي يسير مباشرة إلى غرضه دون أسئلة قد يعتقد هذا... وإني إذا كنت أرهقت نفسي بالتفكير طوال هذه الأيام فيما إذا كان نابليون يتصرف هذا التصرف، فمعنى هذا أني أشعر تمامًا بأني لست نابليون! لقد احتملت عذاب التفكير في هذه الآراء يا سونيا، وأردت التخلص منها! لقد أردت أن أقتل بلا نظريات، أن أقتل لمجرد الرغبة، ولنفسي وحدها، ولم أرد أن أكذب في هذا الأمر حتى على نفسي.. لم أقتل لأساعد أمي.. هذا كلام فارغ! لم أقدم على القتل لبلوغ الغنى والسلطة ولأكون نافعًا للإنسانية! هذا أيضًا كلام فارغ! إني قتلت- ببساطة- لمجرد الرغبة! رغبتي أنا! لم أهتم في تلك اللحظة بأن أكون نافعًا

للآخرين، أو أقضي حياتي منزويًا كالعنكبوت أمسك الناس في خيوطي وأمتص منهم الحياة.. لم يكن المال يا سونيا هو الدافع لي.. بل أمر آخر أعرفه الآن.. فافهميني! ربما أني لا أرتكب جريمة قتل أخرى، كنت أريد أمرًا آخر، لقد كان شيء آخر هو الذي دفعني، فكل ما أردت أن أعرفه في أسرع وقت هو هل أنا قملة كغيري من الناس أو أنا رجل؟.. هل أستطيع اجتياز الحواجز أو لا أستطيع؟.. هل أجرؤ على الانحناء لالتقاط ما أريده أو لا أجرؤ؟.. هل أنا مخلوق ضعيف يرتعد أو صاحب حق في...

صاحت سونيا مندهشة: «القتل؟ حق القتل؟».

صاح في غضب: «آه يا سونيا!»- وكأنه أراد أن يرد عليها ولكنه سكت احتقارًا- «لا تقاطعيني يا سونيا! إني أريد فقط أن أراهن على شيء واحد، هو أن الشيطان قادني في هذا الأمر ثم أوضح لي فيما بعد أن ليس لي الحق في اتخاذ هذا الطريق؛ لأني قملة كالآخرين! إنه سخر بي، فجئت إليك الآن! فلترحبي بضيفك! هل كنت أجيء عندك لو لم أكن قملة؟ اسمعي! حين ذهبت إلى العجوز لم أكن أقصد غير التجربة فقط... فتأكدي من ذلك!».

- ولكنك قتلتها!

- وكيف قتلتها؟ وهل هكذا يقتل الناس؟ هل يذهب الناس لارتكاب جريمة كما فعلت؟ سأروي لك في أحد الأيام كيف ذهبت.. وهل تظنين.. أني قتلت العجوز؟ إني لم أقتلها، بل قتلت نفسي! لقد حطمت نفسي فجأة، وإلى الأبد؟ أما العجوز فقتلها الشيطان، ولم أقتلها أنا!

ثم صاح فجأة في دفعة ألم فجائية: «كفى! كفى يا سونيا! دعيني! دعيني!».

ووضع مرفقيه على ركبتيه وأمسك رأسه بيديه في عنف.

وصاحت سونيا في ألم: «ما أشد تعاستك!».

فسألها وقد رفع رأسه فجأة ونظر إليها في وجه غيّر اليأس من معالمه: «ماذا أفعل الآن؟».

صاحت وقد هبت واقفة ولمعت عيناها اللتان كانتا منذ لحظة مغرورقتين بالدموع: «ماذا تفعل؟ قم! (وأمسكت به من كتفيه، فوقف وهو ينظر إليها في دهشة) اذهب سريعًا.. في هذه اللحظة، وقف عند مفترق الطريق، واركع وقبِّل الأرض التي دنستها، ثم انحن أمام العالم بأسره.. وقل للناس جميعًا، وبصوت عالٍ: إني قاتل! وحينئذ يهبك الله الحياة.. هل تذهب؟ هل تذهب؟».

سألته وهي ترتعش كأنها في أزمة عصبية، وقد أمسكت بيديه وقبضت عليهما بأقصى قوتها، وثبتت فيه عينين تشعان نارًا!

وتملكته الدهشة لحماستها الفجائية، وسألها في عبوس: «هل تقصدين أن أرسل إلى سيبيريا يا سونيا؟ هل تريدين أن أسلم نفسي؟».

- يجب أن تقبل الألم كي تكفر عن ذنبك، هذا ما يجب أن تفعله!

- لا! لن أذهب إليهم يا سونيا.

فصاحت سونيا: «وكيف إذن تعيش؟ ولماذا تعيش؟ هل هذا ممكن الآن؟ كيف تستطيع أن تتحدث إلى أمك؟ وماذا يكون من أمرها الآن؟ لقد

اضطررت إلى هجر أمك وأختك!».

ثم صاحت: «رباه! إنه يعرف كل هذا! كيف يستطيع الإنسان أن يعيش وحيدًا؟ ماذا يكون من أمرك؟؟».

فقال في رقة: «لا تكوني كالأطفال يا سونيا! هل أخطأت في حق الناس؟ لماذا أذهب إليهم.. وماذا أقول لهم؟.. إنهم يقضون على الملايين ويرون في ذلك فضيلة! إنهم أشرار وأوغاد يا سونيا... لن أذهب إليهم.. وماذا أقول لهم؟.. إني قتلتها ولم أجرؤ على أخذ النقود فخبأتها تحت الحجر؟..».

ثم قال بابتسامة مريرة: «إنهم سيهزأون بي ويقولون إني غبي لأني لم آخذها! جبان وغبي! إنهم لا يفهمون شيئًا يا سونيا، ولا يستحقون أن يفهموا.. لماذا أذهب؟ سوف لا أذهب، فلا تكوني كالطفل يا سونيا!».

كررت وقد مدت ذراعيها نحوه في توسل اليأس: «إنك سوف لا تتحمل هذا! سوف لا تتحمل!».

قال في عبوس وهو يفكر: «ربما كنت ظالمًا لنفسي! وربما أني ما زلت رجلًا ولست قملة... وقد تسرعت في الحكم على نفسي... وسأناضل أيضًا!».

وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبرياء.

- ما أثقل ما ستحمله من ثقل طوال حياتك! طوال حياتك..

قال وهو عابس يفكر: «سأعتاد هذا..». ثم استأنف الحديث بعد لحظة: «استمعي إليَّ وكفى بكاء.. يجب أن نتكلم في الواقع، فقد جئت

لأقول لك إن رجال الشرطة يبحثون عني ويقتفون أثري».

فصاحت سونيا في رعب: «أواه!».

- لماذا تصيحين؟ إنك تريدين ذهابي إلى سيبيريا، والآن يتملكك الخوف! غير أني أخبرك أني لن أسلم نفسي، وأني سأناضل، ولن يفعلوا بي شيئًا فليست لديهم أدلة قوية! وقد كنت بالأمس في خطر شديد حتى اعتقدت أني خسرت كل شيء، أما اليوم فقد تحسن سير الأمور. إن جميع أدلتهم يمكن تفسيرها على وجهين، إذ يمكن تحويل اتهاماتهم لمصلحتي! هل تفهمين؟ سأفعل ذلك؛ لأني الآن أعرف كيف أسلك! ولو لم يحدث حادث غير منتظر لقبض عليّ منذ اليوم، بل ربما يعودون للقبض عليّ اليوم، ولكن لا أهمية لذلك يا سونيا.. سيرغمون على إطلاق سراحي، إذ لا توجد أدلة حقيقية... وأؤكد لك أنهم لن يجدوا! والأدلة التي لديهم لا تكفي للحكم على رجل! كفى! كل ما رغبت فيه أن تعرفي... أما عن أمي وأختي فإني سأرتب أموري بحيث تطمئنان ولا يأخذهما الخوف... وأعتقد مع ذلك أن أختي الآن في مأمن من الحاجة... وعلى ذلك تكون أمي أيضًا في مأمن منها! هذا كل شيء! ولكن كوني حذرة مع ذلك... هل تأتين لرؤيتي حينما أكون في السجن؟

- نعم! نعم! بلا ريب.

كانا جالسين جنبًا إلى جنب، وعليهما علائم الحزن والانكسار كغريقين ألقي بهما على شاطئ مهجور. ونظر إلى سونيا، وشعر إلى أي حد هي تحبه. والأمر العجيب أنه شعر بأن في مثل هذا الحب إرهاقًا كبيرًا وألمًا. نعم إنه لشعور عجيب وفظيع. لقد كان يشعر وهو قاصد إلى سونيا

أن آماله متوقفة عليها، وأنه سيتخلص من أجزاء على الأقل من آلامه، والآن إذ وهبته قلبها بأكمله، شعر بأنه صار أكثر تعاسة بما لا يقاس عن ذي قبل..

قال: «من الخير يا سونيا ألا تأتي لرؤيتي في السجن!».

لم تجبه بشيء، بل كانت تبكي. ومرت عدة دقائق، ثم سألته فجأة، وكانت الفكرة قد خطرت لها فجأة: «هل لديك صليب؟».

فلم يفهم في بادئ الأمر..

- ليس لديك طبعًا! خذ هذا.. إنه من خشب الزان! فإن لديّ آخر من النحاس أخذته من ليزاڤتا، فقد تبادلنا: أعطتني صليبها وأعطيتها أيقونتي الصغيرة.. أريد أن أحمل صليب ليزاڤتا، فخذا هذا... خذه، إنه صليبي!

ثم توسلت إليه في أخذه وهي تقول: «سنتألم معًا، ونحمل الصليب معًا!».

قال رسكولنكوف: «هاتي الصليب!».

لم يكن يريد الإساءة إلى شعورها، ولكنه لم يلبث أن سحب يده وأضاف كي يهدئ من روعها: «ليس الآن يا سونيا! من الخير أن يكون ذلك فيما بعد!».

وافقت في اقتناع قائلة: «نعم! نعم! فيما بعد! نحمله عندما نذهب للتكفير عن ذنبك. وستأتي عندي وسأضعه في رقبتك ونصلي ونرحل معًا!».

في هذه اللحظة سمعت ثلاث دقات على الباب. وقال صوت معروف وفي أدب كبير: «هل يمكن الدخول لديك يا صوفيا سميونوڤنا؟».

فأسرعت سونيا نحو الباب وهي قلقة، وظهر رأس ليزياتنكوف بشعره الأشقر في مدخل الغرفة.

* * *

(٥)

كان القلق باديًا على ليزياتنكوف، وقال لها: «لقد جئت لأراك يا صوفيا سميونوفنا، فمعذرة!».

وقال فجأة لرسكولنكوف: «لقد توقعت أني أجدك هنا... إني لا أقصد شيئًا... من هذا النوع.. ولكني توقعت فقط».

ثم تحول من رسكولنكوف إلى سونيا وقال فجأة: «إن كاترينا إيفانوفنا قد جنت!».

وخرجت صرخة من سونيا.. فقال: «على الأقل هذا ما يظهر عليها.. ولكن لا نعرف ماذا نعمل في هذا كما ترين! فقد عادت إلى المسكن من مكان غير معلوم، وأظن أنها طردت... وربما ضربت! هذا على الأقل ما يظهر لنا... لقد ذهبت إلى رئيس والدك ولم يكن في داره، بل كان يتعشى لدى قائد آخر... فتصوري أنها ذهبت إلى دار ذلك القائد وألحت في

رؤيته، حتى أن هذا الرئيس قام من المائدة لرؤيتها.. ويمكن أن تتصوري ما حدث، ومن الطبيعي أن تطرد. وهي نفسها تقول إنها أهانته ورمته بشيء ما.. وإني أصدق قولها... ولست أفهم لماذا لم يقبضوا عليها!.... وهي الآن تروي كل هذا لسائر الناس، حتى لأماليا إيفانوڤنا.. ولكن ليس من السهل فهم حديثها، إذ إنها تصرخ وترمي بنفسها أرضًا.. نعم! تصرخ قائلة حيث إن الناس جميعًا هجروها، فستأخذ أطفالها وتدور بهم في الشوارع ومعها أرغن آلي، فيغني الأطفال ويرقصون، وستفعل هي مثلهم أيضًا، فيجمعون نقودًا ويذهبون كل يوم تحت نافذة القائد... لكي يرى الناس جميعًا أطفالًا نبتوا في بيت أصيل وكان والدهم موظفًا وهم يتسولون في الشوارع، وتأخذ في ضرب الأطفال فيبكون، وهي تعلم ليدا نشيدًا اسمه «قريتي»، وتعلم الغلام كيف يرقص، وكذلك بولنكا. وقد مزقت كل ما لديها من قماش وصنعت منه قبعات صغيرة كقبعات الممثلين، وفي نيتها حمل إناء من الصفيح لكي تقرعه بدلًا من توقيع الموسيقى... وهي لا تصغي لشيء! تصوري الحالة! إنها مما لا يمكن وصفه».

وكاد ليزياتنكوف يسترسل في الحديث، لولا أن سونيا التي كانت تستمع إليه وهي لا تكاد تتنفس، خطفت معطفها وقبعتها وجرت من الغرفة وهي ترتدي هذه الأشياء في خروجها، وتبعها رسكولنكوف واقتفى ليزياتنكوف أثرهما.

وقال لرسكولنكوف وهما في الشارع: «من المؤكد أنها جنت، غير أني لم أرد أن أخيف صوفيا سميونوڤنا فقلت يظهر ذلك، ولكن الأمر لا شك فيه. إنهم يقولون إن الإصابة بمرض السل، تنتقل إلى المخ... أحيانًا.

ومما يؤسف له أني لا أعرف شيئًا في الطب، ولقد حاولت إقناعها ولكنها لا تستمع لي».

- هل ذكرت لها شيئًا عن مرضها

- لم أذكر شيئًا من ذلك تمامًا، فضلًا عن أنها لا تفهم. ولكن ما أريد قوله إنك إذا أقنعت أحد الناس منطقيًا بأن ليس لديه سبب للصراخ فإنه ينقطع عنه، هذا بين.. هل تعتقد أنه لا يفعل؟

أجاب رسكولنكوف: «إن الحياة تكون سهلة لو أن الأمر كذلك!».

- معذرة! معذرة! مما لا شك فيه أن من الصعب على كاترينا إيفانوڤنا أن تفهم، ولكن هل تعلم أن القوم في باريس يجرون تجارب جدية عن احتمال شفاء المجانين بمجرد الحجج المنطقية؟ وقد اعتقد أحد الأساتذة هناك من كبار العلماء ذوي المكانة- وقد توفي أخيرًا- باحتمال هذا العلاج، وكانت فكرته أنه لا يوجد خطأ حقيقي في التركيب الطبيعي للمجانين. وقد يقال إن الجنون من هؤلاء خطأ منطقي، أو خطأ في الحكم، أو نظرة غير صحيحة للأمور. وقد أظهر لمجنون خطأه بصورة تدريجية، وهل تصدق ما يقال من أنه نجح في ذلك؟ على أنه استعمل الاستحمام بالماء البارد أيضًا، ولا يعرف تمامًا إلى أي مدى كان نجاحه في هذا العلاج... هذا ما يظهر على الأقل!

وكان رسكولنكوف قد انقطع عن الإصغاء، فلما وصل إلى الدار التي يسكنها أحنى رأسه لليزياتنكوف ومر من بابها، وانتبه ليزياتنكوف لنفسه فجأة فتلفت حوله وأسرع في طريقه..

دخل رسكولنكوف إلى غرفته الصغيرة، ووقف في وسطها وساءل نفسه لماذا عاد إليها؟ ونظر إلى ورق الحائط المصفر الممزق، وإلى الغبار، وإلى المقعد الكبير.. وسمع من الفناء صوت دق مستمر عال، كأن أحدًا يدق بمطرقة... فسار إلى النافذة، ووقف على أطراف أصابعه وأطل على الفناء مدة طويلة في اهتمام كبير. ولكن الفناء كان خاليًا، ولم يستطع رؤية الذي يدق بالمطرقة. ورأى في المنزل إلى اليسار بعض النوافذ مفتوحة، وعلى حافاتها أوانٍ من الفخار فيها أزهار تكاد تذبل، كما علقت بعض الثياب المغسولة من خارجه. وكان يعرف كل هذا عن ظهر قلب... فابتعد عن النافذة وجلس على المقعد الكبير.

لم يشعر أبدًا من قبل بالوحدة المخيفة مثل الآن.

وشعر مرة أخرى بأنه يستطيع أن يكره سونيا، لا سيما الآن بعد أن سبب لها التعاسة أكثر من ذي قبل... «ولكن لماذا ذهب ليستجديها الدموع؟ لماذا يسمم حياتها؟ إنه لعمل دنيء..».

وقال فجأة في إصرار: «سأظل وحيدًا! وسوف تأتي لرؤيتي في السجن!».

وبعد خمس دقائق رفع رأسه وابتسم لخاطر غريب خطر له فجأة.. «وقد يكون من الخير أن أذهب لسيبيريا!».

ولم يعرف الزمن الذي قضاه والأفكار الغامضة تموج بعقله، وفجأة فتح الباب ودخلت منه دنيا. ووقفت عند عتبة الباب ونظرت إليه كما نظر هو إلى سونيا، ثم تقدمت وجلست في مواجهته على الكرسي الذي جلست

عليه في اليوم السابق. أما هو فنظر إليها في سكون وذهول..

قال دنيا: «لا تغضب يا أخي، فقد جئت لأمكث لديك لحظة واحدة».

كانت على وجهها علامات التفكير لا الشدة، وكانت عيناها براقتين ناعمتين، ورأى أنها جاءت إليه في مودة وحب. ثم أتمت حديثها قائلة:

– أخي! إني الآن أعرف كل شيء! كل شيء! إذ أخبرني ديمتري بروكوڤتش بكل ما هنالك، فهم يرهقونك ويضطهدونك بسبب شك سخيف وحقير... وقد أخبرني ديمتري بروكوڤتش بأن لا خطر عليك، وأنك مخطئ في نظرتك إلى هذا الأمر في هلع. وأنا أفهم تمامًا إلى أي حد أنت مستاء لكرامتك، وأن هذا الاستياء قد يكون له تأثير دائم فيك. وهذا ما أخشاه. أما عن قطيعتك لنا فذلك ما لا أحكم عليه، ولا أجرؤ على الحكم عليه، ولتصفح عني إذا كنت عاتبتك لهذا. وإني لأشعر أني أيضًا لو وقعت في مثل هذه المتاعب الكبيرة لاعتزلت الناس. وسوف لا أخبر أمي بشيء من هذا، ولكنني سأتكلم عنك دائمًا وأخبرها نيابة عنك أنك ستعود قريبًا جدًا، فلا تشغل خاطرك بها، فأنا أعرف كيف أريح بالها. ولكن لا تقلقها أكثر مما يجب، فلتأت مرة على الأقل، ولتذكر أنها أمك. والآن جئت إليك لأقول (وبدأت دنيا تقوم من جلستها) إنك إذا كنت في حاجة إليَّ أو في حاجة... إلى حياتي أو أي شيء... فنادني أجيء إليك. وداعًا!

واستدارت فجأة قاصدة إلى الباب، فأوقفها رسكولنكوف صائحًا: «دنيا!»– وذهب نحوها– «إن رازوميهين.. ديمتري بروكوڤتش رجل طيب القلب جدًا..».

فاحمر وجه دنيا قليلًا، وسألته وقد توقفت قليلًا: «وماذا؟».

فأتم قوله: «إنه رجل كفء نشيط أمين ويستحق أن يُحَب حقًا... وداعًا يا دنيا!».

فاحمر وجهها بلون الدم، ثم ذعرت فجأة وسألت: «ماذا تعني يا أخي؟ هل سترحل عنا حقًا إلى الأبد حتى أنك.. تذكر الوداع؟».

- دعي هذا... وداعًا!

واستدار عنها وقصد النافذة، ووقفت هي لحظة تنظر متطلعة إليه، ثم خرجت وهي قلقة: لا! لم يعاملها بجفاء بل إنه في لحظة من اللحظات (وهي اللحظة الأخيرة جدًا) كان يود لو جذبها بين أحضانه وهو يقول لها: وداعًا! بل لقد هم بأن يخبرها بالأمر، ولكنه لم يجرؤ حتى على لمس يدها، وفكر: «قد ترتعد فيما بعد عندما تتذكر أني عانقتها وتشعر بأني سرقت منها قبلة!». وأتم حديثه لنفسه بعد لحظات: «وهل تحتمل التجربة؟ لا! إنها لا تستطيع! إن الفتيات من هذا النوع لا يحتملن هذه الأمور! إنهن لا تستطعن أبدًا».

وفكر في سونيا..

وهبت من النافذة نسمة، وكان ضوء النهار قد أخذ في الزوال، فتناول غطاء رأسه وخرج.

لم يستطع أن يفكر طبعًا، بل لم يرد أن يفكر إلى أي حد هو مريض، ولكن هذا القلق المستمر والعذاب العقلي لا يمكن إلا أن يؤثر فيه. وإذا كان لم يرقد تحت وطأة الحمى الشديدة؛ فذلك لأن الضغط الداخلي

المستمر ساعده على البقاء قائمًا على قدميه، مالكًا لمواهبه العقلية، ولكن هذا التنبه الصناعي لا يمكن أن يستمر.

سار على غير هدى، وقد أخذت الشمس في المغيب، وكان نوع خاص من التعاسة قد بدأ يجثم عليه أخيرًا. ليس فيه وخز ولا حدة، ولكن فيه عنصر الاستمرار والدوام، وفيه مذاق لما ينتظره من سنوات من التعاسة المقيمة التي لا أمل فيها، وما ينتظره من الإقامة الدائمة في مربع صغير من البناء... وكان هذا الإحساس يثقل عليه كلما جاء المساء.

تمتم في مرارة: «إن المرء في هذا الضعف الجسدي السخيف، الذي يتوقف على مغيب الشمس أو ما ماثله، لا يتمالك إلا أن يأتي عملًا سخيفًا كالذهاب إلى دنيا، أو سونيا!».

وسمع اسمه ينادَى فالتفت حوله، فإذا ليزياتنكوف يسرع إليه.

– فلتتصور أني قصدت إلى غرفتك لأبحث عنك، ولتتصور أنها نفذت فكرتها بعد أن أخذت أطفالها معها.. وتعبت أنا وصوفيا سميونوڤنا في البحث عنها حتى وجدناها وهي تدق على مقلاة وتجبر أطفالها على الرقص، أما الأطفال فيبكون وهي تقف بهم في منحنيات الطرق وأمام الحوانيت بينما يتبعهم جمع من الأغبياء! هيا معي!

سأل رسكولنكوف في قلق وهو يسرع الخطى وراء ليزياتنكوف: «وماذا كان من أمر سونيا؟».

– إنها مجنونة! لا أقصد صوفيا سميونوڤنا بل كاترينا إيفانوڤنا.. ولو أن صوفيا سميونوڤنا تكاد تجن أيضًا! إن كاترينا إيفانوڤنا مجنونة بلا ريب،

وأخبرك أنها فقدت عقلها تمامًا وسيقبض عليها رجال الشرطة. ويمكن أن تتصور ما يكون لذلك من تأثير.. وهم عند شاطئ القناة على مقربة من الجسر وليسوا ببعيدين عن مسكن صوفيا سميونوڤنا، بل هم عنده تقريبًا.

وعند شاطئ القناة على مقربة من الجسر، بما لا يكاد يبعد دارين عن مسكن سونيا، تجمع حشد من الناس مؤلف أكثره من أطفال المساكن الحقيرة. وكان صوت كاترينا إيفانوڤنا الخشن يسمع من الجسر، وكان المنظر بلا ريب غريبًا لا بد أن يجتذب جمهور الشارع، فإن كاترينا إيفانوڤنا، بثيابها العتيقة وشالها الأخضر وقبعتها الممزقة من القش وقد حطمت من جانب واحد في صورة قبيحة، كانت مجنونة حقًا، وكانت منهوكة القوى لا تكاد تقوى على التنفس، وارتسم الألم على وجهها النحيل بفعل السل أكثر مما كان. والواقع أن المريض بالسل يبدو أسوأ حالًا تحت أشعة الشمس منه في البيت، ولكن حماستها لم تهبط، وكان غضبها يزداد في كل لحظة. وكانت تهجم على الأطفال وتصرخ فيهم، ثم تدللهم وتعلمهم أمام الجمع كيف يرقصون ويغنون، وتفسر لهم ضرورة هذا العمل.. ثم يدفعها اليأس لعدم فهمهم لها فتضربهم.. ثم تندفع نحو الجمهور، فإذا رأت شخصًا حسن الهندام وقف للفرجة تناديه للحال كي يرى هؤلاء الأطفال من أسرة طيبة، بل يمكن أن يقال من بيت أرستقراطي، وما وصل إليه حالهم.. فإذا سمعت ضحكًا أو سخرية من الجمع اندفعت في الحال نحو الساخرين ودخلت في نزاع معهم. وكان بعض الناس يضحك والبعض يهز رأسه، ولكن كل واحد يشعر بفضول لرؤية المجنونة وأطفالها المذعورين. ولم تكن المقلاة التي ذكرها ليزياتنكوف معها، أو على الأقل

لم يرها رسكولنكوف، ولكن كانت كاترينا إيفانوڤنا بدلًا من الدق على الإناء تصفق بكفيها النحيلتين وتحمل ليدا وكوليا على الرقص وپولنكا على الغناء، ولقد شاركت هي أيضًا في الغناء، ولكن لم تصل إلى النغمة الثانية حتى انقطع صوتها، إذ أخذها سعال مخيف جعلها تسخط يأسًا بل تنحدر من مآقيها الدموع، والذي أدى بها إلى نهاية الغضب هو بكاء كوليا وليدا. وقد بذلت مجهودًا لكي يبدو الأطفال في زي يشبه زي المغنين في الشوارع، فوضعت على رأس الغلام عمامة من قماش أحمر وأبيض كي يبدو في زي الأتراك. أما ليدا فلم تجعل لها لباسًا خاصًا، بل وضعت فوق رأسها طاقية من صوف أحمر كان يلبسها مرملادوف عند النوم، وزينتها بقطعة من ريش نعام بيضاء كانت لجدة كاترينا إيفانوڤنا واحتفظت بها على أنها من مخلفات الأسرة. وكانت پولنكا في ثيابها اليومية وهي تنظر في حيرة وخجل إلى أمها، وظلت إلى جانبها وهي تخفي دموعها وقد فهمت حالة أمها بعض الشيء، وهي تنظر في قلق حولها وقد انتابها خوف شديد من الشارع والجمهور. وكانت سونيا تتبع كاترينا إيفانوڤنا باكية وتتوسل إليها لتعود إلى المنزل، وهي لا تقتنع.

وكانت تصيح وهي تتكلم في سرعة وتلهث وتسعل قائلة: «اتركي هذا يا سونيا. إنك لا تعرفين معنى طلبك، فإنك كالطفلة. لقد قلت لك من قبل إني لن أعود إلى هذه الألمانية السكيرة! دعي الناس جميعًا ودعي كل سكان بطرسبرج يرون الأطفال وهم يتسولون في الشوارع مع أن أباهم كان رجلًا شريفًا يقوم بعمله طوال حياته في أمانة وصدق، ويمكن أن يقال إنه مات في الخدمة (وكانت كاترينا إيفانوڤنا قد وصلت إلى اختراع هذه

القصة الخيالية ثم آمنت بها تمامًا) دعي هذا القائد يرى هذا! إنك لجاهلة يا سونيا! ماذا لدينا من طعام؟ خبريني؟ لقد سببنا لك من المتاعب ما فيه الكفاية، ولن أستمر على ذلك..».

ثم رأت رسكولنكوف فجرت نحوه وصرخت: «آه! هذا أنت يا روديون رومانوڤتش.. أرجوك أن تشرح لهذه الفتاة البلهاء أنه لا يمكن عمل ما هو خير من هذا.. إن العازفين على أراغن الشارع يكسبون قوتهم، وسيرى كل الناس أننا نختلف عنهم، وأننا أسرة شريفة مصابة انحدر بها الحال إلى التسول، وسترى أن هذا القائد سيفقد مركزه، وسنغني كل يوم تحت نافذته.. وإذا مر القيصر من هذا المكان فسأركع على ركبتي، وأضع الأطفال أمامي وأريهم له وأقول له: احمنا أيها الأب، فهو والد الذين لا أب لهم، وهو الرحيم.. وسترى أنه يحمينا من هذا القائد الوغد.. ليدا: احتفظي بقامتك مستقيمة، وأنت يا كوليا عد إلى الرقص.. لماذا تبكي؟ ماذا يخيفك أيها الغبي؟ رباه! ماذا أفعل بهم يا روديون رومانوڤتش؟ لو تعلم إلى أي حد هم أغبياء! ماذا يعمل الإنسان بمثل هؤلاء الأطفال؟».

وأشارت إلى الأطفال الباكين وهي تكاد تبكي في نفسها، وإن كانت لم تتوقف في سيل حديثها الجاري السريع.. وحاول رسكولنكوف أن يقنعها بالذهاب إلى دارها، وقال لها وهو يحاول التأثير عليها بما يمس كبرياءها إنه من غير اللائق بمثلها أن تجوب الشوارع في زي العازفين على أرغن الشارع حيث إنها عازمة على أن تكون ناظرة مدرسة داخلية.

صاحت كاترينا إيفانوڤنا: «مدرسة داخلية! ها! ها! إن ذلك كإقامة قصر في الهواء» وضحكت ضحكًا انتهى بالسعال.. «لا يا روديون

رومانوڤتش! إن هذا الحلم قد انتهى، فقد هجرنا الجميع! وهذا القائد... إنك تعرف يا روديون رومانوڤتش أني ألقيت عليه محبرة كانت موضوعة في غرفة الانتظار ثم خرجت هاربة! يا للأوغاد! يا للأوغاد! ولكن لندعهم الآن، وسأعمل على تدبير أمر الأطفال بنفسي ولا أحني رأسي لأحد! لقد احتملت ما فيه الكفاية من أجلنا» وأشارت إلى سونيا. پولنكا، كم جمعت من مال؟ أريني.. ماذا؟ فلسين فقط؟ إنهم لأدنياء! لا يعطوننا شيئًا بل يجرون وراءنا ويخرجون ألسنتهم! انظر هنالك.. ما الذي يضحك عليه هذا الغبي؟ (وأشارت إلى رجل بين الجمهور) إن كل ذلك بسبب غناء كوليا، وإنه ليسبب لي عناء كبيرًا! ماذا تريدين يا پولنكا؟ أخبريني بالفرنسية (وقالت هذه العبارة بالفرنسية) إني علمتك تلك اللغة وأنت تعرفين عبارات بها؛ كي تبدوا أنكم من أسرة طيبة وأنكم أطفال تربيتهم تربية حسنة ولستم كغيركم من العازفين على أرغن الشارع! إننا لا نمثل مسرحيات الدمي الهزلية في الشوارع بل نغني أنشودة مهذبة.. نعم ماذا نغني؟ نحن كما ترى واقفون هنا يا روديون رومانوڤتش لنجد ما ننفقه ونحصل على نقود! أنشودة يرقص عليها كوليا... إنك لترى أن كل ما ننشده من وحي الخاطر... ثم نذهب إلى نيفيسكي حيث نجد أناسًا من الهيئة الاجتماعية الراقية أكثر من هنا، وحينئذ نلفت أنظارهم في الحال! إن ليدا لا تعرف من الأغاني غير «قريتي» ولكن كل الناس ينشدونها، ويجب أن تغني ما هو أرقى من ذلك... هل تذكرت شيئًا يا پولنكا؟ ليتك تساعدين أمك! إن ذاكرتي قد ذهبت، وإلا كنت تذكرت شيئًا.. إننا لا نستطيع أن نغني أغنية «الفارس».. فلنغن إذن بالفرنسية أنشودة «الخمسة مليمات» فإني

لقنتها لكم! ولما كانت بالفرنسية فسيعرف الناس للحال أنكم من أسرة طيبة... وسيكون لهذا أثر كبير في نفوسهم.. وقد تغنون الأنشودة الفرنسية «مارلبورو ذاهب إلى الحرب» لأنها أنشودة الطفولة،وهي تنشد في البيوت الأرستقراطية لينام على نغمها الأطفال: «مارلبورو ذاهب إلى الحرب ولا يعلم متى يعود»- وابتدأت في الغناء- «ولكن لا تنشد الأنشودة الفرنسية «خمسة مليمات» الآن يا كوليا.. ضع يدك في خصرك.. وأنت يا ليدا دوري دورتك في الناحية الأخرى، وسأغني أنا وپولنكا ونصفق بأيدينا: «خمسة مليمات، خمسة مليمات، لكي ندبر أمر البيت..»- ثم سعال وسعال- «نظمي ثوبك يا پولنكا فقد تدلى من كتفيك (نطقت بهذه الملاحظة وهي تلهث من السعال) من الضروري الآن أن يكون سلوككم ظريفًا رقيقًا كي يرى الجميع أنكم أبناء أسرة طيبة، لقد قلت عندئذ إن الجزء الأعلى من الثوب يجب أن يكون أطول من ذلك وأن يعمل القماش من عرضين.. إنك كنت مخطئة يا سونيا، فقد أصررت على أن يكون أقصر، وصار منظر الطفلة فيه قبيحًا... لماذا تعودون جميعًا للبكاء؟ ماذا جرى أيها الأغبياء؟ هيا يا كوليا.. ابتدئ. أسرع. أسرع. إنك طفل لا يحتمل! خمسة مليمات.. خمسة مليمات.. هذا رجل الشرطة مرة ثانية!.. ماذا تريد؟».

كان أحد رجال الشرطة فعلًا يشق لنفسه طريقًا بين الجمع، ولكن في تلك اللحظة تقدم سيد في ثياب مدنية ومعطف- وهو موظف ضخم في نحو الخمسين من عمره وقد وضع وسامًا في قبعته (مما سر كاترينا إيفانوڤنا وكان له تأثير في نفس رجل الشرطة!) ومد يده دون أن ينوه بكلمة وفتحها بورقة خضراء ذات ثلاثة روبلات، وقد بدت على وجهه

نظرة عطف حقيقي.. وتناولت كاترينا إيفانوڤنا الورقة وانحنت له انحناءة أدب، بل حفاوة، وقالت في صوت متعال: «أشكرك أيها السيد المبجل.. إن الأسباب التي دفعتنا (خذي يا پولنكا الورقة، وإنك لترين أن هنالك أناسًا كرماء شرفاء على استعداد لمساعدة سيدة في بؤسها) إنك ترى أيها السيد المبجل هؤلاء اليتامى من أسرة طيبة.. بل أقول إنهم ذوو صلات أرستقراطية.. إن القائد الوغد الذي جلس يأكل البط قد ضرب الأرض برجله لأني قطعت عليه أكله وقلت: «أرجوك يا صاحب السعادة أن تحمي اليتامى لأنك تعرف زوجي المرحوم سميون زهاروڤتش»، وفي اليوم الذي مات فيه أقدم أحقر الأشرار على قذف ابنته الوحيدة. هذا رجل الشرطة يعود!».

ثم صاحت بالموظف: «احمني منه! لماذا يتقدم هذا الشرطي نحوي؟ لم نكد نجري من آخر منهم! ماذا تريد أيها المعتوه؟».

- هذا ممنوع في الشارع.. لا تحدثي اضطرابًا.

- إنك أنت الذي يسبب الاضطراب! إن الأمر كما لو كنت أدير أرغنًا ميكانيكيًا.. ما شأنك في ذلك؟

- يجب أن تحصلي على ترخيص للعزف على أرغن، وأنت ليس لديك ترخيص! وبهذه الطريقة تجمعين جمهورًا! أين تسكنين؟

وولولت كاترينا إيفانوڤنا: «ماذا؟ ترخيص؟ لقد دفنت زوجي اليوم، فما الحاجة إلى ترخيص؟».

وابتدأ الموظف يقول: «هدئي روعك يا سيدتي! هدئي روعك! تعالي

معي وسأقودك.. ليس هذا مكانك بين الجمهور! إنك مريضة!».

صرخت كاترينا إيفانوڤنا: «أيها السيد المبجل! أيها السيد المبجل! إنك لا تعرف.. إننا سنذهب إلى نيفيسكي.. سونيا! سونيا.. أين هي؟ إنها تبكي أيضًا! ماذا جرى لكم جميعًا؟».

وصاحت فجأة في ذعر: «كوليا! ليدا! أين تذهبان؟».

فقد ذعر كوليا وليدا من الجمهور ومن ثرثرة أمهما في جنونها، فأمسك كل منهما فجأة بيد الآخر وأخذا يجريان عند اقتراب رجل الشرطة الذي أراد أن يأخذهم إلى مكان غير معروف، وجرت كاترينا إيفانوڤنا المسكينة خلفهما وهي تبكي وتنتحب، وكان منظرها مثيرًا للشفقة وغير لائق، وهي تجري وتبكي وتلهث، وجرت سونيا وپولنكا خلفهما.

– أعيديهما! أعيديهما يا سونيا! إنهما طفلان غبيان ناكران للجميل! أمسكي بهما يا پولنكا... إني من أجلهما..

وتعثرت في جريها وسقطت على الأرض..

وصاحت سونيا وهي تنحني فوقها: «لقد أصابها جرح! إن الدم ينزف منها! رباه!».

وجرى الجميع نحوها وتجمعوا حولها، وكان رسكولنكوف وليزياتنكوف من أوائل الذين وصلوا إلى جانبها، وأسرع الموظف أيضًا وبعده رجل الشرطة الذي كان يتمتم في نفاد صبر: «ما هذه المتاعب؟».. وقد شعر أن الأمر سيكون متعبًا، وقال للجمهور الذي تجمع: «تفرقوا! تفرقوا!».

وصاح أحد الناس: «إنها تموت!».

وقال آخر: «لقد فقدت صوابها!».

وقالت امرأة وهي ترسم علامة الصليب: «رحمتك يا رب! هل أمسكوا البنت والغلام؟... إن البنت الكبرى آتية بهما! إنهما شيطانان صغيران!».

عندما فحصت كاترينا إيفانوڤنا بدقة، ووجد أنها لم يصبها جرح كما ظنت سونيا، بل إن الدم الأحمر الذي صبغ الرصيف خارج من صدرها..

تمتم الموظف لرسكولنكوف وليزياتنكوف: «لقد رأيت ذلك من قبل! إنه السل! الدم يندفع فيخنق المريض! رأيت مثل هذا الأمر عند أحد أقربائي من زمن ليس بالبعيد... رطل من الدم تقريبًا ينسكب في لحظة.. ماذا نعمل؟ إنها تموت!».

توسلت سونيا وهي تنظر من واحد إلى آخر قائلة: «سيروا بها، سيروا بها إلى غرفتي! إني أسكن هنا!.. انظروا.. إنه البيت الثاني من هذا المكان! أسرعوا بها إلى داري.. وليدع الطبيب! رباه!».

واتبعت هذه الفكرة بفضل مجهودات الموظف، وساعد حتى رجل الشرطة في حمل كاترينا إيفانوڤنا إلى غرفة سونيا وهي تكاد تكون فاقدة الشعور، ووضعت على فراشها. وكان الدم لا يزال يتدفق، ولكن يظهر أنها كانت تسترد شعورها. ودخل إلى غرفة سونيا رسكولنكوف وليزياتنكوف والموظف ورجل الشرطة، بعد أن طرد الجمهور الذي تبعهم حتى باب الغرفة. ودخلت پولنكا وقد أمسكت بكوليا وليدا وهما يبكيان ويرتعدان، وجاء عدة أناس أيضًا من أهل مسكن كابرناوموف، منهم صاحب الدار

وهو رجل أعرج أعور ذو منظر عجيب وشعر رأسه منتفش كالفرشاة، وزوجته وهي امرأة على وجهها نظرة ذعر دائمة، وعدد من الأطفال على وجوههم علامات الدهشة، وبين هؤلاء ظهر سفدريجايلوف فجأة، وقد نظر إليه رسكولنكوف مندهشًا إذ لم يفهم من أين أتى ولم يره بين الجمهور المتجمع من قبل. وتحدث الحاضرون عن دعوة طبيب وقس، وهمس الموظف لرسكولنكوف أنه يظن أن الطبيب قد فات وقته، ولكنه أمر بأن يحضروا طبيبًا، وجرى كابرناوموف بنفسه لإحضاره.

وفي هذه الأثناء استردت كاترينا إيفانوفنا أنفاسها وانقطع الدم بعض الوقت، ونظرت بعينين مريضتين ولكنهما نافذتان إلى سونيا، التي وقفت ممتقعة اللون ترتعد وهي تمسح العرق عن جبينها بمنديل.

وأخيرًا طلبت أن تسند كي تجلس، فأجلست على الفراش وأسندت من الجانبين.

سألت في صوت ضعيف: «أين الطفلان؟ هل جئت بهما يا پولنكا؟».

واصطبغت شفتاها الناشفتان مرة أخرى بالدم، وحولت عينيها وهي تنظر فيما حولها: «هكذا تعيشين يا سونيا؟ إني لم آت مرة لغرفتك!».

ونظرت إليها بوجه ارتسم عليه الألم وقالت: «لقد كنا السبب في تحطيمك يا سونيا! تعالي إلى هنا يا پولنكا، وأنت يا ليدا، وأنت يا كوليا! ها هم يا سونيا فخذيهم! إني أسلمهم إليك! لقد اكتفيت! وانتهى الرقص (سعال) أرقدوني! دعوني أموت في سلام».

فأرقدوها على الوسادة ثم قالت: «ماذا؟ هل جئتم بقس؟ لا رغبة لي فيه!

ليس لديكم روبل واحد يزيد على الحاجة! وليس لي ذنوب! إن الله لا بد أن يغفر لي من غيره..! فهو يعلم كيف تعذبت..! وإذا لم يغفر لي فلا أبالي!».

وابتدأت تنتقل إلى حالة هذيان غير مريح، وفي بعض الأحيان كانت ترتعد وتدور عيناها من جانب إلى جانب، فتعرف كل واحد مدة لحظة ثم تعود مرة ثانية إلى الهذيان، وكان تنفسها خشنًا وعسيرًا وفي حلقها غصة.

وكانت تنادي وهي تتنفس عند كل كلمة: «قلت له يا صاحب السعادة.. إن أماليا لدڤيجوڤنا.. آه! ليدا! كوليا! ضعا أيديكما في وسطكما! أسرعا (ثم بالفرنسية) استديرا! استديرا! اقرعي قدميك.. كوني طفلة ظريفة (ثم تنشد بالألمانية) «إن لديك ماسًا ولآلئ».. ماذا بعد هذا؟ هذه هي الأنشودة التي يجب إنشادها.. (ثم بالألمانية):

وإن لك عينين جميلتين

فماذا تريدين يا فتاة من مزيد؟

أية فكرة! ماذا تريدين من مزيد؟ أية أشياء يخترعها هذا المعتوه! نعم.. (ثم بالإنجليزية):

وفي حرارة الظهيرة في وادي داغستان..

آه! كم أحببت هذه الأنشودة! كم أغرمت بها غرامًا يا پولنكا! فإن أباك كان يحب إنشادها ونحن خطيبان كما تعلمين يا پولنكا؟!... يا لتلك الأيام! هذه هي الأنشودة التي يجب أن ننشدها.. كيف تسير نغمتها؟ لقد نسيت.. ذكريني! كيف كانت؟».

واستولى عليها اضطراب عنيف، وحاولت الجلوس، وفي آخر الأمر

بدأت تنشد في صوت متقطع خشن، وهي تصرخ وتلهث عند كل كلمة، وعلى سحنتها رعب شديد: «... وفي حرارة الظهيرة... في وادي... داغستان...».

ثم ولولت فجأة في صرخة تمزق القلوب وقد انحدرت منها الدموع: «يا صاحب السعادة! لتحم اليتامى! لقد كنت ضيف أبيهم... قد يقال إنهم أرستقراطيون..».

ثم أخذت تنظر في خوف نحو الحاضرين، وقد ارتد إليها صوابها، وعرفت سونيا في الحال فنطقت في نعومة ورقة، وكأنها مندهشة لرؤيتها هنا: «سونيا! سونيا! سونيا عزيزتي! أنت أيضًا هنا؟».

ورفعوها ثانية، فصاحت في يأس: «كفى! لقد انتهى كل شيء! انتهى أمري! لقد تحطمت!».

وسقط رأسها في ثقل على الوسادة، ثم فقدت صوابها ثانية. ولكنها لم تلبث طويلًا هذه المرة، فقد سقط وجهها الممتقع الذي أضناه المرض إلى الخلف، وانفغر فوها، وتحركت رجلها في حركة عصبية، فتنهدت تنهدًا عميقًا وماتت..

ورمت سونيا بنفسها عليها وأحاطتها بذراعيها، وظلت لا تتحرك ورأسها في نحر المرأة الميتة، وهو نحيل.. ورمت پولنكا بنفسها عند قدمي أمها وهي تقبلهما وتبكي بكاءً مرًا. ولم يفهم كوليا وليدا ما حدث، ولكنهما شعرا بأن أمرًا فظيعًا حدث، فوضع كل منهما يده على الكتف الصغير للآخر، وأخذ كل منهما يحدق في الآخر، ثم فتحا فميهما الصغيرين معًا

وابتدآ في الصراخ. وكان كل منهما في ثوبه الغريب، أحدهما في عمامته والأخرى في طاقيتها المزينة بقطعة من ريش نعام.. وكيف حدث أن شهادة التفوق كانت على السرير إلى جانب كاترينا إيفانوڤنا! لقد كانت موضوعة هناك على الوسادة، ورآها رسكولنكوف.

وسار إلى النافذة، ومشى ليزياتنكوف على أطراف قدميه إليه وقال: «لقد ماتت!».

وقصد إليهما سفدريجايلوف وقال: «أريد يا روديون رومانوڤتش أن أحدثك كلمتين..».

وأوسع له ليزياتنكوف مكانه في الحال وانسحب في لطف، وسار سفدريجايلوف برسكولنكوف وابتعد به قليلًا ثم قال له: «سأتكفل بنفقات الجنازة وما إلى ذلك، فإنها مسألة مال. وقد أخبرتك أن لدي ما يزيد عن الحاجة، وسأودع الطفلين وپولنكا في ملجأ أمين لليتامى، وسأضع مبلغ ألف وخمسمائة روبل تصرف لكل منهم عند بلوغه كي لا تشغل صوفيا سميونوڤنا نفسها بهم، وسأجرها أيضًا من الأوحال لأنها فتاة طيبة القلب، أليس كذلك؟ أرجوك أن تخبر أفدوتيا رومانوڤنا كيف أنفق العشرة آلاف روبل!».

قال رسكولنكوف: «وما غرضك من هذا الإحسان؟».

فضحك سفدريجايلوف قائلًا: «إنك شخص قليل الإيمان! لقد أخبرتك أني لست بحاجة إلى هذا المال! فهل تعترف بأني أعمل هذا من أجل الإنسانية فقط؟ إنك تعلم أنها لم تكن مجرد «قملة» (وأشار إلى الركن

الذي رقدت فيه المرأة الميتة). هل كانت العجوز مرابية مثلًا؟ يقال! وهل من الخير أن يستمر لوجين في الحياة يأتي أعمالًا سيئة أو أن تموت هذه السيدة؟ وإذا لم أساعدهم فإن پولنكا تسلك المسلك نفسه!».

قال هذا في نوع من الدهاء والمرح، وهو مثبت عينيه في رسكولنكوف الذي امتقع لونه وعرته برودة حين سمع هذه العبارة التي وجهها إلى سونيا، وعاد خطوة إلى الوراء وهو ينظر إلى سفدريجايلوف في وحشية. ثم همس وهو لا يكاد يتنفس: «كيف تعرف هذا؟».

فقال: «كيف؟ إني مقيم هنا لدى مدام رسليتس على الجانب الآخر من الحائط، فهنا منزل كابرناوموف، وهناك منزل مدام رسليتس، وهي صديقة قديمة ومخلصة لي. فأنا إذن جار!».

- أنت!

- نعم!

واستمر سفدريجايلوف يقول وهو يهتز ضحكًا: «أؤكد لك بشرفي يا عزيزي روديون رومانوفتش أني أهتم بك كثيرًا، وقد أخبرتك بأننا سنكون أصدقاء، وكنت أتوقع هذا! وها نحن أصدقاء، وسترى أني رجل يعتمد عليه، وأنك تستطيع السير معي!».

* * *

القسم السادس

(١)

ابتدأت فترة غريبة في حياة رسكولنكوف، فكأن غلافًا من الضباب قد أحاط به وجعله في وحدة قاتمة لا خلاص منها، وكان إذا ما فكر في تلك الفترة فيما بعد يخيل إليه أن عقله كان مظلمًا في بعض الأحيان، وأنه استمر هكذا، إلا في لحظات متقطعة، إلى أن حلت الكارثة الأخيرة. وقد ثبت لديه تمامًا أنه كان مخطئًا في أشياء كثيرة في ذاك الوقت، عندما حاول جمع ذكرياته وربطها، وقف على أمور كثيرة مما ذكره له الآخرون. فقد كان يخلط بين الوقائع، ويعدو الحوادث إلى ظروف لم توجد في غير مخيلته، وكان ينتابه أحيانًا قلق مرضي ويستبد به الذعر. ولكنه تذكر أيضًا لحظات، بل ساعات، بل أيامًا، يستولى عليه فيها عدم الاهتمام التام، وهو يرد على ما انتابه من ذعر سابق. ويمكن مقارنة ذلك بما ينتاب بعض المرضى من عدم

الشعور، كما يحدث أحيانًا في ساعة موتهم، وكأنه في هذه الحالة الأخيرة يحاول أن يهرب من تقدير مركزه وفهمه فهمًا تامًا. وكان يضايقه بصفة خاصة معالجة بعض الأمور الأساسية التي تستدعي علاجًا سريعًا، وكم كان يسعد لو استطاع التخلص من بعض الهموم التي لو أهملها في مركزه الحالي لهدده إهمالها بالخسران التام الأكيد.

وقد أثار سفدريجايلوف قلقه بصفة خاصة، وكان دائم التفكير فيه. فمنذ أن فاه سفدريجايلوف في غرفة سونيا وفي لحظة وفاة كاترينا إيفانوفنا بعبارات لا يمكن أن يخطئ معناها وما تنطوي عليه من تهديد، تحطم المنحى الطبيعي لآرائه وزادت هذه العبارات من قلقه الشديد، ومع ذلك لم يتعجل في فهم مغزاها. وفي بعض الأحيان كان يجد نفسه فجأة في جانب بعيد ومهجور من المدينة، وقد جلس وحيدًا أمام منضدة في مطعم حقير وغاص في أفكاره، فإذا به يتذكر سفدريجايلوف فجأة، ويتبين له في وضوح وكراهية أن من الواجب أن يتفاهم سريعًا مع ذلك الرجل ويتفق معه بقدر الإمكان.

وفي أحد الأيام كان يسير على غير هدى فاجتاز حدود المدينة، وإذا به يتخيل أنه على موعد مع سفدريجايلوف في هذا المكان. وفي مرة أخرى استيقظ عند الفجر، فوجد نفسه راقدًا تحت الأشجار، ولم يفهم أبدًا كيف وصل إلى مرقده، ومع ذلك فقد قابل سفدريجايلوف مرتين في اليومين أو الثلاثة التاليين لوفاة كاترينا إيفانوفنا في مسكن سونيا، حيث ذهب بلا غرض ولكن لمدة قصيرة جدًا، وتبادل معه بضع عبارات قصيرة دون أن يقرب المسألة الأساسية، كأن بينهما اتفاقًا على ألا يتكلما مؤقتًا عنها.

لم تكن جثة كاترينا إيفانوڤنا قد دفنت بعد، ولا زالت مسجاة في التابوت، وقد أخذ سفدريجايلوف على عاتقه كل ما يتعلق بالدفن. وكانت سونيا أيضًا مشغولة جدًا، وقد تحدث سفدريجايلوف إلى رسكولنكوف في آخر اجتماع، وأخبره بأن مساعيه من أجل أطفال كاترينا إيفانوڤنا كللت بالنجاح، واستطاع بصلاته أن يدخل اليتامى الثلاثة في معاهد مناسبة جدًا. وكانت الأموال التي وضعت باسمهم مما سهل جهوده، فإن من السهل قبول أطفال إذا كان لهم بعض المال. وقد تحدث إليه أيضًا في موضوع سونيا، ووعد بأن يمر على رسكولنكوف في يوم قريب، ولمح إلى «أنه يرغب في استشارته، ولا بد من التحدث معه في بعض الأمور...».

وكان هذا الحديث عند الممر إلى السلم، وقد حدق سفدريجايلوف في عيني رسكولنكوف، ثم سأله بعد سكوت قصير في صوت منخفض: «ولكن ماذا بك يا روديون رومانوڤتش؟ إنك تصغي وتنظر دون أن تفهم! فلتسر عن نفسك، إننا سنتحدث في بعض الأمور! إني في هذه اللحظة كثير المشاغل ويالالأسف». ثم أضاف فجأة: «آه يا روديون رومانوڤتش! إن الناس جميعًا في حاجة إلى الهواء.. إلى الهواء الطلق.. الهواء الطلق قبل كل شيء».

ثم ابتعد بسرعة ليخلي الطريق للقس وخادمه، وكانا يصعدان السلم، وقد جاءا ليقيما صلوات الموتى. وقد أمر سفدريجايلوف بتلاوتها مرتين في اليوم، أما رسكولنكوف فقد تبع القس إلى غرفة سونيا بعد لحظة تفكير.

وقف على عتبة الباب، وابتدأت الصلاة هادئة جليلة وحزينة، وكان رسكولنكوف منذ طفولته يشعر بخشوع غريب ورهبة في حضرة الموت.

ثم إن رسكولنكوف لم يحضر صلاة الموت منذ أمد بعيد، وكان في هذه الصلاة فضلًا عن ذلك شيء رهيب أقلق باله. فقد ألقى بنظره نحو الأطفال، وكانوا جميعًا راكعين إلى جانب التابوت، وكانت پولنكا تبكي، وكانت سونيا راكعة خلفهم تصلي وتبكي في هدوء وحياء، ففكر رسكولنكوف فجأة: «إنها لم تنظر إليَّ في هذه الأيام مرة واحدة، ولم توجه إليَّ كلمة».

وكانت الشمس تلقي ضوءًا ساطعًا في الغرفة، وقد انعقدت سحب البخور، وقرأ القس: «فلتهبنا اللهم السلام»، وبقي رسكولنكوف إلى نهاية الصلاة. وكان القس يلقي نظرات تنم عن تطلع وهو يبارك الحاضرين ثم يستأذن في الخروج. واقترب رسكولنكوف بعد الصلاة من سونيا، فأمسكت فجأة بيديه وأحنت رأسها على كتفه.. وقد دهش رسكولنكوف لهذه الحركة الصغيرة التي تدل على الصداقة، وبدا له من الغريب ألا يجد أثرًا لمضايقة أو كراهية أو رعشة في اليد.. فما ذلك إلا الحد الأقصى في إنكار الذات! هذا على الأقل ما فهمه.

ولم تقل سونيا شيئًا، فشد رسكولنكوف على يدها وخرج وهو في أشد حالات التعاسة. ولو أنه استطاع الفرار إلى مكان يكون فيه وحيدًا فريدًا طول حياته لاعتبر نفسه من السعداء، فهو بالرغم من أنه لم يعد له رفقاء في هذه الأيام الأخيرة لا يستطيع أن يشعر بأنه وحيد، وكان يسير أحيانًا إلى خارج المدينة ويضرب في الطريق العام، وأوغل مرة في غابة ولكنه كلما كان المكان موحشًا كلما شعر بوجود شيء يقلقه على مقربة منه، وهو لا يخاف من هذا الشيء ولكنه يتضايق من وجوده، فكان يسرع بالعودة إلى المدينة يختلط بالجمهور ويقصد الحانات ومشارب الخمر

ويسير في الشوارع المزدحمة.

ففي تلك الأماكن كان يجد راحة أكبر ويشعر بأنه وحيدًا حقًا. وفي ذات مرة في الغسق جلس ساعة في إحدى الحانات يصغي للأغاني، وتذكر أنه شعر بمتعة أكيدة ولكن في النهاية عاد إليه فجأة قلقه، وكأن ضميره أنبه على هذا العمل. وفكر.. هأنذا جالس أستمع إلى هذه الأناشيد، فهل هذا ما يجب فعله؟ وعلى أنه شعر في الحال بأن هذا ليس مصدر قلقه الوحيد بل هنالك شيء آخر يتطلب حلًا سريعًا، ولكن هذا الشيء الآخر لا يمكن التفكير فيه أو تحديده في وضوح، بل هو شيء لا يمكن تبينه. وأخذ يفكر: «لا! إن النضال خير من ذلك! فليكن مع بورڤيري وسفدريجايلوف.. فليكن تحديًا آخر أو هجومًا آخر... نعم.. نعم».

وخرج من الحانة مسرعًا يكاد يجري، وفجأة فكر في أمه ودنيا فاستولى عليه نوع من الذعر الشديد.. وفي تلك الليلة استيقظ عند الفجر فوجد نفسه نائمًا بين أدغال جزيرة الصليب، وهو يرتعش من الحمى، فسار إلى مسكنه ووصل إليه في الصباح الباكر. وبعد أن نام بضع ساعات ذهبت عنه الحمى، ولكن الوقت كان متأخرًا، فقد استيقظ في الساعة الثانية بعد الظهر.

وتذكر أن ذلك اليوم هو المحدد لجنازة كاترينا إيفانوڤنا، وسر لأنه لم يذهب للجنازة، وجاءته نستاسيا بطعام فأكل وشرب في شهية كبيرة بل في نهم، وكان رأسه أكثر يقظة وهو أهدأ نفسًا منه في الأيام الثلاثة الأخيرة، بل إنه فكر في دهشة لما انتابه من ذعر شديد.

ثم فتح الباب ودخل منه رازوميهين..

قال رازوميهين: «إنك تأكل ولم تعد مريضًا». وجذب كرسيًا وجلس أمام رسكولنكوف، وكان قلقًا ولم يحاول أن يخفي قلقه. وتكلم بضيق ظاهر، ولكنه لم يسرع في الحديث ولم يرفع صوته، وكان من الواضح أنه عقد العزم على شيء.

ابتدأ يقول في حزم: «أصغ إليّ! فلتذهبوا جميعًا إلى الشيطان.. وواضح لي مما أراه أنني لا أستطيع أن أفهم من الأمر شيئًا، فأرجوك ألا تظن أني جئت لأوجه إليك أسئلة فهذا لا يهمني! ولا أريد منك شيئًا! ولو أنك بدأت تفضي إليَّ بأسرارك لما بقيت لأسمعها ولانصرفت ناقمًا عليك.. إنما جئت لأفهم منك مواجهة هل أنك حقًا مجنون؟ فلتعلم أن هنالك من يعتقدون فيك ذلك، أو أنك على وشك أن تكون. وأعترف لك أني كدت أؤيد هذا الرأي لما أراه من تصرفاتك السخيفة البغيضة التي لا يمكن تفسيرها ومن مسلكك الأخير نحو أمك وأختك، فلا يعاملهما بمثل هذه المعاملة غير مجنون أو وحش. إذن لا بد أنك مجنون».

– متى رأيتهما في آخر مرة؟

– لقد رأيتهما في هذه اللحظة. وأنت، ألم ترهما منذ المرة الماضية؟ فأين تمضي وقتك طول هذه المدة؟ قل لي! لقد جئت ثلاث مرات لمسكنك، وأمك مريضة مرضًا جديًا منذ أمس وأرادت أن تأتي إلى هنا، وحاولت أفدوتيا رومانوڤنا أن تثنيها عن هذا العزم، ولكنها لم تخضع لرأيها وقالت: إذا كان مريضًا أو كان عقله متعبًا فمن يرعاه غير أمه؟ وقد جئنا جميعًا معها إلى هنا لأننا لن نستطيع تركها وحيدة، وكنا حتى بلغنا الباب نتوسل إليها بأن تهدئ من روعها، ودخلنا فلم نجدك فجلست وظلت جالسة عشر

دقائق، وظللنا واقفين في صمت إلى جانبها. ثم وقفت وقالت لنا: «إذا كان قد خرج وليس بالمريض بل هو نسي أمه فمن الإهانة للأم ومن غير اللائق بها أن تقف على بابه تستجدي شفقته!» ثم عادت إلى مسكنها ولازمت الفراش، وقد جاءتها الحمى وهي تقول: «أرى أن عنده من الوقت ما ينفقه مع فتاته، وهي تعني بهذا الفتاة صوفيا سميونوڤنا- خطيبتك أو عشيقتك لا أعلم!- وقد قصدت في الحال إلى مسكن صوفيا سميونوڤنا لكي أقف على أمرك، فإذا تابوت وأطفال يبكون وصوفيا سميونوڤنا تجرب عليهم ثياب الحداد. ولم أجد لك أثرًا، فاعتذرت وخرجت وأخبرت أفدوتيا رومانوڤنا أن هذا يدل على أن ليست لك فتاة وإنما الأكثر احتمالًا هو أنك مجنون على الراجح. واليوم أجيء فأراك تلتهم لحم البقر المسلوق كأنك لم تأكل منذ ثلاثة أيام.. أجل، إن المجانين يأكلون أيضًا. ولكن بالرغم من أنك لم تفه بكلمة، فإنك لست مجنونًا! وإني على استعداد لأن أقسم على ذلك، وهذا واضح لي.. إذن فلتذهبوا جميعًا للشيطان.. فإن في الأمر شيئًا غامضًا وفيه سرًا، ولست عازمًا على أن أتعب عقلي بأسراركم، وإنما جئت فقط لألعنك وأسري عن نفسي».

وانتهى الحديث وهو يهم واقفًا ويقول: «والآن أتعلم ماذا أفعل من بعد؟».

- ماذا تفعل؟

- هل هذا يهمك؟

- أحزر أنك ذاهب لتسكر!

- كيف.. كيف عرفت؟

- هذا بيِّن من كلامك!

وقف رازوميهين لحظة صامتًا ثم قال: «إنك كنت دائمًا رجلًا عاقلًا جدًا ولم تك مجنونًا مطلقًا..». ثم قال فجأة في عنف: «إنك على صواب، فإني آريد أن آخذ في الشراب! وداعًا!».

وخطا خطوة نحو الباب، فقال رسكولنكوف: «لقد تحدثت عنك يا رازوميهين مع أختي، وأظن ذلك كان أول أمس!».

قال: «تحدثت عني؟ ولكن..! أين تمكنت من رؤيتها أول أمس؟».

ووقف رازوميهين وقد امتقع لونه قليلًا، وكان من المستطاع أن نشعر بأن قلبه يدق دقات بطيئة وعنيفة..

- لقد جاءت هنا وحدها وجلست وتحدثت إليَّ.

- فعلت ذلك؟

- نعم!

- ماذا قلت لها؟.. أريد أن أعرف ماذا قلت عني؟

- قلت لها إنك رجل طيب القلب جدًا، أمين ومحب للعمل.. ولم أقل لها إنك تحبها لأنها تعرف ذلك..

- تعرف ذلك؟

- إن هذا واضح. وإني أذهب، ومهما يحدث لي... يجب عليك أن تبقى لترعاهما، فأنا- على حد التعبير- أضعهما بين يديك يا رازوميهين، أقول لك ذلك لأني أعلم جيدًا أنك تحبها. وإني أعتقد في طهارة قلبك

وأعرف أيضًا أنها قادرة على حبك، وربما تحبك منذ الآن. وعليك الآن أن تقرر هل أنت في حاجة إلى الذهاب للشراب أو لا.

- يا روديا الصغير... إنك ترى... إلى الشيطان... وأنت أين تريد أن تذهب؟ اصغ إليَّ.. إذا كان هذا سرًا فليكن! ولكني سأعرفه... وإني واثق بأن لا شيء في هذا الأمر، وإنما هو سخافة كبرت في ذهنك! ولكنك شاب من خيرة الشبان! من خيرة الشبان!

- لقد قال لي أحدهم بالأمس إن كل إنسان في حاجة إلى الهواء الطلق.. الهواء الطلق.. وأريد الذهاب إليه اليوم لأسأله ماذا يعني بذلك؟

وظل رازوميهين مفكرًا أو متأثرًا، وكانت تخامره فكرة إذ يقول لنفسه فجأة.. إنه مغامر سياسي! هذا مؤكد! وهو على أبواب خطوة حاسمة.. لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك.. ودنيا تعرف ذلك...!

ثم تابع الحديث وهو يزن الكلمات: «إن أفدوتيا إيفانوڤنا تأتي إليك، وأنت تريد الذهاب لترى واحدًا يقول إن من الواجب أن تحصل على هواء أكثر... ثم إن هذه الرسالة... لا بد أن لها علاقة!» اختتم حديثه بهذه الكلمات وكأنه يخاطب نفسه.

قال رسكولنكوف: «أية رسالة؟».

فأجاب: «لقد وصلتها اليوم رسالة اضطربت لها كثيرًا، بل أكثر مما يجب.. وكنت أتكلم عنك فطلبت مني السكوت.. ثم قالت لي فيما بعد: إننا ربما نضطر إلى الرحيل عن قريب. ثم شكرتني في حرارة، وبعد ذلك دخلت غرفتها وأغلقت الباب على نفسها».

سأل رسكولنكوف وعليه مظهر التفكير: «هل وصلتها رسالة؟».

فأبدى رازوميهين دهشته قائلًا: «ألم تكن تعلم بها؟ عجبًا!..».

ثم ساد صمت قطعه رازوميهين بقوله: «وداعًا يا روديون.. فلتعلم يا صديقي.. أنه مضت فترة. لندع هذا.. وداعًا، ولكن... مضت فترة.. وداعًا! يجب أن أذهب... سوف لا أشرف الخمر فلا حاجة بي إليها..».

كانت تبدو عليه العجلة، ولكنه لم يكد يغلق الباب خلفه حتى عاد ففتحه فجأة وقال وهو ينظر إلى جانب: «بهذه المناسبة.. هل تذكر جريمة القتل التي يحقق فيها بورڤيري؟ مقتل العجوز.. هل تعلم أن القاتل اكتشف واعترف اعترافًا كاملًا وقدم الإثبات، وهو أحد العمال الذين كانوا يطلون البيت؟ تصور! هل تتذكر كيف دافعت عنه هنا؟ وهل تصدق أنه افتعل منظر العراك والضحك في السلم مع زميله في اللحظة التي صعد فيها البواب والشاهدان لكيلا يثيرا الشكوك! أي تفكير وأي ذكاء عند هذا المجرم! من الصعب أن يصدق المرء هذا، ولكنه فسر كل شيء واعترف بكل شيء! ولقد كنت مغفلًا! ومع ذلك، إنه لعبقري في الخديعة والمكر وإبعاد ظنون رجال القانون، فليس بعجيب أن أخدع إذن! وبالطبع يوجد رجال من هذا الطراز.. على أنه لم يستطع الاستمرار في دوره واعترف، وهذا ما يجعل تصديق أقواله سهلًا! لقد كنت غبيًا! إذ تحمست في الدفاع عنهما».

سأل رسكولنكوف في اضطراب واضح: «أرجو أن تخبرني كيف علمت كل هذا، ولماذا تهتم بهذا الأمر كل الاهتمام؟».

فأجاب: «أي سؤال! تسألني لماذا أهتم؟ إني علمته بصفة خاصة من

بورفيري وهو الذي أوقفني على كل التفصيلات».

- من بورفيري؟

- نعم!

فسأل رسكولنكوف في خوف: «حسنًا.. ماذا قال؟».

- إنه شرح لي هذا الأمر في دقة من الوجهة النفسية على طريقته.

- شرح هذا الأمر هو بنفسه؟ هل فعل ذلك؟

- نعم! نعم! وداعًا! سأروي لك التفصيلات فيما بعد، ولكن الآن لدي بعض الشواغل! في وقت من الأوقات اعتقدت... ولكن دع هذا إلى وقت آخر!... لماذا أذهب الآن للشراب؟... إنك أسكرتني بلا خمر.. إني مخمور يا روديا.. مخمور دون أن أذُق قطرة من خمر.. وداعًا! سأعود في القريب العاجل..

وخرج..

«إنه متآمر سياسي لا شك في ذلك!».. هذا ما قرره رازوميهين وهو ينزل السلم في بطء، «ولقد جر أخته أيضًا، وهذا أمر يتفق وأخلاق أفدوتيا رومانوفنا.. إنهما يجتمعان... وهي قد أشارت إلى ذلك! والكثير من كلماتها وإشاراتها يحتمل هذا المعنى.. وإلا كيف نفسر هذا اللغز؟ وأنا الذي كدت أظن... رباه! ماذا ظننت؟ لقد تجردت من حواسي وأخطأت في حقه! على أنه هو السبب بما كان منه تحت ضوء المصباح في الممر في ذاك اليوم.. أية فكرة خشنة وسيئة وكريهة تخيلتها! لقد كان نيكولاي شهمًا باعترافه! ووضح كل شيء الآن!... مرضه ثم غرابة مسلكه، وقبل ذلك ما

كان يبدو عليه وهو في الجامعة من تفكير حزين وميل للعزلة.. ولكن ما معنى هذه الرسالة؟ لا بد أنها تخفي شيئًا.. ممن جاءت هذه الرسالة؟ إني أشك في.. لا! لا بد أن أتبين هذا».

وفكر في دنيا، وتحقق لديه كل ما سمعه، فدق قلبه بشدة وأخذ فجأة يجري في طريقه.

وما خرج رازوميهين من عند رسكولنكوف حتى قام وقصد إلى النافذة، ثم أخذ يسير من ركن الغرفة إلى الركن الآخر وكأنه نسي ضيقها.. ثم جاء فجلس على المقعد الكبير، وقد شعر أن الأمر قد تجدد وأن عليه النضال أيضًا إذ بدت وسيلة للخلاص.. نعم! إذا بدت وسيلة للخلاص، فقد ثقل عليه العبء وضغط على أنفاسه وكل جسده، حتى صارت الآلام أكثر مما يحتمل.. وكان يأخذه نوع من الخمول أحيانًا، ومن اللحظة التي رأى فيها منظر نيكولاي، في اليوم ذاته الذي حضر فيه نيكولاي وعلى أثر اعترافه، وكان مسلكه وكلماته الأخيرة لا تماثل مطلقًا ما كان يتصوره من قبل! لقد حل به ضعف أساسي مطلق! فلقد اتفق مع سونيا اتفاقًا قلبيًا أنه لا يستطيع العيش في عزلة بينما هذا العبء يثقل على ضميره! وسفدريجايلوف؟ إنه لغز... كان سفدريجايلوف يقلقه حقًا، ولكن في غير هذه المسألة... قد يكون عليه أن يناضل سفدريجايلوف... ولكنه قد يكون أيضًا وسيلة للخلاص... أما بورڤيري فمسألة أخرى...!

إذن لقد شرح بورڤيري الأمر لرازوميهين، وشرحه من الوجهة النفسانية. فقد وجد إذن طريقًا لاستعمال آرائه اللعينة مرة أخرى! بورڤيري! ولكن هل يتسنى له أن يظن بأن بورڤيري يعتقد لحظة واحدة في جرم نيكولاي، بعد

ما كان بينهما قبل دخول نيكولاي في تلك المقابلة التي انفردا فيها؟ وهل يمكن أن يكون لها غير تفسير واحد حقيقي؟

وكان في تلك الأيام كثيرًا ما يستعيد إلى ذهنه بعض عبارات مما قيل في هذه المقابلة، ولم يكن ذهنه ليحتمل أن يتوقف عندها بأكملها. لقد كانت بينهما عبارات وإشارات، وتبودلت نظرات، وقيلت أشياء في نغمات خاصة، وتوترت الأمور بينهما حتى لا يمكن لنيكولاي الذي فهمه بورفيري من أول كلمة أن يبدل عقيدة بورفيري.

«ثم القول بأن رازوميهين أخذت تساوره الشكوك! إن حادث الممر تحت المصباح قد أحدث أثره! إذن لقد جرى رازوميهين إلى دار بورفيري... ولكن لماذا أراد هذا أن يضلله هكذا؟ وما غرضه من خداع رازوميهين على حساب نيكولاي؟ لا بد أنه يدبر أمرًا! إن له غرضًا.. ولكن ما هو؟ لقد مضى وقت طويل من ذاك الصباح الأخير- وقت أكثر مما يجب- ولم ير بورفيري ولم يسمع عنه شيئًا! وهذه علامة سيئة...».

وأمسك رسكولنكوف قبعته وهم بالخروج وهو يفكر، وكانت أول مرة منذ أيام طويلة شعر بأنه سيطر على أفكاره. وكان يفكر: يجب الانتهاء من سفدريجايلوف مهما كلف ذلك وفي أسرع وقت، فهو أيضًا ينتظر أن أذهب لرؤيته.

وفي هذه اللحظة كانت موجة من الحقد تطغي على قلبه المتعب، حتى ليستطيع قتل أحد الخصمين.. بورفيري أو سفدريجايلوف! وكان يشعر على الأقل أنه يستطيع أن يفعل ذلك فيما بعد إذا لم يفعله الآن..

وكان يكرر لنفسه: «سنرى! سنرى!».

ولكنه ما كاد يفتح باب الغرفة حتى وجد نفسه وجهًا لوجه أمام بورڤيري الذي جاء فاعترى رسكولنكوف ذهول لم يطل غير لحظة.. والعجيب في الأمر أنه لم يدهش لرؤية بورڤيري، ولم يكد يشعر بخوف بل بوغت فقط، ولكنه لم يلبث أن اتخذ جانب الحذر.. «ربما كانت هذه هي النهاية! ولكن كيف جاء بورڤيري في هدوء كالهر دون أن أشعر به؟ هل كان ينصت وراء الباب؟».

صاح بورڤيري بتروڤتش ضاحكًا: «إنك لم تكن تتوقع زيارتي يا روديون رومانوڤتش.. لقد عزمت على المجيء منذ زمن بعيد، فلما مررت أمام بيتك قلت لنفسي إني أستطيع أن أصعد لأراك خمس دقائق.. هل كنت عازمًا على الخروج؟ لن أمكث طويلًا، ولن أستغرق من الوقت أكثر مما يقتضي تدخين سيجارة إذا سمحت!».

قال رسكولنكوف وهو يقدم لزائره كرسيًا للجلوس في رقة وود بلغا حدًا كان يعجب له لو أنه رأى نفسه: «فلتجلس إذن يا بورڤيري بتروڤتش، فلتجلس..».

لقد جاءت اللحظة الأخيرة ويجب أن تُشرب الكأس حتى الثمالة، وهكذا يحدث أن رجلًا يقضي نصف ساعة مع قاطع طريق في رعب شديد أليم مخيف، ثم يتبدد خوفه عندما يرى الخنجر في حنجرته.. وأخذ رسكولنكوف مكانه مواجهًا بورڤيري، وأخذ ينظر إليه من غير أن يطرف بعينيه، أما بورڤيري فضيق من عينيه وأخذ يشعل سيجارته.

وكان قلب رسكولنكوف يصيح: «ولكن تكلم! تكلم إذن! لماذا.. لماذا لا تتكلم؟».

* * *

(٢)

قال بورفيري أخيرًا بعد أن أشعل سيجارته: «تبًا للسجائر! إنها تضايقني جدًا ولكن لا أستطيع الإقلاع عنها! فإني أسعل ويحتقن حلقي وأُصاب بضيق التنفس، وإنك لتعلم أني جبان، وقد ذهبت منذ أيام لاستشارة الطبيب «ب» إذ إنه يفحص كل مريض نصف ساعة على الأقل، وقد ضحك عندما رآني ثم فحصني، وبعد ذلك قال: «إن الدخان مضر بك لأن رئتيك تتأثران به!». ولكن كيف أتركه، وماذا يحل مكانه عندي؟ إني لا أشرب الخمر ويا للأسف! ها! ها! فمن سوء الحظ أني لا أشرب الخمر... وكل شيء نسبي يا روديون رومانوفتش، كل شيء نسبي!».

فكر رسكولنكوف في اشمئزاز: «لقد عاد لألاعيبه التي تقضي بها مهنته!». وعادت ذاكرته إلى مقابلتهما الأخيرة وما كان من أمرها، واستولى عليه نفس الشعور السابق.

وأجال بورفيري نظرة فاحصة في الغرفة، واستمر يقول: «لقد جئت

أول من أمس في المساء لأراك، ألا تعلم ذلك؟ وقد دخلت هذه الغرفة ذاتها لزيارتك بعد أن مررت أمام الدار كما فعلت اليوم، وجاءتني الفكرة بأن أرد لك زيارتك، وكان بابك مفتوحًا على سعته، فدخلت وانتظرت قليلًا، وخرجت دون أن أعلن الخادمة. فهل أنت لا تغلق بابك مطلقًا؟».

كان وجه رسكولنكوف يزداد تقطبًا، ويظهر أن بورفيري لحظ ما يجول بخاطره. واستمر يقول: «إني جئت لأحسم الأمر معك أيها العزيز روديون رومانوفتش.. جئت لأفسر موقفي، فإن عليّ واجب التفسير..».

وكان يبتسم وينقر بخفة على ركبة رسكولنكوف!

ولكن في تلك اللحظة ذاتها ارتسمت على وجهه سمة الجهد والتعب، ودهش رسكولنكوف إذ رأى مسحة من الحزن على هذا الوجه، ولم يسبق له أن رأى مثلها، ولم يتصور وجودها!

- لقد جرى بيننا موقف غريب في آخر مقابلة لنا يا روديون رومانوفتش، وكانت مقابلتنا الأولى غريبة أيضًا. ولكن لنتحدث في نظام! كل ما هنالك أني ربما كنت مخطئًا في حقك، وإني أشعر بذلك. هل تتذكر كيف افترقنا؟ كانت أعصابي وأعصابك في أشد توتر، وتصطك ركبتانا. ولكن لتعلم أننا لم نراع حدود اللياقة، ولم نتصرف تصرف السادة المهذبين. ومع ذلك نحن رجلان مهذبان قبل كل شيء، يجب أن تفهم ذلك! هل تتذكر إلى أي حد ذهبنا؟.. كان أمرًا غير لائق...

سأل رسكولنكوف نفسه وهو متحير يتأمل وجه بورفيري: «ما غرضه، وماذا يظنني؟».

واستمر بورفيري في حديثه وقد حول رأسه وخفض من نظرته، كأنه غير راغب في مضايقة ذاك الذي كان ضحيته، وكأنه قد قرر أن يعدل عن طرقه الملتوية: «لقد قررت أن من الخير أن أسلك معك مسلك الصراحة! نعم! إن الشكوك والمشاحنات لا يمكن أن تستمر طويلًا. لقد أوقف نيكولاي كل هذا، ولولاه لما عرفت إلى أي حد كانت تسير بنا الأمور. وكان ذاك العامل اللعين جالسًا طول الوقت في الغرفة المجاورة، هل تتصور هذا؟ إنك لا تعرف هذا بلا ريب! إني لأعلم أنه جاء لرؤيتك بعد ذلك بقليل، ولكن ما ظننته عندئذ لم يكن حقيقيًا، فإني لم أرسل لأحد ولم أصدر أي أمر. قد تسألني لماذا؟ وأنا لا أعرف ما أقول! فإن الفكرة جاءت مفاجأة، ولم أكن أرسلت في طلب البوابين، ولا بد أنك لاحظت وجودهما فقد جاءت الفكرة كالبرق، فاقتنعت بها اقتناعًا راسخًا عندئذ يا روديون رومانوفتش، وقلت لنفسي إنني إذا كنت أترك شيئًا فلا بد أن أقبض على شيء آخر، ولن أخسر ما أريده على كل حال... إنك بطبيعتك سريع الغضب يا روديون رومانوفتش... إنك سريع الغضب أكثر مما يتفق مع ما لك من ميزات قلبية وأخلاقية، وهي ما أهنئ نفسي على معرفتها. ومما لا ريب فيه أنني فكرت عندئذ أنه لا يحدث دائمًا أن يقف الشخص ويروي قصته لأول وهلة، هذا يحدث أحيانًا إذا نفد صبر الرجل، ولكنه يحدث نادرًا، وكان يجب أن أفهم هذا! ولكني قلت لنفسي حينئذ: لو استطعت أن أستخلص دليلًا أو شبه دليل.. شبه دليل واحد مادي أمسك به، لا مجرد فروض نفسانية! وفكرت أن الرجل إذا كان مذنبًا فلا بد من الحصول منه على نتيجة إيجابية، بل يمكن أن تنتظر نتائج عجيبة، وكنت معتمدًا على ما أعرفه من أخلاقك يا روديون رومانوفتش.. على أخلاقك قبل كل شيء..

وكنت أعلق على ذلك آمالًا كبيرة عندئذ».

وتمتم رسكولنكوف أخيرًا دون تفكير: «ولكن إلام تقصد بكل هذا الآن؟».

وكان يسأل نفسه في حيرة: «عم يتكلم؟ هل يكون من المحتمل أن يعتقد بأني بريء حقًا؟».

- إلام أقصد؟ إني جئت لأفسر موقفي، وأرى من واجبي أن أتكلم، فإني أريد أن أشرح لك كيف نشأ هذا وأدى إلى سوء التفاهم بيننا، فقد سببت لك آلامًا كثيرة يا روديون رومانوڤتش، وأنا لست رجلًا فظًا، وإني أستطيع أن أفهم كيف أنه من المؤلم أن يتحمل كل هذا رجل سيئ الحظ ولكنه بطبيعته رجل حاد الطبع، وفوق كل شيء لا يستطيع الصبر على مثل هذه المعاملة! إني أعتبرك على كل حال رجلًا فيك نبل ولا تخلو من كرم، وإن كنت لا أشاطرك بعض عقائدك، وأحب أن أصرح لك بهذا في إخلاص، أولًا لأني لا أريد قط خداعك، فإني عندما عرفت شعرت بجاذبية نحوك.. ربما تضحك من هذا القول، ولك الحق في ذلك، وإني أعلم أنك لم تحبني منذ اللحظة الأولى، والواقع أن لا سبب يدعوك إلى حبي، فلتظن ما تريد! ولكنني من جهتي أريد أن أمحو الفكرة التي نشأت عندك، وأبرهن لك على أن لي قلبًا وضميرًا وأني أتحدث في إخلاص!».

ثم سكت بورڤيري بتروڤتش في عظمة، وشعر رسكولنكوف بتيار من الذعر، فإن التفكير في أن بروفيري قد يعتقد في براءته أخافه فجأة. وتابع بورڤيري بتروڤتش حديثه قائلًا: «ليس من الضروري بلا ريب أن أعود إلى سرد الظروف في تفصيل، ولن أستطيع إذا حاولت، ففي مبدأ الأمر سرت

إشاعات، ولا أريد أن أتحدث عن طبيعة هذه الإشاعات، ولا أذكر لك أين ومتى نشأت، وكيف وصلت إليَّ وما علاقتك بها- لا أبحث في هذا.. لقد ثارت لدي الشكوك لمجرد صدفة كان يمكن ألا تحدث! ما هي هذه الصدفة؟ أرى أن لا حاجة للكلام عنها أيضًا! فهذه الإشاعات وهذه الصدفة أدت إلى تسلط فكرة واحدة عندي، وأعترف لك صراحة- حيث إنه من الخير أن نبوح بكل ما في نفوسنا- أني كنت أول الذين اتجهوا بأنظارهم إليك، ولا تظن أن ملحوظات العجوز على الرهون وغيرها مما له شأن في ذلك، فإنك في رهن أشيائك كنت واحدًا بين مائة. وقد حدث أن سمعت أيضًا بالحادث الذي وقع في مركز الشرطة من رجل وصفه وصفًا دقيقًا وصوره في أروع صورة.. وتجمعت كل هذه الأمور يا صديقي روديون رومانوڤتش! فكيف مع هذا لا أتجه بفكري هذا الاتجاه؟ إنك لا تخلق جوادًا من مائة أرنب، ولا تقيم دليلًا بمائة من الشكوك كما يقول المثل الإنجليزي! ولكن هذا شأن العقل المنطقي، أما الإنسان فلا يستطيع إلا أن يكون متحيزًا، وليس قاضي التحقيق إلا إنسانًا- وتذكر أننا تكلمنا عنه في أول زيارة لك- وقد سخرت منك عندئذ، وإنما فعلت ذلك لكي أدفعك في الطريق.. وأكرر لك يا روديون رومانوڤتش أنك قليل الصبر ومريض، وكنت أعلم من زمن مديد أنك جريء وعنيف وجاد، وأنك تألمت كثيرًا. وأنا أيضًا كثيرًا ما شعرت بمثل ما شعرت به، فكان شعورك معروفًا عندي.. فقد ألفت هذا المقال في ليال من الأرق بينما القلب ينبض، وقد فاض بنزعة التصوف والحماسة المكبوتة، وما أخطر هذه الحماسة المكبوتة المتدفقة في الشباب! لقد سخرت منك عندئذ، ولكن دعني أعترف لك بأني كمولع بالأدب أحب كثيرًا مثل هذه المقالات الأولى التي تملأها حماسة

الشباب، ففيها ضباب ينبعث منه أنين، وترى من خلال هذا الضباب أن مقالك عجيب وخيالي، ولكن عليه طابع الإخلاص وفيه كبرياء الشباب السليم وفيه جرأة اليأس. وهو مقال مظلم- ولكن هذا موضع الإعجاب فيه- فقرأته ووضعته جانبًا... وبعد ذلك قلت لنفسي: إن هذا الرجل لن يسير في طريق الناس جميعًا! فكيف تريد بعد هذه الخطوات التمهيدية ألا أتأثر بما كان بعدها؟ أؤكد لك أني لا أريد أن أقول شيئًا، ولا أرغب في التصريح بشيء، وربما كانت أقوالي لا تنطوي على شيء مطلقًا! ولماذا أفسر لك كل هذا؟لكي تفهمه ولا تلومني على مسلكي السيئ في تلك الفرصة، على أني أؤكد لك أني لم أكن قاسيًا! ها! ها! هل تظن أني لم أقم بتفتيش غرفتك عندئذ؟ لقد فعلت!.. ها! ها! وأنت طريح الفراش.. ولكني لم أقم بذلك رسميًا، ولا بشخصي.. لقد فتشت غرفتك تفتيشًا دقيقًا عند أول شك فيك، ولكن من غير فائدة.. ثم فكرت في نفسي: إن هذا الرجل سيحضر في القريب العاجل، إنه لن يلبث أن يأتي إذا كان مذنبًا! هل تذكر كيف بدأ السيد رازوميهين يحدثك في الموضوع؟ لقد كان ذلك عمدًا ليثيرك.. وأطلقنا الإشاعات عمدًا كي يناقشك فيها؛ لأن السيد رازوميهين رجل لا يستطيع أن يكظم غيظه.. ولقد تأثر السيد زاميتوف تأثرًا كبيرًا بغضبك وجرأتك! فكيف يقدم إنسان على التصريح في مطعم قائلًا: «لقد قتلتها!» في جرأة واندفاع أكثر مما يجب؟ لقد قلت لنفسي: إنه إذا كان مذنبًا فسيكون مناضلًا عظيمًا! هذا ما فكرت فيه عندئذ، ثم انتظرتك.. أما زاميتوف فإنك هزمته، فإن من شأن الاعتماد على الحالات النفسية اللعينة أنها سلاح ذو حدين ولكني ظللت أنتظرك، وإذ بك تجيئني.. لقد وثب قلبي من مكانه.. لماذا إذن جئت إليَّ؟ وتلك الضحكة عند دخولك،

ألا تذكرها؟ إني رأيت كل شيء كوضح النهار، ولولا أني أنتظرك خاصة لما رأيت شيئًا في ضحكتك.. ألا ترى تأثير الحالة النفسية إذن؟ ثم تذكر الحجر الذي أخفيت تحته الأشياء.. كأني أراه! أراه في حديقة من حدائق الخضر.. فإنك تحدثت إلى زاميتوف عن حديقة خضر، ثم تحدثت إليَّ من بعد في مكتبي، ثم إننا عندما أخذنا ننظر في مقالك ونبحثه ونحلله بدا لنا كأن كل كلمة من كلماتك تخفي وراءها معنى آخر.

«وبهذه الطريقة تراني يا روديون رومانوڤتش قد وصلت إلى الحلقة الأخيرة، واصطدمت بحائط، ولكني جمعت قواي وأخذت أفكر في موقفي... وقلت لنفسي: على كل حال أستطيع أن أحمل الأمور على محمل آخر.. وقد يكون هذا التفسير طبيعيًا أكثر من الأول، ولم أستطع الاعتراف بأنه أقرب إلى الطبيعة. وشغل هذا الأمر فكري فقلت لنفسي: من الخير أن أحصل على دليل بسيط.. وعندئذ علمت قصة الجرس، وحبست أنفاسي وارتعدت، وقلت لنفسي: هذا هو دليلي.. ولم أفكر في هذا الأمر من بعد، بل عمدت إلى عدم التفكير. وكنت أهب ألف روبل عن طيب خاطر لأراك بعيني رأسي تمشي مائة خطوة إلى جانب ذاك العامل بعد أن صاح في وجهك: أيها القاتل! دون أن تجرؤ على أن تلقي عليه أقل سؤال.. ثم ماذا تقول في ارتعادك، وفي دق الجرس وأنت في شبه غيبوبة؟

«فكيف تدهش يا روديون رومانوڤتش لأني لعبت هذا اللعب معك؟ ولماذا جئت في تلك اللحظة بالذات حتى لكأن أحدًا دفعك للمجيء؟ ولولا أن نيكولاي فصل بيننا! هل تذكر نيكولاي عندئذ؟ إنه سقط علينا كالصاعقة.. كالصاعقة تمامًا! وهل تذكر كيف قابلته؟ إني لم أصدق تلك

الصاعقة لحظة واحدة كما رأيت؟ وكيف أصدق؟... وبعد رحيلك أجاب عن بعض الأسئلة إجابات معقولة حتى أني دهشت له، ولكني لم أعتقد في قصته.. هذا هو معنى أن يكون الإنسان صلدًا كالصخرة.. على أني قلت لنفسي: إنها أحلام الصباح، ولا شأن لنيكولاي بهذا!..».

وقاطعه رسكولنكوف قائلًا: «ومع ذلك أخبرني رازوميهين الآن أنك تعتقد في أن نيكولاي مذنب، وأنك أكدت له هذا القول!».

ثم انقطع صوته فلم يستطع إتمام قوله، وكان يصغي في تأثر لا يوصف إلى أقوال ذلك الرجل الذي اخترق أعماق نفسه وهو يرتد عن سابق فكرته وكان يخشى أن يصدق ذلك، ولم يصدقه، فكان يبحث بين أقواله ذات المعنيين عن شيء أكثر وضوحًا وأكثر تحديدًا.

صاح بورڤيري بتروڤتش، وكأنه سر إذ وجه إليه رسكولنكوف سؤالًا بدلًا من السكوت إلى تلك اللحظة: «السيد رازوميهين؟ ها! ها! كان عليَّ أن أضلل السيد رازوميهين، إذ يقول المثل: اثنان يتفقان، أما ثلاثة فلا يتفقون! فليس السيد رازوميهين برجل هذه المسألة، وهو بعيد عنها كل البعد، فقد حضر لدي وهو ممتقع الوجه... ولكن لنتركه جانبًا ولا داعي لأن نقحمه! ولنعد إلى نيكولاي.. هل تريد أن تعرف من أي نوع هو من الرجال، أو بالأحرى كيف أفهمه؟ إنه لا يزال طفلًا، ولا أقول إنه أيضًا جبان، وإنما أصفه بأنه ذو نزعة فنية! فهو بسيط يخضع بسهولة لنفوذ الآخرين، وله قلب صاف، وهو ذو نزعة خيالية، يعرف الغناء والرقص، ويحسن رواية القصص حتى أن الناس على ما يقال يأتون من القرى الأخرى ليسمعوه.. وهو يذهب إلى المدرسة، ويأخذه الضحك حتى يصيح فعلًا إذا أشرت إليه

بأصبعك، وقد يسكر إلى أن يفقد الصواب. وهو ليس مدمنًا للشراب وإنما يفعل ذلك في أوقات متفاوتة حين يحمل على الشراب كالطفل.. لقد سرق ذات مرة دون أن يعرف، إذ ظن أن جمع الأشياء من الأرض ليس سرقة.. وهل تتصور أنه من جماعة المتمسكين بالطقوس القديمة في الدين، وأنه لا يقر الطقوس القائمة؟ لقد كان من أسرته من هم «دراويش»، وقد أمضى سنتين في القرية متتلمذًا لراهب من زعماء الدين في القرى. لقد علمت كل ذلك من نيكولاي ومن أهل بلدة «رازابك» موطنه، وفضلًا عن ذلك فقد أراد أن يتنسك، وكان متحمسًا فظل يقضي ليالي بأكملها قائمًا يصلي ويقرأ الكتب القديمة حتى كاد عقله يمس..

«على أن مدينة بطرسبرج أثرت فيه تأثيرًا قويًا، ولا سيما النساء ثم الشراب.. وهو شخص سريع الاستجابة، فنسي الراهب ونسي كل هذه الأمور.. وعلمت أن أحد الرسامين صادفه وصار يتردد عليه، وفي هذه الأثناء حدثت هذه الحادثة، فتملكه الخوف وأراد أن يشنق نفسه! وهرب، إذ كيف تزيل عن أذهان الناس فكرتهم عن القضاء الروسي؟ فإن كلمة «تحقيق» تخيف الكثيرين على من تقع التبعة؟ سنرى ماذا يفعل المحلفون الجديدون! وأرجو الله أن يصنعوا خيرًا.

«حسنًا، وفي السجن على ما يظهر تذكر راهبه وعاد إلى الكتاب المقدس.. هل تعلم يا روديون رومانوڤتش قوة كلمة الآلام عند هؤلاء الناس؟ إنهم لا يقصدون بذلك تحمل الآلام من أجل أحد، بل يقصدون ببساطة أن من واجب الإنسان أن يتألم، فإذا وقعت عليه الآلام من يد السلطات الحكومية كان ذلك خيرًا. وقد حدث لي أن رأيت سجينًا متواضعًا

معتدلًا قضى في السجن سنة، وكان يقضي لياليه في قراءة الكتاب المقدس على ضوء الموقد حتى ذهب لبه، فتناول في أحد الأيام حجرًا وقذف به حاكم السجن من غير سبب، وألقاه عمدًا على بعد متر إلى جانبه كي لا يمسه الحجر بسوء.. إنك لتعرف ما يصيب المسجون الذي يهاجم أحد ضباط السجن بسلاح، فهذا الرجل لم يقصد بذلك إلا تحمل الآلام! فأنا أشك الآن في أن نيكولاي يريد أن يتحمل الآلام أو شيئًا من هذا القبيل، بل أعرف ذلك معرفة أكيدة قائمة على الحقائق... إلا أنه يجهل أني واقف على حقيقة الأمر.. ماذا؟ ألا تعترف بأن من بين الفلاحين أناسًا خياليين؟ إنك لتجد فيهم كثيرين! لقد أخذ الراهب المتنسك يشدد سلطانه عليه الآن، لا سيما بعد أن حاول أن يشنق نفسه، ولكنه سيجيء ويقضي على كل شيء! وهل تظن أنه سيستمر في موقفه؟ انتظر قليلًا فلا بد أن يتراجع! وإني لأنتظر من لحظة إلى أخرى أن يأتي ويعدل عن أقواله! لقد أحببت نيكولاي هذا وأخذت في درس نفسيته، تصور.. ها! ها! إنه أجاب على بعض المشاكل بما يكاد يشبه الحقيقة، فلا بد أنه قد تلقى المعلومات الضرورية واستعد استعدادًا جيدًا! غير أنه لسوء الحظ فشل في بعض المسائل وأظهر أنه لا يعرف عنها شيئًا، وهو لا يشعر حتى بأنه لا يعرف شيئًا!

«لا يا روديون رومانوفتش، يا صديقي العزيز.. ليس لنيكولاي دخل! نحن أمام قضية خيالية مظلمة، وجريمة حديثة وحادث من حوادث العصر، حيث ترى قلب رجل مضطرب قد بلغ منتهى الضيق، وحيث ينادي بأن الحياة الناعمة هي غاية الحياة... إننا نرى فيها تحقيق أحلام قرئت في الكتب، ومظاهر قلب متأثر بالنظريات، فتبين فيها جرأة في الخطوة

الأولى، ولكنها جرأة من نوع خاص. فإن القاتل قد عزم على أن يأتي فعلته، ولكنه أتاها كمن عزم أن يقفز فوق هاوية أو يثب من برج كنيسة، وعلى أن ركبتيه كانتا تصطكان وهو ذاهب للجريمة، فقد نسي أن يغلق الباب خلفه، ولهذا السبب اضطر لأن يزهق نفسين لمجرد تحقيق نظريته.. وقد ارتكب جريمته، ولكنه لم يعرف كيف يستولي على النقود، وما استولى عليه وضعه تحت حجر، ولم تكفه الآلام التي شعر بها وراء الباب وهو يسمع قرع الباب ورنين الجرس، بل عاد إلى الشقة الخالية في شبه غيبوبة، لكي يتذكر رنين الجرس الذي أخافه، وليشعر بتلك الرعدة الباردة تسري فيه... ولنعترف أن هذا كان سبب المرض، ولكن لننظر إلى هذا... إنه قاتل، ولكنه يعتبر نفسه رجلًا شريفًا، ويحتقر الآخرين ويزعم أنه بريء معتدى عليه.. فهذا كله لا ينطبق على وصف رجل مثل نيكولاي يا عزيزي روديون رومانوڤتش».

كان كل ما قاله بورڤيري أشبه شيء بالأدعية، حتى أن هذه العبارات الأخيرة كانت لها هزة عنيفة.. وارتعد رسكولنكوف، وكأنه طعن بخنجر.. ولم يتمالك نفسه إلا أن سأل في صوت متقطع: «ومن.. الذي قتل.. إذن؟».

فارتمى بورڤيري بتروڤتش على ظهر مقعده كأن السؤال قد أدهشه، وقال بلهجة من لا يكاد يصدق أذنيه: «من الذي قتل؟... إنك أنت القاتل يا روديون رومانوڤتش!» ثم أضاف بصوت منخفض، صوت المقتنع تمامًا: «أنت القاتل!».

هنا هب رسكولنكوف واقفًا وظل واقفًا بضع ثوان، ثم عاد فجلس دون أن يفوه بكلمة... وكانت تقلصات عصبية خفيفة تمر على وجهه.

وتمتم بورڤيري بتروڤتش قائلًا فيما يشبه العطف: «إن شفتيك ترتعشان

أيضًا كما في المرة السابقة!» وسكت قليلًا ثم قال: «أظن أنك لم تحسن فهم كلامي يا روديون رومانوڤتش، وهذا هو السبب فيما يبدو عليك من دهشة، فلقد جئت كي أصارحك بكل شيء وأكشف عن كل شيء!».

وردد رسكولنكوف كالطفل الذي يُرى وهو يقترف ذنبًا: «لست أنا الذي قتلتها!».

فقال له بورڤيري في شدة وعن عقيدة: «بل هو أنت يا روديون رومانوڤتش.. هو أنت وليس غيرك».

وسكت الاثنان. ومن الغريب أن طال سكوتهما مدة قد تصل إلى عشر دقائق، وكان رسكولنكوف مستندًا إلى المنضدة وهو يمشط شعره بأصابعه في سكوت، وظل بورڤيري بتروڤتش ينتظر في هدوء إلى أن رفع رسكولنوف نظره إليه في سخرية وقال: «إنك تعود إلى ألاعيبك القديمة يا بورڤيري بتروڤتش وطريقتك المتكررة، وإني لأعجب كيف لم تسأمها!».

– دع هذا، فما حاجتنا إليه الآن؟ قد يكون الأمر مختلفًا لو أن هنالك شهودًا معنا، لكننا نتسار على انفراد.. فأنت ترى إذن أني لم آت لأقتفي أثرك وأتصيدك كالأرنب، وسواء لديّ اعترفت أو لم تعترف.. فهذا لا يهمني الآن، فقد كونت عقيدتي!

سأل رسكولنكوف في غضب: «ولماذا جئت إذن في هذه الحالة؟ وأعود إلى السؤال.. إذا كنت تظنني مذنبًا فلماذا لا تضعني في السجن؟».

– هذا سؤالك؟ سأجيبك عليه نقطة فنقطة.. أولًا لا فائدة لي من القبض عليك مباشرة!

- كيف؟ لو أنك كنت على اعتقاد كهذا لوجب عليك أن تقبض عليّ!

- وما شأن اعتقادي؟ إنه عندي مجرد حلم في هذا الوقت، ثم لماذا أضعك في أمان؟ وإنك لتعلم هذا جيدًا حيث إنك تطلبه مني! فإني إن واجهتك بذلك العامل مثلًا فلسوف تقول له: ألم تك سكران؟ من رآك معي؟... إني ظننتك سكران... أو كنت كذلك؟ وبماذا أستطيع أن أجيبك حيث إن أقوالك في ظاهرها أقرب للصدق من أقواله التي لا تقوم إلا على اعتبارات نفسانية، وهو ما يتلاءم مع وجهه القبيح.. ثم إنك تكون قد نطقت بالصدق، فإن هذا الخبيث مشهور بإدمانه للشراب... ولقد اعترفت لك صراحة أكثر من مرة أن الاعتبارات النفسانية ذات وجهين، وأن الوجه الثاني أقوى وأرجح من الأول، وأنه فضلًا عن ذلك ليس لدي دليل عليك. وبالرغم من أني سآمر بالقبض عليك فقد جئت لتنبيهك لأخبرك بذلك قبل وقوعه على خلاف المعهود وبالرغم من أن هذا ليس في مصلحتي.. ثم جئت ثانيًا لأني...

وسأل رسكولنكوف في لهفة: «نعم! نعم! ثم ثانيًا؟».

- جئت لأني- كما قلت لك الآن- قدرت أن من واجبي أن أفسر لك الأمور، فلست أريد أن أكون وحشًا في عينيك، لا سيما أني أميل إليك ميلًا خالصًا سواء صدقت أم لم تصدق، ثم جئت لغرض ثالث مباشر وصريح وهو أني أقترح عليك التسليم والاعتراف، ففي هذا فائدة لك ولي أيضًا، إذ ينتهي عملي في هذه القضية.. هل ترى الآن أني صريح؟

فكر رسكولنكوف لحظة ثم قال: «استمع إليَّ يا بورفيري بتروفتش.. لقد قلت لك الآن إنه ليس لديك دليل غير الأدلة النفسانية، ولكنك انتقلت

الآن إلى تقديرات حسابية.. فماذا يكون لو أنك مخطئ في حسابك؟».

- لا، لست مخطئًا يا روديون رومانوڤتش.. إن لدي دليلًا صغيرًا ساقته العناية الإلهية إليّ..

- وما هو هذا الدليل؟

- لا أقوله لك يا روديون رومانوڤتش! وفضلًا عن ذلك لم يبق لي الحق في أن أؤجل بل يجب أن آمر بالقبض عليك، ففكر في هذا الأمر إذ هو لا يهمني الآن، وإنما أقوله من أجلك وأقسم لك أن خير ما تعمله هو أن تتبع نصيحتي يا روديون رومانوڤتش..

ابتسم رسكولنكوف ابتسامة خبيثة وقال: «إن ما تقوله لي مضحكًا فقط، بل إنك طرحت فيه الحياء.. فلنفرض أني مذنب، ولست بذاك قطعًا، فلماذا تدعوني للاعتراف في حين أنك تقول أنت نفسك إن في السجن أمانًا لي؟».

- لا تكن كبير الثقة بالألفاظ يا روديون رومانوڤتش.. فقد لا يكون السجن مريحًا بعد! إنها لنظرية أقولها، وهي نظريتي.. وأي سلطان لي في هذا الأمر أمامك؟ وربما أني أخفي عنك شيئًا في هذه اللحظة.. فلست أستطيع أن أفضي إليك بكل شيء! ها! ها! وقد تسألني: وأية فائدة تعود عليك من الاعتراف؟.. ألا تعلم أن هذا يؤدي إلى تخفيف العقوبة؟ إنك تتقدم للاعتراف في لحظة اتخذ فيها غيرك مسئولية الجرم على عاتقه، وبذلك ضلل التحقيق.. فكر في هذا! وإني أقسم لك أمام الله بأني سأنظم الأمور بحيث يكون اعترافك مفاجأة كاملة.. وسنطرح جانبًا كل هذه

التحليلات النفسية، وكل الشكوك التي تحوم حولك، حتى تتخذ جريمتك مظهر الخبل في عقليتك، وهي في الحقيقة ليست إلا كذلك... وإني رجل شريف يا روديون رومانوڤتش وسأحافظ على كلمتي!

سكت رسكولنكوف في حزن وخفض رأسه، وظل يفكر طويلًا وأخيرًا عاد فابتسم، على أن ابتسامته كانت وديعة وحزينة. ثم قال وكأنه عدل عن إخفاء الأمور عن بورڤيري: «ما الفائدة؟ ولم ذلك؟ إني لا أهتم بتخفيف العقوبة..».

صاح بورڤيري في حماسة وكأنه اندفع إليها بالرغم منه: «هذا ما كنت أخشاه.. إنني كنت أخشى أنك لا تهتم بتخفيف العقوبة!».

فنظر إليه رسكولنكوف بعينين حزينتين معبرتين..

واستأنف بورڤيري حديثه: «لا تحتقر الحياة، فلا يزال أمامك الكثير منها! كيف تقول إنك لا تهتم بتخفيض العقوبة؟ إنك لرجل قليل الصبر!».

– مقدار كثير من ماذا أمامي؟

– من الحياة! هل أنت نبي حتى تعرف ما أمامك؟ ابحث أنت وستجد! ربما أن الله أرسل لك هذه المحنة لتعود إلى الإيمان به.. ثم إن الأغلال ليست دائمة..

قال رسكولنكوف ضاحكًا: «سيكون هناك تخفيف للعقوبة!».

– إنك لا تخشى إلا الفضيحة أمام الناس! وربما كنت خائفًا منها دون أن تعرفها لأنك شاب! ولكن لست أنت الذي يخشى من تسليم نفسه والاعتراف!

همس رسكولنكوف في ضيق وحنق كأنه مل الحديث: «إني لا أهتم لذلك..».

وهم بالقيام، لكنه عاد وجلس وقد تملكه يأس ظاهر. فقال بورفيري:

- إنك لا تهتم لأنك فقدت الثقة وتظن أني أتملقك كثيرًا، ولكن هل عشت في الحياة طويلًا؟ وماذا تفهم أنت من أمور الحياة؟ إنك اتبعت نظرية وإنك خجل في الوقت الحاضر لفشلها وثبوت أنها لم تكن مبتكرة! وإنها لنظرية حقيرة حقًا... ولكنك مع ذلك لست حقيرًا إلى الدرجة القصوى... بل لست قطعًا حقيرًا إلى هذا الحد! فإنك على الأقل لم تخدع نفسك مدة طويلة، بل ذهبت دفعة واحدة إلى أقصى الحدود... قد تسأل ما رأيي فيك؟ إني أعتبرك أحد هؤلاء الناس الذين يتركون يد الجلاد تعبث بأحشائهم وهم يبتسمون، بشرط أن يكون الإيمان بالله قد نفذ إلى قلوبهم! فابحث عنه وستحيا! إنك في الواقع منذ زمن في حاجة إلى تبديل الهواء، وقد تنفعك الآلام.. فلتتألم! ربما كان نيكولاي على صواب في غربته في الألم.. إني أعرف أنك لا تعتقد في ذلك، ولكن لا تكن حكيمًا أكثر مما يلزم.. فلتلق بنفسك في تيار الحياة من غير تفكير ولا خوف، وستصل إلى شاطئ تقف فيه على قدميك! أي شاطئ؟ ذاك ما أجهله، وكل ما أعتقده فقط أنه لا تزال أمامك حياة طويلة. وإني لأعلم أنك تعتبر كلماتي إن هي إلا موعظة أعددتها من قبل! وماذا يهمني؟ قد تتذكرها يومًا ما وتكون فائدة لك، هذا هو السبب في أني أتكلم! من حسن الحظ أنك لم تقتل غير المرأة العجوز، ولو أنك ابتدعت نظرية أخرى لكان من المحتمل أن ترتكب جرمًا أفظع ألف مرة! ربما كان عليك أن تحمد الله على هذا! ومن يعلم؟...

ربما كان الله يبغيك لأمر! فليكن قلبك أكثر صفاء وأقل خوفًا... وهل تخشى التكفير العظيم أمامك؟.. لا! لا! من العار أن تخشى ذلك..حيث إنك خطوت هذه الخطوة فيجب أن تكون قويًا.. هذه هي العدالة، فلتقم إذن بما تطلبه العدالة... أعرف أنك لا تعتقد، ولكني أؤكد أن حب الحياة سيتغلب في آخر الأمر، وستحبها من جديد. ولكنك في الوقت الحاضر أنت في حاجة إلى الهواء الجديد.. إلى الهواء الجديد!

بوغت رسكولنكوف فجأة وصاح: «من أنت حتى تتخذ شعار الأتقياء، ومن أي هدوء عظيم تلقي عليَّ هذه الأقوال الحكيمة؟».

قال بورڤيري: «من أنا؟ إني رجل لا أمل له في شيء! هذا كل ما هنالك! إني رجل ذو شعور وعطف.. قد لا أكون خاليًا من المعرفة، ولكن يومي قد انقضى! أما أنت فلك شأن آخر. فالحياة في انتظارك! ولكن من يعلم؟ فقد تمر حياتك أيضًا كالدخان دون أن تترك أثرًا... فماذا يهم إذا لم يرك أحد مدة طويلة؟.. ليس الأمر متعلقًا بالزمن، بل أنت الذي تقرر ذلك! لتكن شمسًا فيراك العالم بأسره، ومع ذلك فواجب الشمس الأول أن تضيء.. لماذا تبتسم مرة أخرى؟ ألأني أقلد أقوال شيللر؟. إني أراهن على أنك تعتقد في كلامي كل الاعتقاد، بل ربما كان من الخير ألا تعتقد في كلامي مطلقًا! هذه طبيعتي، وأنا مسلم بهذا! ولكن دعني أضيف أنه يمكنك الحكم فيما أظن إلى أي حد أنا رجل وضيع، وإلى أي حد أنا رجل شريف».

- متى تفكر في القبض علي؟

- أستطيع أن أتركك حرًا لمدة يوم أو يومين، ففكر يا صديقي وتوسل

إلى الله! ثم ثق أنه من صالحك أن تتصرف كما ذكرت لك..

سأل رسكولنكوف وهو يبتسم ابتسامة غريبة: «وإذا عمدت إلى الفرار، ماذا يكون؟».

فقال بورفيري: «لا! إنك لن تفر! قد يفعل هذا الفلاح، وقد يفعله المؤمن المتعصب الحديث، وقد يفعله ذاك الذي يكون عبدًا لآراء غيره، فإن مثل هذا تشير إليه بطرف خنصرك فإذا هو يصدق إشارتك بقية حياته.. أما أنت فلم تعد تصدق حتى نظريتك فلماذا تفر؟ وماذا تعمل في اختفائك؟ ستكون الحياة بغيضة إليك وشاقة عليك، وأنت في أشد الحاجة إلى مركز ثابت وجو ملائم، فهل تجده هنالك؟ إنك إن حاولت الفرار فستعود من تلقاء نفسك، فإنك لا تستغنى عنا.. وإذا وضعتك في السجن وأمضيت فيه شهرًا أو شهرين أو ثلاثة شهور، فتذكر كلماتي.. إنك ستعترف من تلقاء نفسك، وستدهش لذلك، إذ لا تعرف قبل ساعة أنك آت للاعتراف... بل إني على ثقة من أنك أنت تريد أن تحمل الألم! إنك لا تصدق كلماتي في هذه اللحظة، ولكنك ستعمل بها لأن الألم شيء عظيم يا روديون رومانوڤتش! إني أعرف ذلك بالرغم من أني بدين ولا أمنع نفسي شيئًا.. لهذا لا تسخر من فكرة الألم، إنها فكرة عظيمة ونيكولاي على حق! إنك لن تفر يا روديون رومانوڤتش».

قام رسكولنكوف وأمسك بقبعته، وقام بورفيري إيڤانوڤتش أيضًا..

– هل أنت ذاهب للتنزه؟ إن المساء سيكون رائقًا إذا لم تهب عاصفة.. وربما كان ذلك خيرًا! إذ إنها تجدد الهواء!

وتناول قبعته، وقال رسكولنكوف في نغمة جافة وفي إصرار: «أرجو يا بورفيري بتروفتش ألا يتبادر إلى ذهنك أني اعترفت لك اليوم.. إنك رجل عجيب، ولقد استمعت إليك لمجرد حب الاستطلاع، ولكني لم أعترف لك بشيء... تذكر هذا!».

- حسنًا حسنًا، إني أعرف ذلك وسأتذكره! إنك ترتعد، يا لك من مسكين! لا تكن قلقًا أيها العزيز، فإن كل شيء سيدبر حسب رغبتك. فلتتنزه قليلًا ولكن لا تمش طويلًا!

ثم أضاف في صوت منخفض: «وإذا حدث لك حادث فإني أحب أن أطلب منك طلبًا.. إنه أمر دقيق ولكنه مهم! إذا طرأت لديك فكرة- وإني لا أعتقد فيها ولا أظنك قادرًا عليها- إذا جاءتك الفكرة في فترة الأربعين أو الخمسين ساعة المقبلة بأن تنهي الموقف بطريقة أو بأخرى- بطريقة خيالية- مثلًا بأن تنال من نفسك- إن هذا الفرض سخيف ولكن اعذرني عليه- فلا تنس أن تترك كلمة قصيرة ولكن واضحة من سطرين فقط تدل على المكان الذي فيه الحجر، فإن ذلك أشرف.. والآن إلى الملتقى... وأرجو لك التوفيق في آرائك وأن تكون قراراتك حكيمة!».

خرج بورفيري وهو يتألم بعض الشيء ويتجنب النظر إلى رسكولنكوف الذي اقترب من النافذة، وانتظر في غضب ونفاد صبر اللحظة التي قدر فيها أن بورفيري قد وصل إلى الشارع وابتعد عن الدار... ثم خرج بعد ذلك مسرعًا.

***

(٣)

خرج رسكولنكوف مسرعًا وهو يقصد دار سفدريجايلوف، ولم يكن يعرف ماذا ينتظر منه. على أن هذا الرجل كان له سلطان خفي عليه، ومنذ تبين له هذا صار لا يهدأ له بال؛ وقد أزف الوقت الأخير.

وكان في طريقه لا يكاد يفكر إلا في مسألة واحدة، هي: هل اتصل سفدريجايلوف ببورڤيري؟

وكان على حسب تقديره يجزم بأنه لم يحدث بينهما اتصال، بل يكاد يقسم على ذلك. وكان يعود مرارًا إلى التفكير في زيارة بورڤيري له، فيزداد اقتناعًا بأن هذا الاتصال لم يتم!

ثم تساءل: إذا لم يكن حدث بينهما اتصال إلى تلك اللحظة، فهل يكون ذلك فيما بعد؟ فخيل إليه أن هذا الاجتماع بينهما لن يكون على الأقل في الوقت الحاضر! ولماذا؟ لم يستطع تفسير ذلك، ولو استطاع لما حاول أن يتعب رأسه في حل هذه المسألة. كل هذه الأمور شغلت باله، ولكنه شعر في الوقت ذاته أنه لا يستطيع الاهتمام بها كثيرًا! ومن العجيب الذي لا يكاد

يصدقه أنه لم يكن يشعر إلا بشيء من القلق البسيط على مستقبله القريب، فقد كان معذبًا بفكرة أخرى تقلقه كثيرًا ويهتم لها كثيرًا، وهي متعلقة أيضًا بشخصه ولكنه يراها حيوية له، وكان يشعر فضلًا عن ذلك بإرهاق أدبي كبير بالرغم من أن عقله كان يعمل في ذلك اليوم أكثر منه في الأيام السابقة.

ولكن هل بعد كل ما حدث له، يكون من الجدير به أن يحاول التغلب على تلك الصعوبات الجديدة الضئيلة؟ وهل يجب أن يسعى كي يحول دون ذهاب سفدريجايلوف لزيارة بورڤيري فيبحث، ويستعلم ويضيع وقته من أجل شخص مثل سفدريجايلوف؟

لقد مل حقًا كل هذه الأمور..

ومع ذلك فقد أسرع في الذهاب إلى سفدريجايلوف، فهل ينتظر منه شيئًا جديدًا كمعلومات أو طريقة للخروج من أزمته، إن الغريق ليتشبث بقطعة من القش.. أليس هو القدر أو الغريزة التي تدفع كلًّا منهما نحو الآخر؟ ربما كان التعب أو اليأس أو ربما كان في حاجة إلى غير سفدريجايلوف. وقد يقابله صدفة عنده، سونيا؟ ولكن لماذا يذهب إلى سونيا الآن؟ ليسألها شيئًا من الدموع أيضًا؟ إن سونيا تخيفه الآن فهي القرار الذي لا يمكن نقضه. وأمامه الخيار بين طريقه وطريقها. وكان يشعر في تلك اللحظة خاصة أنه غير قادر على مقابلتها! أليس من الخير إذًا أن يجرب سفدريجايلوف؟ لم يجد بدًّا من الاعتراف لنفسه بأنه كان يشعر منذ زمن بعيد بضرورة مقابلته لسبب من الأسباب.

ومع ذلك أي شيء يجمع بينهما؟ إن آثامهما نفسها لا يمكن أن تكون متماثلة، وفضلًا عن ذلك كان هذا الرجل كريهًا جدًا، فهو مجرد من

الفضيلة ماكر بلا ريب، ومخادع ربما كان يضمر السوء. وهنالك روايات عنه تدل على ذلك! أجل، إنه اهتم وعني بأطفال كاترينا إيفانوڤنا، ولكن من يعلم غرضه في ذلك؟ إن نفس هذا الرجل تنطوي دائمًا على نيات وأغراض خفية.

وكانت فكرة أخرى تراود رسكولنكوف منذ بضعة أيام وتقلق خاطره كثيرًا، وتؤلمه أشد الألم حتى أنه حاول إبعادها عن ذهنه فكان يخطر له أحيانًا أن سفدريجايلوف يتابع خطواته، فهل اكتشف سره؟ وهل لا يزال يؤمل في دنيا! وهل يكاد يكون من المؤكد ذلك؟ وماذا يكون الحال لو أنه بعد أن وقف على السر واستطاع بذلك التسلط عليه أن يحاول أن يتخذ منه سلاحًا يهدد به دنيا؟

كانت هذه الفكرة تعذبه حتى في أحلامه، ولكن لم تظهر قط بهذا الوضوح مثلها حين ذهابه إلى سفدريجايلوف. فكان إذا فكر فيها استشاط غضبًا؛ لأنها تغير من كل شيء بل تغير مركزه إذ يضطر للاعتراف بسرعة لدنيا! ثم هل يضطر إلى تسليم نفسه كي يحول دون اتخاذها خطوة غير موفقة؟ وهذه الرسالة؟ قد تسلمت دنيا رسالة في هذا الصباح... من الذي كتب لها من بطرسبرج؟ ربما كان لوجين!! لا ريب في أن رازوميهين سيكون هناك ليحميها، ولكن رازوميهين لا يعلم شيئًا.. فهل يضطر إلى الاعتراف لرازوميهين بكل شيء؟ فكر رسكولنكوف في هذه الفكرة بمقت وكراهية.

وقرر نهائيًا أنه يجب على كل حال أن يرى سفدريجايلوف! وكانت تفصيلات المقابلة لا تهمه بقدر وصوله إلى لب الموضوع، ولكن إذا كان

سفدريجايلوف قادرًا على عمل شيء يضر بدنيا وقتئذ...

كانت حوادث هذا الشهر قد أنهكت قواه حتى صار لا يستطيع حل مثل هذه المشكلات إلا بطريقة واحدة.. وقال لنفسه في يأس: «عندئذ سأقتله!».

وأثقل على قلبه حزن عميق، فوقف في عرض الطريق ونظر حوله ليرى أين هو وأي طريق يسلكه، فإذا به في شارع س.. الذي يبعد ثلاثين أو أربعين خطوة عن ميدان التبن وقد اجتاز في طريقه إلى يساره دارًا تشغل الطابق الثاني منها حانة وكانت نوافذها مفتوحة، وتبين من رؤية الأشخاص الذين يمرون بهذه النوافذ أن هذه الحانة كانت غاصة بالناس، وتسمع منها أصوات الغناء وصفير الكلارنيت ورنين الكمان ودق الطبل وصيحات النساء، وكان على وشك أن يعود أدراجه وهو يتساءل لماذا جاء إلى هذا الشارع، حين شاهد فجأة في إحدى النوافذ المفتوحة سفدريجايلوف وقد جلس إلى مائدة شاي عند النافذة وأخذ يدخن غليونه.. وقد بوغت رسكولنكوف لهذه المفاجأة واستحوذ عليه الخوف، وكان سفدريجايلوف يراقبه في سكون، ولاحظ رسكولنكوف لأول وهلة أنه كان معتزمًا القيام والتخلص منه إذا لم يتجه نظره إليه، وعلى ذلك تظاهر رسكولنكوف بأنه لم يره وتحول بنظرة شاردة إلى جهة أخرى، وإن ظل يراقبه بجانب من عينه وكان قلبه يدق دقًا عنيفًا... ومن الواضح أن سفدريجايلوف كان لا يريد أن يراه.. فأخرج الغليون من فمه وأراد أن يختفي، ولكنه بعد أن وقف وأزاح الكرسي تبين له أن رسكولنكوف يراقبه بلا شك، فكان ما بينهما مشابهًا لما وقع عندما تقابلا لأول مرة في مسكن رسكولنكوف، فقد بدت على وجه سفدريجايلوف

ابتسامة ماكرة، وأخذ فمه يتسع بها، وعرف كل منهما أن الآخر يراقبه.. وأخيرًا انطلق سفدريجايلوف في ضحك عال..

وصاح سفدريجايلوف من النافذة: «حسنًا.. فلتدخل إذا أردت فإني هنا!».

وصعد رسكولنكوف إلى الحانة، فوجده جالسًا في طرقة صغيرة إلى جانب بهو فسيح فيه تجار وموظفون وغيرهم، وهم جلوس حول عشرين مائدة صغيرة، يشربون الشاي بينما تضج جوقة من المنشدين بالغناء، ويسمع من بعيد صوت تصادم كرات البلياردو.. وكان أمام سفدريجايلوف زجاجة مفتوحة وقدح مليء إلى نصفه بنبيذ شمبانيا، وكان في الغرفة أيضًا غلام يحمل أرغنًا يدويًا وفتاة حمراء الوجنتين عليها مظاهر الصحة، في الثامنة عشرة من عمرها مرتدية ثوبًا ذا خطوط وتضع على رأسها قبعة تيرولية ذات شرائط وجونلة مقلمة، وهي بالرغم من المنشدين في الفرقة الأخرى كانت تغني أغنية من أغاني الشوارع بصوت غليظ فيه بحة، ويصحبها الغلام موقعًا على أرغنه اليدوي.

وقاطعها سفدريجايلوف عند دخول رسكولنكوف: «كفى الآن». فتوقفت الفتاة عن الغناء وانتظرت في أدب، وكانت من قبل تغني وعلائم الجد والاحترام على وجهها.

صاح سفدريجايلوف: «فيليب! أريد قدحًا».

فقال رسكولنكوف: «لا أشرب شيئًا». فقال سفدريجايلوف: «كما تريد، ومع ذلك لم أطلبه لك.. اشربي يا كاتيا! ولست في حاجة إلى أكثر من ذلك اليوم، فيمكنك أن تنصرفي».

وملأ لها القدح بالشمبانيا وأعطاها ورقة عملة صفراء..

وأفرغت كاتيا القدح وهي ممسكة به في يدها على طريقة النساء، وشربته في عشرين جرعة. وتناولت ورقة النقد وقبلت يد سفدريجايلوف، وسمح لها بهذا في جد، ثم خرجت من الغرفة وتبعها الصبي بأرغنه اليدوي.

وقد التقطها سفدريجايلوف من الشارع، وهو لم يحضر إلى بطرسبرج إلا منذ ثمانية أيام، ومع ذلك اتخذ كل ما حوله نظام رب الأسرة.. وكان خادم الحانة فيليب يظهر له منتهى الاحترام ويعامله معاملة معارفه الأقدمين، وكان الباب الذي يؤدي للبهو الفسيح مقفلًا، فيستطيع سفدريجايلوف أن يمضي يومه في هذه الغرفة الصغيرة وكأنه في داره، وكانت الحانة صغيرة وقذرة من طبقة أقل من المتوسط.

ابتدأ رسكولنكوف الحديث قائلًا: «كنت ذاهبًا إلى مسكنك ولكن لا أعرف لماذا اتجهت نحو الشارع الكبير.. وأنا قادم من ساحة التبن في التو واللحظة، وإني لا أمر أبدًا من هذا الطريق وأتجه دائمًا إلى اليمين حين أغادر الساحة، وليس هذا طريق الذهاب إلى مسكنك، وبمجرد أن سرت في هذا الاتجاه وجدتك! هذا غريب!».

فقال سفدريجايلوف: «لماذا لا تقول صراحة إنها معجزة؟».

فأجاب رسكولنكوف: «لأنها ربما تكون مجرد صدفة».

فضحك سفدريجايلوف وقال: «من العجيب في أمركم أيها الناس أنكم لا تعترفون بالمعجزة بينما تعتقدون بها في أعماق نفسكم فتقولون إنها ربما كانت مجرد صدفة! لا يمكنك يا روديون رومانوڤتش أن تتصور إلى أي حد يجبن الناس هنا من الإعراب عن آرائهم، ولا أقصدك بهذا القول فإن لك آراء

خاصة وأنت لا تخشى إبداءها، وهذا هو السبب في أنك أثرت اهتمامي!».

فسأل رسكولنكوف: «ألا يوجد سبب آخر؟».

فأجابه: «هذا يكفي، وأنت تعرف ذلك».

وكان سفدريجايلوف قد تأثر بالشراب قليلًا، ولم يكن قد شرب غير نصف قدح من النبيذ.

ولاحظ رسكولنكوف قائلًا: «يظهر أنك جئت لزيارتي قبل أن تعرف بأني قادر على أن يكون لي رأي شخصي».

- هذه مسألة أخرى، ولكل مشروعاته.. أما فيما يتعلق بالمعجزة فإني أقول لك إني أظن أنك نمت اليومين أو الثلاثة الأيام الأخيرة، ولقد حدثتك بنفسي عن هذه الحانة وليس في مجيئك هنا مباشرة معجزة، فقد وصفت لك الطريق الذي تسلكه، وأخبرتك عن المكان الذي هي فيه والساعات التي يمكن أن تجدني فيها، فهل تذكر ذلك؟

أجاب رسكولنكوف متعجبًا: «لا أذكر...».

- إني أصدقك! فقد ذكرت لك هذا مرتين فنقش العنوان في ذاكرتك بطريقة آلية، وقد سرت بطريقة آلية أيضًا قاصدًا هذا المكان المطلوب دون أن تفكر في ذلك، وحين كنت أكلمك لم يكن لديّ أمل كبير في أن تفهمني! إن دخائلك تظهر عليك أكثر مما يجب يا روديون رومانوڤتش.. وقد لاحظت شيئًا آخر في بطرسبرج، هو أن الكثير من الناس يمشون ويتحدثون إلى أنفسهم.. فهي مدينة مليئة بأنصاف المجانين، ولو كان بيننا باحثون في العلم والطب والقانون والفلسفة لوجد كل منهم في بطرسبرج

موضوع أبحاث قيمة في دائرة اختصاصه، وقليل من المدن به ما بهذه المدينة من تأثيرات مظلمة وقوية وعنيفة في نفس الإنسان، وأن الجو وحده له تأثير كبير ومع ذلك فإن بطرسبرج هي المركز الإداري لجميع أنحاء روسيا وينعكس تأثيرها على أنحاء البلاد. ولكن ليس هذا موضوع حديثي بل أردت أن أقول لك إني راقبتك عدة مرات من بعيد، فإذا بك عندما تغادر منزلك تكون رافع الرأس فإذا بعدت عشرين خطوة أحنيت رأسك وشبكت يديك خلف ظهرك، وإنك لتنظر ولكنك لا ترى أمامك أو إلى جانبك شيئًا، ثم تأخذ في تحريك شفتيك والتحدث إلى نفسك وتأتي أحيانًا بإشارات بإحدى يديك وكأنك تخطب، وأخيرًا تقف في عرض الطريق لمدة طويلة.. وهذا أمر سيئ، فقد يحدث أن يراقبك غيري وهذا أمر خطر.. على أن هذا لا علاقة له بي على كل حال، ولست موكلًا بمعالجتك ولكنك تفهمني بلا ريب!

فسأله رسكولنكوف وقد ألقى عليه نظرة فاحصة: «هل تعلم أنهم يراقبونني؟».

أجاب سفدريجايلوف وقد ظهرت عليه الدهشة: «كلا، لا أعلم شيئًا من هذا!».

تمتم رسكولنكوف وقد تقطب جبينه: «في هذه الحالة دعنا من هذا!».

– ليكن! دعنا من هذا..

– خبرني.. إذا كنت تأتي إلى هذا المكان للشراب وقد طلبت مني مرتين أن أقابلك هنا، فلماذا حاولت أن تخفي نفسك وتترك مكانك حين

رفعت عيني من الشارع إلى النافذة؟ لقد لاحظت ذلك جيدًا!

– ها! ها! ولماذا أغمضت عينيك وأنت راقد على فراشك واصطنعت النوم في اليوم الذي وقفت فيه على عتبة غرفتك بينما كنت متيقظًا؟ لقد لاحظت ذلك جيدًا!

– قد تكون لديَّ أسباب... إنك تعلم ذلك تمامًا..

– وأنا أيضًا ربما كانت لديّ أسباب ولكنك لا تعلمها!

وضع رسكولنكوف كوعه منتصبًا على المائدة وأسند ذقنه على أصابع يده اليسرى، وظل دقيقة يفحص وجه سفدريجايلوف الذي كان يسترعى نظره دائمًا وإن كان وجهًا غريبًا أشبه شيء بقناع، فهو أبيض ومورد وشفتاه شديدتا الحمرة، وله لحية شقراء وشعر رأسه أصفر غزير. وكانت عيناه ثابتتين زرقاوين أكثر مما يجب وتعبيراتهما ثقيلة، وكان هذا الوجه على ما فيه من جمال ومن ماء الشباب بالرغم من سنه منفرًا جدًا. وكان سفدريجايلوف أنيقًا في ثوب صيفي وقميص يدل على العناية بالملبس. وهو يضع في إحدى أصابعه خاتمًا كبيرًا فيه حجر كريم.

ثم قال رسكولنكوف فجأة معالجًا الموضوع الذي يشغل باله في نفاد صبر:

– هل عليّ أن أشغل نفسي بأمرك أيضًا الآن؟ إنك ربما كنت أخطر رجل يستطيع أن يؤذيني، ومع ذلك فإني أريد أن أكون صريحًا معك، وسأثبت لك في الحال أني لا أقدر نفسي كما تظن، فلتعلم إذن أني جئت لأقول لك في صراحة إنك إذا كنت لا تزال على نياتك السابقة نحو أختي،

وإذا كنت تريد أن تستخدم في هذا السبيل معلومات وقفت عليها أخيرًا فإني سأقتلك قبل أن أذهب إلى السجن، ولتعلم بأني أحافظ على كلمتي.. ثم إذا كان لديك ما تقوله لي- إذ يلوح لي إنك تحاول أن تحدثني في شيء- فلتتكلم سريعًا؛ لأن وقتي ثمين ولربما تكون متأخرًا لو أجلت هذا!

فسأل سفدريجايلوف وهو ينظر إليه في فضول: «وما الذي يدعو إلى هذه العجلة؟».

فأجاب رسكولنكوف في لهجة قاطعة قاتمة ونفاد صبر: «لكل منا مشروعاته...».

فلاحظ سفدريجايلوف في ابتسامة: «إنك تدعوني للصراحة ثم من السؤال الأول ترفض الإجابة! إنه يخيل إليك أني أتبع غرضًا معينًا وتنظر إليّ في ريبة، وهذا مفهوم في مركزك.. ولكن بالرغم من رغبتي في مصادقتك فإني لن أكلف نفسي إقناعك بما ينفي ذلك، والمسألة لا تستحق العناية، ولم أكن أريد محادثتك في أمر خاص».

- لماذا تريدني إذن ولماذا تحوم حولي؟

- لأنك - ببساطة- جدير بالملاحظة.. لقد أعجبتني لغرابة موقفك... هذا هو السبب، ثم إنك فضلًا عن ذلك أخ لشخص اهتممت به كثيرًا، ثم إني سمعت عنك كثيرًا في الماضي من هذا الشخص مما بعثني على الاعتقاد بأن لك تأثيرًا كبيرًا فيه. أليس في ذلك الكفاية؟ ها! ها! ها! ومن ذلك أقر بأن سؤالك يبدو لي معقدًا جدًا وليس من السهل الإجابة عنه، فإنك مثلًا قد جئت لرؤيتي لا لغرض محدد فقط بل لتسمع شيئًا جديدًا، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

وأصر سفدريجايلوف على ترديد هذه العبارة بابتسامة ماكرة: «والآن ألا تتصور أني في طريقي إلى هنا في القطار كنت أعتمد على أن أعلم منك شيئًا جديدًا وأستفيد منك بعض الفائدة؟ فأنت ترى إلى أي حد نحن أغبياء!».

- أي فائدة تستفيدها مني؟

- كيف أخبرك؟ وكيف أعرف ذلك؟ إنك ترى في أي حانة أمضي وقتي للتسلية! إنه ليس فيها تسلية كبيرة، ولكن يجب أن يجلس المرء في مكان ما! وهذه الفتاة المسكينة كاتيا، هل رأيتها؟ لو كنت شرهًا أكولًا... ولكنك ترى ماذا آكل!

وأشار إلى مائدة صغيرة في أحد الأركان عليها بقايا كريهة المنظر من اللحم البقري والبطاطس في طبق من الصفيح..

- هل تناولت غداءك؟ لقد أصبت من الطعام شيئًا ولا أريد أكثر مما أصبت، وإني لا أشرب من الخمر غير نبيذ شمبانيا ولا أمس شيئًا غير قدح منه طول المساء، وهو كاف لتصديع رأسي. وقد طلبت هذا النبيذ الآن لأنعش نفسي، إذ إني ذاهب إلى أحد الأمكنة وعقلي منشغل بهذا.. وهذا هو السبب في أني حاولت الاختفاء عن نظرك كما يفعل صبي المدارس خشية أن تعوقني، ولكني أعتقد (وأخرج ساعته) أني أستطيع أن أمضي معك ساعة من الزمن، فلم يتجاوز المساء منتصف الساعة الخامسة! آه لو أنه كان لي عمل فكنت من ذوي الأملاك أو رب عائلة أو ضابطًا من الفرسان أو مصورًا فوتوغرافيًا أو من رجال الصحافة... إني لست شيئًا مذكورًا ولا عمل لي وأشعر أحيانًا بالملل تمامًا! والواقع أني اعتقدت بأنك ستنبئني نبأً جديدًا.

– ولكن من أنت ولماذا جئت هنا؟

– من أنا؟ إنك تعرف أني سيد عمل مدة سنتين في الفرسان، ثم عاش في أركان بطرسبرج، ثم تزوج من ماريا بتروڤنا وعاش في الريف.. هذا هو تاريخ حياتي!

– أظنك تقامر، أليس كذلك؟

– لا! إني نوع سيئ من المقامرين، فأنا مخادع في الورق ولست مقامرًا!

– إذن كنت مخادعًا في لعب الورق!

– نعم، كنت كذلك!

– هل لم يضربك أحد لذلك؟

– حدث هذا، لماذا؟

– لأنك كنت تستطيع عندئذ دعوتهم إلى المبارزة... إنها حياة فيها نشاط وتنوع!

– لا أعترض عليك، ولست من المهرة في الفلسفة. وأعترف لك أني أسرعت إلى هنا من أجل النساء!

– بمجرد أن دفنت ماريا بتروڤنا!

ابتسم سفدريجايلوف في صراحة جذابة وقال: «هذا ما حدث فعلًا! ما الضرر في ذلك؟ يظهر أنك تجد خطأ في حديثي عن النساء!».

– أتسألني هل هنالك خطأ في الرذيلة؟

– رذيلة؟ ماذا تعني! ولكن سأجيبك في نظام أولًا فيما يتعلق بالنساء عمومًا، وإنك لتعلم أني مولع بالحديث! قل لي.. ما الذي يدفعني إلى كبح نفسي؟ لماذا أترك النساء إذا كنت مولعًا بهن؟ إنه على كل حال عمل يشغلني..

– إذن فأنت لا تأمل في شيء هنا غير الرذيلة؟

– فليكن ذلك! إنك تصر على أن في الأمر رذيلة.. ولكني على كل حال أحب السؤال الصريح.. ففي هذه الرذيلة على الأقل شيء دائم وقائم على الطبيعة وليس قائمًا على الخيال، شيء موجود في الدماء كأنه قبس دائم الإضاءة يشعل النار في الفرد، وقد لا ينطفئ سريعًا حتى مع مر السنين، وستتفق معي على أنه نوع من العمل..

– ليس في ذلك ما يسر له المرء، فإنه لمرض، ومرض خطير!

– أهذا ما تظنه؟ ليكن مرضًا شأن كل شيء يتجاوز حد الاعتدال، ولا ريب في أن هذا الأمر يتجاوز الاعتدال! ولكن يقال أولًا إن كل إنسان يأتي ذلك بطريقة من الطرق، وثانيًا يجب على الإنسان أن يكون معتدلًا وحذرًا مهما كان هذا العمل حقيرًا.. ولكن ماذا أعمل؟ فلو لم يكن لديّ هذا العمل لأطلقت الرصاص على نفسي، وقد أعترف أن الرجل الجدير بالاحترام يحتمل الملل، ومع ذلك...

– وهل تستطيع أن تطلق الرصاص على نفسك؟

وتخلص سفدريجايلوف في استياء قائلًا: «لندع هذا!». ثم أضاف فجأة وفي غير نغمة الهذر السائدة على الحديث السابق، وقد تغير وجهه:

«أرجوك ألا تتكلم في هذا... يجب أن أعترف لك بضعف فيَّ لا يغتفر، ولكني لا أستطيع التغلب عليه! إني لأخشى الموت وأكره الخوض في حديثه. هل تعرف أني متصوف لحد ما؟».

فقال رسكولنكوف: «آه.. وأشباح مارفا بتروفنا ألا تزال تزورك؟».

صاح في نغمة التضايق: «لا تتكلم عنها.. لقد اختفت هذه الأشباح في بطرسبرج.. لعنها الله! لتتكلم عن... ولكن... أرى أنه ليس أمامي فسحة من الوقت ولا أستطيع المكث معك طويلًا، وللأسف فقد كان لديّ الكثير مما أحب الإفضاء به».

سأله رسكولنكوف: «هل أنت على موعد مع امرأة؟».

فأجاب: «نعم، مع امرأة.. إنها مسألة عابرة. لا. ليس ذلك ما أريد التحدث عنه».

فقال رسكولنكوف: «ما أقبح ما يحيط بك وأقذره! ألا يؤثر ذلك فيك؟ هل فقدت المقدرة على وقف نفسك؟».

فأجاب: «وهل تزعم أن لديك قوة أنت؟ ها! ها! إنك تدهشني يا روديون رومانوفتش بالرغم من أني كنت أتوقع ذلك فيك! فإنك تعظني عن الرذيلة وعن الجمال، هل تظن أنك متأثر بشيلر وأنك مثالي مثله؟ بالطبع إن ذلك ما يجب أن يكون، وقد يدهش المرء إذا لم يكن الأمر كذلك، ومع كل فهو أمر عجيب في الحياة الواقعية... ومما يؤسف له أنه ليس لديَّ وقت، فإنك نوع من الناس يلذ لي! قل لي.. هل أنت مولع بشيللر؟ إني مولع به جدًا!».

فقال رسكولنكوف في شيء من الاستياء: «إنك لثرثار!».

أجاب سفدريجايلوف ضاحكًا: «أقسم لك أني لست كذلك.. لا أجادل، فقد أكون ثرثارًا! ولماذا لا أثرثر إذا كان ذلك لا يضير أحدًا؟ لقد أمضيت سبع سنوات في الريف مع مارفا بتروفنا، فإذا قابلت الآن شخصًا ذكيًا مثلك- وتلذ لي دراسته- فإني أجد سرورًا في الحديث معه، ثم إني فضلًا عن ذلك شربت نصف قدح من الشمبانيا فأثرت في رأسي بعض الشيء، ثم إن هنالك أمرًا أثارني كثيرًا، ولكني سأصمت فيما يتعلق به..». ثم سأل في ذعر: «إلى أين أنت ذاهب؟».

وكان رسكولنكوف قد بدأ يقف وشعر بضيق واختناق وعدم ارتياح لمجيئه هنا، وساد في اعتقاده أن سفدريجايلوف هو أحقر مخلوق قذر على وجه الأرض..

ورجاه سفدريجايلوف: «آه! اجلس.. انتظر قليلًا.. فلتنتظر إلى أن يأتوك بشيء من الشاي.. انتظر قليلًا، ولن أتكلم هراء عن نفسي.. سأخبرك كيف حاولت امرأة أن «تنقذني»- كما كانت تسمي عملها- وسيكون ذلك ردًا على سؤالك الأول؛ لأن المرأة كانت أختك! هل أخبرك؟ إن ذلك يساعد على تمضية الوقت».

- أخبرني.. ولكن أؤمل أن تكون...

- لا تكن قلق البال من هذا، فضلا عن أنه مهما كان المرء وضيعًا حقيرًا مثلي فلا يمكن إلا أن تبعث أفدوتيا رومانوفنا فيه شعور الاحترام..

***

(٤)

ابتدأ سفدريجايلوف حديثه قائلًا: «ربما كنت تعلم- بل ذكرت لك في حديثي- إني حبست من أجل مبلغ كبير لم أجد أمامي سبيلًا لسداده، وليس ثمة فائدة في الإفاضة في الطريقة التي اشترت بها مارفا بتروفنا خروجي، هل تعرف إلى أي حد يبلغ جنون المرأة إذا أحبت؟ لقد كانت امرأة أمينة وعاقلة ولو أنها غير مثقفة.. فهل تصدق أن هذه المرأة الأمينة الغيور تتنازل بعد دقائق عديدة من بكاء وعتاب إلى أن تتفق معي على نوع من العقد وتنفذه بدقة طول حياتنا أثناء الزواج؟ ولقد كانت تكبرني سنًا بكثير، وتضع دائمًا في فمها نوعًا من حب القرنفل.. أما أنا فكنت غبيًا من جهة، وأمينًا من جهة أخرى، فصارحتها بأني أضمن لها الوفاء الدائم.. وقد أطار هذا الاعتراف صوابها، ولكنها أحبت صراحتي الوحشية، وقد رأت أن ذلك مما يدل على أني غير راغب في خداعها، إذ أنذرها على هذه الصورة من مبدأ

الأمر. وإنك لتعلم أن هذا هو الاعتبار الأول لدى المرأة الغيور، وقد وصلنا بعد بكاء ودموع إلى اتفاق غير مسطور، هو أولًا أني لا أهجر مارفا بتروڤنا مطلقًا وأظل دائمًا زوجًا لها، ثانيًا أني لا أتغيب مطلقًا من غير إذن منها، ثالثًا ألا أتخذ لي خليلة دائمة، رابعًا في مقابل هذا تطلق لي مارفا بتروڤنا الحرية الكاملة فيما يتعلق بالخادمات ولكن بشرط أن أخبرها بذلك سرًا، خامسًا ألا أحب مطلقًا امرأة من طبقتنا، سادسًا إذا حدث لا قدر الله أن وقعت في غرام جدي فيجب أن أبوح به لمارفا بتروڤنا.. وهي لم تكن قلقة من جهة هذا الشرط الأخير، فقد كانت امرأة ذكية فلم تكن ترى فيَّ إلا رجلًا فاسقًا ولوعًا بالنساء لا يمكن أن يعرف الحب، ولكن تختلف المرأة العاقلة ويا للأسف عن المرأة وهي غيور كل الاختلاف، وهذا سبب المصاعب..

ولكي نحكم حكمًا صائبًا على بعض الناس يجب أن نبدأ بالتنازل عن بعض الآراء التي ثبتت لدينا من قبل ونظرتنا إلى عادات الناس من حولنا، وإن لديَّ ما يحملني على الثقة بحكمك أكثر من أي إنسان آخر.. قد تكون سمعت من قبل أشياء كثيرة مضحكة وسخيفة عن ماريا بتروڤنا، والواقع أن لها بعض تصرفات مضحكة، ولكني أعلن صراحة أني آسف في إخلاص لما سببته لها من أحزان لا تحصى، يكفي ما قلته رثاء جميلًا يشيد بفضل زوجة من أرق الزوجات لزوج من أرق الأزواج! وكنت في أثناء عراكنا لا أغضب بل أسكت أكثر الوقت، وكان مسلكي المهذب لا يخيب أثره إلا نادرًا، فيؤثر فيها تأثيرًا حسنًا ويريها بل يبعثها أحيانًا على أن تكون بي فخورة... ولكنها لم تحتمل حادث أختك. ومع ذلك فقد خاطرت باتخاذ مربية لأطفالها في مثل هذا الجمال! وتفسيري لذلك أن مارفا بتروڤنا

كانت امرأة مندفعة شديدة التأثر، فهي قد وقعت في حب أختك- وأحبتها فعلًا- ولا غرابة، فلتنظر إلى أفدوتيا رومانوفنا! ولقد رأيت الخطر من النظرة الأولى! وهل تصدق أيضًا أن مارفا بتروفنا غضبت فعلًا لإصراري على السكوت فيما يتعلق بأختك وعدم احتفالي بمدائحها المستمرة في أفدوتيا رومانوفنا؟ ولست أعلم ماذا كانت غايتها، ومن المفهوم أن مارفا بتروفنا قصت على أختك قصتي بأجمعها، فمن عاداتها القبيحة أن تقص على الناس أسرارنا العائلية وتجهر الشكوى مني، فكيف تفوتها فرصة الإفضاء إلى هذه الصديقة الجديدة الجميلة؟ أظن أنهما لم تكونا تتناولان من الموضوعات غيري، وأن أفدوتيا رومانوفنا سمعت جميع الإشاعات الخفية المظلمة التي تعزى إليَّ... إني لأراهن على أنك سمعت أيضًا شيئًا من هذا النوع.

قال رسكولنكوف: «أجل سمعت، فقد اتهمك لوجين بأنك سببت وفاة طفلة.. هل هذا صحيح؟».

فقال سفدريجايلوف في استياء وضيق: «أرجو ألا تشير إلى تلك القصص التافهة، وإذا كنت تصر على معرفة تفصيلات هذه الأحاديث السخيفة فليكن ذلك في وقت آخر وليس الآن!».

وعاد رسكولنكوف يقول: «وقيل أيضًا إنك أسأت إلى أحد خدمك في الريف».

فاعترض سفدريجايلوف ثانية قائلًا وقد كاد صبره ينفد: «دع الحديث في هذا الموضوع».

فقال رسكولنكوف وقد أخذ يزداد غضبه: «أليس هذا الخادم هو الذي أتى ليملأ غليونك بعد وفاته؟.. أنت الذي قلت ذلك!».

فنظر إليه سفدريجايلوف نظرة اهتمام ثابتة، وخيل لرسكولنكوف أنه رأى ما يشبه السخرية والكراهية في هذه النظرة... ثم تغلب سفدريجايلوف على عواطفه وقال في أدب كبير:

– نعم، هو! أرى أن هذا الموضوع يهمك كل الاهتمام، وسأعمل على إرضاء فضولك في أول فرصة... يا الله! أرى أني أبدو شخصًا خياليًا في أعين بعض الناس! إذن يمكنك أن تحكم إلى أي حد أنا مدين لمارڤا بتروڤنا إذ روت كل هذه الإشاعات الشائقة الغامضة لأختك، ولست أزعم معرفة الأثر الذي تركته هذه الإشاعات في نفسها، ولكنه كان في صالحي. فبالرغم من كراهيتها الغريزية نحوي، وبالرغم من مظهري المظلم الكريه، فقد انتهى الأمر بها إلى الشفقة على ذلك الرجل الخاسر.. وليس أخطر على قلب الفتاة الصغيرة من الشعور بالشفقة، إذ يولد عندها الرغبة في إنقاذه وفي إسماعه صوت العقل ورفع نفسيته والرجوع به إلى الطريق السوي وأن يبعث إلى حياة جديدة فيها نفع... على أننا جميعًا لا نجهل ما يمكن تحقيقه من هذه الأحلام! وقد رأيت لأول وهلة أن العصفور في طريقه لدخول القفص من تلقاء نفسه وأخذت عدتي لذلك! إنك تقطب حاجبيك يا روديون رومانوڤتش ولكن لم تفعل وإنك لتعلم جيدًا أن كل شيء انتهى كالدخان؟.. تبًّا لي فقد شربت كثيرًا من النبيذ!.. هل تعلم أني كنت منذ البداية آسفًا على أن أختك لم تولد في القرن الثاني أو الثالث بعد المسيح فتكون ابنة لأمير أو حاكم أو قنصل من المسيطرين في آسيا الصغرى؟ إذن

لكانت إحدى اللواتي تحملن الاستشهاد وتبتسم بينما يكوون صدرها بالحديد المحمي، بل كانت تبحث بنفسها عن التضحية.. ولو أنها عاشت في القرن الرابع أو الخامس للجأت إلى إحدى صحراوات مصر وعاشت ثلاثين سنة لا تطعم بغير جذور النباتات والتحمس والخيالات، فهي تتعطش للعذاب في سبيل أي إنسان ولو حرمتها من هذا العذاب لألقت بنفسها من النافذة! لقد سمعت كلامًا عن سيد اسمه رازوميهين، ويظهر أنه رجل عاقل كما يدل عليه اسمه، وقد يكون من طلاب الجامعة الذين يدرسون الدين.. حسنًا! دعه يرعى أختك! أظن أني الآن فهمتها حق الفهم. وأنا أفخر بذلك! على أن المرء في مبدأ معرفته بآخر كما تعلم يكون أقل عناية وأكثر غباء ولا يرى الأمور على صحتها، وتبًا لهذا! ولكن لماذا هي على هذا الجمال الرائع؟ ليس الأمر من ذنبي! الواقع أن الأمر ابتدأ عندي برغبة جسدية ملحة، غير أن أفدوتيا رومانوفنا طاهرة لدرجة نادرة لا تصدق، ولتلاحظ أني أذكر ذلك عن أختك لأنه حقيقة ثابتة، وطهرها يكاد يبلغ حد المرض بالرغم من اتساع عقلها، وسوف يضر هذا الأمر بها. وقد حدث أن جيء لنا من القرية المجاورة بخادمة جديدة اسمها باراشة، وهي فتاة دعجاء لم أرها قط من قبل، وهي جميلة جدًا ولكنها غبية إلى حد لا يصدق، وعندما اقتربت منها أخذت تبكي وأدت ولولتها إلى فضيحة حقيقية... وفي ذات يوم تبعتني أفدوتيا رومانوفنا بعد العشاء إلى إحدى طرق الحديقة، وألحت علي بعينيها البراقتين بأن أعدل عن التعرض لباراشة المسكينة، وكانت هذه المقابلة على ما أظن أول مقابلة التقينا فيها على انفراد، وكان من الطبيعي أن أنزل على رغبتها. وحاولت أن

أظهر بمظهر الخجل المضطرب، وبالاختصار لم أخفق في تمثيل دوري. ومن تلك اللحظة وجدت بيننا مقابلات وأحاديث خفية ومواعظ وتأنيب ورجاء والتماس بل دموع! نعم! حتى الدموع! وإنك لترى إلى أي حد يدفع الولع بالوعظ الفتيات الصغيرات! ومن المفهوم أني ألقيت بمسئولية كل شيء على عاتق القدر، وظهرت بمظهر الرجل المتعطش إلى الضوء. وأخيرًا التجأت إلى أنجع طريقة للاستيلاء على قلب امرأة، وهي طريقة لا تخيب أبدًا وتؤثر عليهن جميعًا بلا استثناء! إنك لتعرفها، وهي تملقهن... ليس في العالم شيء أصعب من الصراحة ولا أسهل من الملق، ففي الحالة الأولى خطوة واحدة خاطئة ويسقط كل شيء إلى الأرض وينكشف الأمر.. أما الملق فإنه حسن الوقع على الآذان وإن كان كاذبًا، ويبعث على الرضا مهما كان الكذب فيه واضحًا، ولا بد أن السامع يصدق على الأقل نصف ما فيه! هذا هو الواقع في كل وسط اجتماعي أو ثقافي! ثق أن العذراء المترهبة لا تقاوم إغراء الملق، فكيف بغيرها؟ إنني لا أستطيع أن أتذكر دون أن أضحك كيف أغريت سيدة كانت مخلصة لزوجها وأطفالها ولها مبادئها، وكان الأمر باعثًا على التسلية وسريع الأثر، وكان للسيدة على كل حال مبادئ تتمسك بها، وكانت خطتي أني أظهرت تأثري وسجودي أمام صفاء سيرتها، وكنت أتملقها بلا حياء، وإذا حصلت منها على مجرد ضغط على اليد أو مجرد نظرة كنت ألوم نفسي أمامها لأني التجأت للقوة في الحصول على ذلك، وأعلن أنها تمنعت وتمنعت وأني لم أصل إلى أقل مظهر من رضاها لو لم أكن عديم المبادئ.. وكنت أزعم أنها كانت بريئة حتى أنها لم تلحظ خيانتي وخضعت لي دون أن تشعر، وما ماثل ذلك من قول..

والواقع أني نلت ما آمله منها وهي معتقدة ببراءتها وطهرها، وأنها أمينة على كل واجباتها والتزاماتها وأنها لم تسلم نفسها إلا بمحض الصدفة... ولقد ثارت وغضبت حقًا حين قلت لها فيما بعد إني مقتنع كل الاقتناع بأنها راغبة فيَّ بقدر ما كنت راغبًا فيها، وكانت مارفا بتروفنا المسكينة تتأثر كثيرًا بملقي، ولو أردت لحولت جميع أملاكها باسمي في أثناء حياتها- لقد شربت الكثير من النبيذ الآن فصرت ثرثارًا!- لا تغضب إذا قلت لك إن تأثير أحاديثي على أفدوتيا رومانوفنا كان مثل ذلك أيضًا، ولكن يا للأسف أدت غباوتي وتسرعي إلى الفشل.. ففي مرات عديدة، ولا سيما في إحدى المرات، تضايقت أختك كثيرًا من نظراتي، فهل تصدق هذا؟ فقد كان فيها أحيانًا نور يخيفها ويقوى ويزداد قوة إلى أن يصير كريهًا لديها، ولا أهمية للتفصيلات.. كل ما يجب أن تعرفه أن القطيعة وقعت بيننا، وحينئذ قمت بعمل سخيف آخر هو أني سخرت بأخشن الطرق بمواعظها، وعدت إلى باراشة وإلى غيرها، وارتكبت الكثير من الأفعال! وليتك رأيت ولو مرة يا روديون رومانوفتش ما تستطيع أن تطلقه عيناها من وميض.. وأحيانًا- لا بأس من سكري في هذه اللحظة بعد أن شربت قدحًا كاملًا من النبيذ! إني أتكلم الحقيقة! أؤكد لك أني كنت أرى هذه النظرة في الحلم وأصبحت لا أحتمل حفيف ثوبها، واعتقدت حقًا أني سأصاب بنوبات الصرع، ولم أصل قط من قبل إلى مثل هذه الدرجة من الغضب الشديد، وصار من الضروري العودة إلى الوئام، ولكن ذلك الأمر صار مستحيلًا، وهل تعرف ماذا فعلت عندئذ؟ وإلى أي حد من الغباء يدفع الغضب الشديد بالإنسان؟ لا تقدم على عمل يا روديون رومانوفتش وأنت في مثل تلك الحال! إني

قدرت أن أفدوتيا رومانوفتش ما هي إلا شحاذة (معذرة! لم أكن أريد النطق بهذه الكلمة، ولكنها تؤدي المعنى!) وأنها تعيش بعملها، وعليها أن تعول أمك وتعولك (تبًا لي! وإني أستطيع أن أدبر ثلاثين ألفًا من الروبلات- إذا رضيت بالفرار معي إلى مدينة بطرسبرج... وكان الواجب طبعًا أن أتكلم عن الحب الأبدي والقطيعة وما إلى ذلك.. هل تصدق؟ لقد كنت مجنونًا بها، حتى لو أنها طلبت إليَّ أن أخنق مارفا بتروفنا أو أدس لها السم كي أتزوج منها لفعلت في الحال.. ولكن كل شيء انتهى بالكارثة التي تعرفها، ويمكنك أن تتصور شدة غضبي حين علمت أن مارفا بتروفنا قبضت على لوجين محاميها النذل ودبرت بينهما الزواج، وهو في نهاية الأمر ما كنت أعرضه على أختك... أليس كذلك؟ أليس ذلك حقًا؟ إني أرى الآن أنك تصغي إليَّ في انتباه كبير أيها الشاب الذي يسترعى النظر...

وضرب سفدريجايلوف المنضدة بقبضته وقد نفد صبره، وكان وجهه محمرًا.. وتبين لرسكولنكوف في وضوح أن القدح أو الكوبة والنصف من الشمبانيا التي شربها في جرعات صغيرة أخذت تؤثر فيه.. وتقرر لديه أن ينتهز الفرصة فإنه كان كثير الشكوك فيما يتعلق بسفدريجايلوف.

وقال له في صراحة لكي يزيد من غضبه: «بعد ما قلت لي، لا أشك مطلقًا في أنك جئت إلى بطرسبرج ولك أغراض خفية تتعلق بأختي!».

فأجاب سفدريجايلوف وكأنه يستيقظ: «أتظن ذلك؟ لقد أخبرتك... ثم قلت لك بصراحة أن أختك لا تطيقني!».

- نعم! إني واثق من ذلك، ولكن ليس هذا ما أسألك عنه!

فضيق سفدريجايلوف من عينيه وابتسم في سخرية وهو يقول:

- هل أنت واثق من ذلك؟ إنك على حق، فهي لا تحبني ولكن لا تعرف على وجه التحقيق ما يكون بين الزوج وزوجته وبين العاشق وعشيقته، إذ يبقى دائمًا ركن صغير يخفى عن أعين الناس أجمعين ولا يعرفه غيرهما، فهل تستطيع أن تقسم على أن أفدوتيا رومانوڤنا لا تكن لي غير المقت؟..

- إن بعض كلماتك تدلني على أنك تدبر أمرًا لدنيا- وهو أمر سيئ بالطبع- وأنك عازم على العمل لأغراضك في أقرب وقت!

فسأل سفدريجايلوف في بساطة دون أن يعير أقل اهتمام لما وصفت به أغراضه: «ما هي الكلمات التي فهت بها؟».

- إنك إلى الآن تفوه ببعض الكلمات.. فمم تخاف؟ ولماذا يتملكك الخوف سريعًا؟

- أنا خائف؟ خائف منك؟ أنت أولى بأن تخشاني أيها الصديق.. ما هذا الذي أقوله؟ لقد شربت أكثر مما يجب كما أرى فتوسعت في الحديث! تبًّا للنبيذ! إليّ بماء!

وأمسك بالزجاجة ورمى بها ببساطة من النافذة، وأحضر فيليب الماء..

فقال سفدريجايلوف وقد بلل منشفته بالماء ومسح بها جبهته: «ولكني أستطيع أن أجيب في كلمة وأبدد شكوكك، فهل تعلم أني سأتزوج؟».

أجاب رسكولنكوف: «لقد أخبرتني بذلك من قبل!».

فقال: «قلت لك هذا؟ لقد نسيت.. ولكني لم أقل لك ذلك على سبيل التأكيد؛ لأني لم أكن رأيت تلك التي وقع عليها اختياري، بل كنت

أنوي ذلك فقط، والآن لي خطيبة وقد بت في الأمر، ولولا أن لدي عملًا لا يمكن تأجيله لأخذتك في الحال إلى دار خطيبتي، إذ كنت أحب أن أسألك النصيحة! تبًا لهذا! لم يبق أمامنا غير عشر دقائق، انظر إلى الساعة! ومع ذلك أحب أن أروي لك قصة هذا الزواج، فهي غريبة... إلى أين أنت ذاهب؟ هل ما زلت تريد الذهاب؟».

قال رسكولنكوف: «لا! في الوقت الحاضر سوف لا أذهب!».

قال سفدريجايلوف: «لا تذهب. سترى! سأصحبك إلى دار خطيبتي ولكن في غير هذه اللحظة. إذ يجب علينا أن نفترق، فتذهب أنت إلى اليمين وأذهب أنا إلى اليسار. هل تعرف السيدة زرليش؟ المرأة التي أسكن عندها في الوقت الحاضر؟ هل تسمعني؟ لا! إني أعرف ما تفكر فيه، فهي المرأة التي قيل إن لها فتاة ألقت بنفسها إلى الماء في الشتاء.. هل تستمع لي! إنها هي التي رتبت لي كل شيء إذ قالت: «إنك تشعر بالملل وتريد ما يشغل فراغك قليلًا» لأني كما تعلم رجل عابس مكتئب! هل تظنني مرحًا؟ لا! إني أميل للكآبة ولست أضر في ذلك أحدًا، بل ألزم ركني. ويحدث أن أظل ثلاثة أيام دون أن أنطق بكلمة، على أن زرليش امرأة ماكرة، وإني لا أعلم ما ترمي إليه من وراء هذا الأمر فهي تظن أني سأحل كل هذا فأهجر زوجتي وأرحل، وحينئذ تضع يدها عليها وتكتسب عن طريقها رجال الطبقة التي أنتمي إليها، بل من رجال طبقة أعلى.. وقد علمت منها أن للفتاة أبًا مريضًا كان موظفًا ثم اعتزل الخدمة، وهو لا يبرح مقعده منذ ثلاث سنوات إذ أصيب بالشلل في قدميه كما أخبرتني! إن الأم سيدة عاقلة، ولها ابن يعمل في إحدى الولايات ولا يساعد أبويه، ولها أخت تزوجت ولا تأتي مطلقًا

لزيارة أهلها، ولدى الأسرة طفلان صغيران من أخ تعولهما كأن ليس في أطفالهما الكفاية، وقد حجز الفتاة الصغيرة من الذهاب إلى المدرسة الثانوية قبل أن تتم دروسها، وستبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد شهر وحينئذ تستطيع الزواج، وهي التي سأتزوج منها! وقد ذهبنا إلى دار الأسرة، وكان منظرًا مضحكًا.. وقدمت نفسي على أني رجل من ذوي الأملاك أرمل ذو اسم واتصالات معروفة ومال، وماذا يهم إذا كانت في السادسة عشرة من عمرها وأنا في الخمسين؟ إن الناس الآن لا يلتفتون لمثل هذه التفاهات... ولكنه أمر جذاب.. أليس كذلك؟ إنه لجذاب حقًا. ها! ها! كان يجب أن تشاهدني وأنا أتحدث إلى الأب وإلى الأم. إنه لمنظر يبذل في سبيله المال. وتدخل الفتاة وتنحني تحية لي وهي لا تزال في ثوبها القصير، زهرة لم تتفتح أكمامها بعد. وقد اصطبغ وجهها بالحمرة كالشمس عند الغروب، ولا ريب في أنهم أخبروها بالأمر، ولست أعرف رأيك في وجوه النساء، ولكن في رأيي أن هذه السنوات الست عشرة وهاتين العينين فيهما براءة الطفولة وذلك الخجل ودموع الطهارة كل ذلك خير من الجمال، وخطيبتي فوق ذلك كصورة كاملة صغيرة.. فشعرها أشقر ملتف في حلقات صغيرة، والشفتان رقيقتان حمراوان، ولها نهدان صغيران فهي ساحرة بالاختصار.. وقد تعارفنا وأخبرتهم أني أتعجل الأمر لأسباب منزلية، وفي اليوم التالي- أي في اليوم السابق على أمس- تمت الخطوبة.. وحين أذهب لزيارتها الآن أجلسها على ركبتي طوال الوقت، فيحمر وجهها كالشفق، وأقبلها بين دقيقة وأخرى، وتخبرها أمها أني زوجها في المستقبل وأنه يجب أن يكون الأمر بيننا هكذا. وإني لأجد لذة كبيرة في هذه الحالة، ولعل الخطوبة خير من

الزواج، ففيها ما يمكن أن نسميه الطبيعة والحقيقة.. ها! ها! لقد تحدثت إلى الفتاة الصغيرة مرتين، وهي ليست بالغبية، وهي تنظر إليَّ أحيانًا نظرة تذكي النار في قلبي، ويذكرني وجهها بوجه العذراء في صورة رافائيل، ففي هذه الصورة ترى في وجه العذراء تعبيرًا غير عادي هو تعبير التأثير الديني الممتزج بنظرة الحزن... هل لاحظت هذا في الصورة؟ إن فيها شيئًا من ذلك... ولقد اشتريت لها في اليوم التالي للخطوبة هدايا كلفتني ألفًا وخمسمائة روبل، وهي حلية من الماس وأخرى من اللؤلؤ وصندوق للزينة من الفضة كبير الحجم به أشياء كثيرة، حتى أن وجه العذراء تهلل. وبالأمس أجلستها على ركبتي، ولعلي فعلت ذلك دون احتفال كبير، فاحمر وجهها احمرارًا شديدًا وجالت الدموع في عينيها، ولكنها حاولت إخفاء ما بها. وقد تركنا أهلها على انفراد، فطوقت عنقي بذراعيها فجأة (وكان ذلك أول مرة تأتي فيها ذلك من تلقاء نفسها) وضمتني بين هاتين الذراعين الصغيرتين وقبلتني وهي تقسم على أنها ستكون زوجة طيعة وأمينة مخلصة، وستعمل على إسعادي وتوقف حياتها عليَّ وتضحي بكل شيء، ولا تطلب في مقابل ذلك غير احترامي لها.. وأنها لا ترغب في أي شيء مني، ولا ترغب في هدايا مطلقًا من بعد. ولتعترف معي أن سماع هذا التصريح من ملاك صغير في السادسة عشرة من عمره، وهو في ثوب من القماش الأبيض الخفيف، وله شعر ذو حلقات وقد احمر الوجه بحياء الطهر، وفي العينين دموع الحماسة- لمما يسحر المشاهد.. ألا تجده كذلك؟ ألا تجد أن هذا المنظر جدير بأن تنفق في سبيله الأموال؟ استمع إليَّ... سنذهب معًا إلى دار خطيبتي... ولكن في غير هذا الوقت..».

قال رسكولنكوف: «الواقع أن هذا الفارق الفظيع في العمر وفي النمو مما يهيج من حواسك... هل تفكر حقًا في هذا الزواج هكذا؟».

أجابه: «ولم لا؟ لن أرجع في ذلك.. إن كل امرئ يفكر لنفسه، وأسعد الناس هو الذي يعرف كيف يخدع نفسه.. ها! ها! ولكن لماذا تتمسك بأهداب الفضيلة؟ ارحمني يا صديقي الطيب فإني رجل مذنب.. ها! ها!».

فقال: «ومع ذلك أراك ضمنت مستقبل أطفال كاترينا إيفانوڤنا.. ولو أن لك من وراء ذلك غرضًا.. إني أفهم الآن كل شيء».

فضحك سفدريجايلوف وقال: «إني مولع بالأطفال. مولع بهم جدًا، وأروي لك حادثًا غريبًا على سبيل المثال.. في اليوم الذي وصلت فيه أخذت أجوب أنواع الملاهي الليلية، وكنت متعطشًا إليها بعد غياب سبعة أعوام. ولربما لاحظت أني مهمل في الاتصال بأصدقائي القدماء، بل أحاول أن أتجنبهم أطول وقت ممكن، وكنت وأنا في الريف بدار مارڤا بتروڤنا يتسلط عليَّ الشوق إلى تلك الأماكن الغريبة التي يجد فيها الواقف على خفاياها أمورًا كثيرة. يا الله. إن الفلاحين يقبلون على الڤودكا، أما الشبيبة المثقفة المحجوزة عن النشاط فإنها تقضي على نفسها في بحر من الأحلام والأوهام المستحيلة التحقيق، وتنقطع إلى النظريات، بينما قام اليهود يجمعون المال. أما بقية الناس فهم منهمكون في الملذات، ولقد صعدت إلى خياشيمي تلك الرائحة المعهودة لهذه المدينة منذ الساعات الأولى. وكنت في جحر مخيف، وإني لأحب مثل هذه الأماكن القذرة، وكان فيها رقص وخلاعة وضجة لم أعرف لها شبيهًا في زمني، ففي هذا المجال تجد تقدمًا! وعلى حين فجأة رأيت فتاة صغيرة في الثالثة عشرة من عمرها في ثياب

جميلة وهي ترقص مع شخص مختص في هذا النوع، وأمامها شخص في مواجهتها، وكانت أمها جالسة على مقعد قريبًا من الحائط. ولك أن تتصور نوع هذا الرقص الهائج، وخجلت الفتاة واحمر وجهها وتضايقت وابتدأت تبكي، فأمسك بها زميلها وأخذ يدور بها وهو يأتي بآلاف الحركات التي تشبه حركات القردة، وقهقه الحاضرون وضجوا بالضحك... وأنا أحب جمهورنا في هذه اللحظات، وأخذ الجمهور يصيح وهو يضحك: «حسنًا فعلت. حسنًا فعلت. ليس هنا مكان الفتيات الصغيرات..». أما أنا فلم أهتم بما وجده الجمهور من تسلية في هذا، سواء كان منطقيًا أو غير منطقي، بل رسمت خطتي وذهبت وجلست إلى جانب الأم، وابتدأت القول بأني أيضًا غريب عن هذه المدينة، وأن جمهور هذا المكان غير مهذب لا يفرق بين الناس ولا يحترم الجدير بالاحترام.. وأفهمتها أن لدي مالًا كثيرًا، واقترحت أن أعود بهما في عربتي، وأوصلتهما إلى مسكنهما وتعرفت إليهما، وقد علمت أنهما وصلتا قريبًا من الريف واتخذتا مسكنًا حقيرًا... وقالت لي الأم إنها وابنتها تعتبران معرفتي شرفًا لهما، واستخلصت من حديثهما أنهما لا تملكان شيئًا، وأنهما جاءتا إلى المدينة لبعض الأعمال القضائية، فعرضت عليهما مالي وخدماتي، وقد اتضح لي أنهما ذهبتا إلى هذا المرقص على ظن أنه مكان لتعليم الرقص حقًا.. وعرضت الاشتراك في تثقيف الفتاة بتعليمها اللغة الفرنسية والرقص، وقد قبلتا ما عرضته في حماسة، ومنذ ذلك الوقت أراهما في انتظام... فتعال لنذهب إليهما إذا شئت.. ولكن ليس الآن!».

قال رسكولنكوف: «كفى ودعني في سلام بعيدًا عن هذه القصص

القذرة الحقيرة أيها الرجل الشرير السيئ السيرة المجرد من الفضائل!».

- إنك تذكرني بشيللر.. الشاعر شيللر وأبطاله! حين يقول: «هل ستتخذ الفضيلة ركنًا تجمد فيه كتمثال؟».. إني لأروي لك هذه القصص لمجرد التمتع بسماع صيحاتك!

فتمتم رسكولنكوف في غضب: «حقًا! إنني لأرى أني مضحك حقًا!».

وضحك سفدريجايلوف ضحكًا عاليًا، وأخيرًا نادى فيليب ونقده حسابه ثم هم بالقيام وقال: «لقد سكرت ونال مني الشراب! لقد أمضينا وقتًا سعيدًا!».

وصاح رسكولنكوف وقد وقف بدوره: «وكيف لا يبدو سعيدًا لفاجر قديم يروي قصص مغامرات جديدة ينتظر من ورائها لذة من النوع الذي عرفه قديمًا ويرويها لرجل في مثل ظروفي؟.. إن هذا ما يهيج رغبته!».

ونظر إليه سفدريجايلوف نظرة فاحصة في شيء من الدهشة وقال: «إذا أردت الخوض في هذا.. إذا أردت الخوض فيه فإنك رجل تزدري الحياة مثلي، ولديك من الأسباب الكثير مما يؤدي إلى هذه النزعة! وإنك لتفهم الكثير وتستطيع أن تفعل الكثير أيضًا.. ولكن كفى! إني آسف لآني لا أستطيع أن أطيل الحديث معك. على أني لن أبتعد عنك طويلًا فانتظر قليلًا! وستراني!».

وخرج سفدريجايلوف من المطعم يتبعه رسكولنكوف، ولم يكن متأثرًا بالشراب فقد تأثر به لحظة ثم أخذ تأثيره في الزوال، وكأن به همومًا خطيرة فقد تقطب وجهه وبدا عليه القلق انتظارًا لأمر من الأمور، وزادت

خشونته وسخريته. ولاحظ رسكولنكوف هذا فاستولى عليه القلق أيضًا وثارت شكوكه نحو سفدريجايلوف فعقد العزم على اقتفاء أثره.

ووقف الاثنان على الرصيف، فقال سفدريجايلوف: «لتذهب إلى اليمين، وسأذهب إلى اليسار... أو نتبادل الاتجاهين إذا أردت... وداعًا ولنا عودة. وأرجو الله أن تعود للقاء!».

ثم درج إلى اليمين في اتجاه سوق التبن.

* * *

(٥)

اقتفى رسكولنكوف خطواته.. وصاح سفدريجايلوف وقد التفت وراءه: «ما هذا؟ أظن أني قلت لك...».

قال رسكولنكوف: «لن أتركك من نظري الآن!».

سأل الآخر: «ماذا؟».

ووقف الرجلان وجهًا لوجه، كأنما يقيس كل منهما قوة الآخر بنظراته..

وقال رسكولنكوف في خشونة: «إن جميع القصص التي رويتها لي في سكرك أثبتت لي ثبوتًا قاطعًا أنك لم تعدل عن أغراضك فيما يتعلق بأختي، وأنك تفكر فيها أكثر من أي وقت. وقد علمت أنه وصلتها رسالة في هذا الصباح ورأيتك لا تكاد تهدأ في جلستك... ومن الممكن أن تكون وقعت

على زوجة في الطريق، ولكن هذا لا يعني شيئًا وإني لأرغب في التحقق شخصيًا!».

ولم يكن رسكولنكوف يعلم تمامًا ماذا يريد وما يرغب التحقق منه..

قال سفدريجايلوف: «أؤكد لك أني سأنادي الشرطة!».

قال الآخر: «فلتفعل!».

وظل الرجلان لحظة وجهًا لوجه، وأخيرًا تغير وجه سفدريجايلوف إذ رأى أن التهديد لم يخف رسكولنكوف، فاتخذ فجأة مظهر المرح والصداقة وقال: «أي إنسان أنت! لقد امتنعت عمدًا عن التكلم معك في قضيتك، بالرغم من أن الفضول يكاد يلتهمني، فهي قضية عجيبة! وقد رأيت أن أرجئ ذلك إلى ما بعد، ولكنك تستطيع أن تدفع الأموات إلى التحرك... ليكن! هيا بنا، ولكني أخطرك أني سأمر لحظة على مسكني لأتزود ببعض النقود، ثم أغلق شقتي وأركب عربة وأمضي الليل في الجزيرة، فهل لا تزال تريد اقتفاء أثري؟».

- إني أرافقك لا لأذهب إلى دارك، بل لأذهب إلى مسكن صوفيا سميونوڤنا وأعتذر إليها من عدم الاشتراك في الجنازة!

- كما تريد، ولكن صوفيا سميونوڤنا ليست في دارها، فقد ذهبت لتضع الأطفال الثلاثة لدى سيدة عجوز ذات مقام كبير جدًا كنت أعرفها من سنوات مضت، وهي ترعى عدة ملاجئ لليتامى. وقد أثرت في هذه السيدة إذ سلمتها نقودًا من أجل أطفال كاترينا إيفانوڤنا الثلاثة كما تبرعت لبقية ملاجئها. وقصصت عليها أيضًا قصة صوفيا سميونوڤنا تفصيلًا دون

أن أخفي شيئًا، فكان لقصتي تأثير عليها يجل عن الوصف، وهذا هو السبب في أن صوفيا سميونوڤنا دعيت للذهاب اليوم إلى فندق ن... الذي نزلت فيه السيدة مؤقتًا بعد عودتها من الريف.

قال رسكولنكوف: «ومع ذلك سأمر عليها!».

فقال سفدريجايلوف: «كما تريد، فليس هذا من شأني ولكني لا أرافقك! لقد كدنا نصل إلى الدار! وبهذه المناسبة أقول إنك ترتاب في أمري لأني كنت رقيقًا معك فلم أضايقك بالأسئلة... هل تفهم؟ إنك وجدت هذا المسلك غير مألوف. أراهن على ذلك. وإنه لدرس لم يكن رقيقًا!».

فقال رسكولنكوف: «والتنصت على الأبواب؟».

قال سفدريجايلوف ضاحكًا: «آه! آه! إنك تفكر في هذا؟ كان يجب أن أندهش إذ لم تشر إلى هذا الأمر بعد كل ما حدث! ها! ها! إني فهمت شيئًا من الألاعيب التي أتيتها وكنت تحادث صوفيا سميونوڤنا عنها، ولكن ما معنى هذا؟ ربما كنت رجلًا متأخرًا لا أستطيع فهم هذه الأمور، ففسر لي هذا بحق الله يا ولدي العزيز. اشرح لي أحدث المبادئ!».

- ليس من الممكن أن تسمع شيئًا. بل إنك تزعم ذلك.

- ولكني لا أتكلم عن ذاك الأمر بالرغم من أني سمعت بعض الشيء، وإنما أتكلم عن طريقتك في الاستمرار على التنهد والتألم. إن تأثير ذلك شديد عليك ويجعلك دائم الثورة، ومع ذلك تطلب مني ألا أتنصت على الأبواب! وإذا كان هذا شعورك فلتذهب إلى الشرطة ولتخبرهم أنك كنت

سيئ الحظ إذ أخطأت في نظريتك خطأ صغيرًا. وإذا كنت تعتقد بأنه لا يجوز التنصت على الأبواب، ومع ذلك يجوز قتل العجائز في أي وقت، فمن الخير أن تسرع بالرحيل إلى أمريكا. فلتفر أيها الشاب. فقد تكون أمامك فسحة من الوقت، وإني أحادثك في ذلك مخلصًا، وإذا أعوزك المال فإني أدفع لك أجر السفر.

قاطعه رسكولنكوف متأففًا: «إني لا أفكر في هذا مطلقًا..».

– إني فاهم على كل حال.. على كل حال لا تكشف عن نفسك ولا تتكلم إذا كنت تفضل الصمت.. إني فاهم المسائل التي تشغل خاطرك! إنها مسائل أخلاقية وواجباتك كرجل ومواطن.. أليس كذلك؟ فلتضع هذه المسائل جانبًا، فما قيمتها الآن لديك؟ ها! ها! ستقول إنك لا تزال رجلًا ومواطنًا.. كان عليك ألا تقحم نفسك في هذا الموقف المعقد، فما الفائدة من إقحام نفسك في عمل لا تحسنه؟ من الخير إذن أن تطلق النار على رأسك، أم لعلك لا ترغب في ذلك؟

– أظن أنك تحاول إثارتي كي أتركك وشأنك!

– إنك شخص غريب الأطوار، ولكننا قد وصلنا! وأمامك السلم! هنا مدخل غرفة صوفيا سميونوفنا.. انظر، فإنك لا تجد بها أحدًا! إنك لا تصدقني! فلتسأل كابرنوموف فهي تترك المفتاح لديه! هذه هي مدام دي كابرناوموف؟ أرجوك! هذا أنا! إن سمعها ثقيل شيئًا! هل خرجت؟ إلى أين؟ هل سمعتها! إن صوفيا سميونوفنا ليست هنا، وستعود في ساعة متأخرة في المساء... والآن هيا بنا إلى غرفتي! لقد كنت تريد أن تزورني بها، أليس كذلك؟ هذه هي! إن مدام رزليش ليست بالدار، فإن هذه المرأة

دائمة الأعمال، وأؤكد لك أنها من أحسن النساء... وكنت تستفيد بها كثيرًا لو أنك كنت عاقلًا! والآن انظر! إنني أتناول من مكتبي سندًا من السندات التي تعطي خمسة في المائة من ثمنها كفائدة.. انظر إلى العدد الكبير الذي لا أزال أقتنيه من هذه السندات! سأحول هذا السند إلى نقود اليوم! يجب أن أسرع الآن! هذا هو المكتب قد أحكم بالقفل! وهذا هو باب الشقة قد أحكم قفله أيضًا! ونحن الآن في السلم! هل تركب عربة؟ فإني ذاهب إلى الجزيرة! فلتركب معي! سأركب هذه العربة! إنك ترفض؟ تقول إنك مللت هذا؟ تعال معي للنزهة! أتعتقد أن السماء ستمطر؟ فليكن.. سنرفع غطاء العربة!..

كان سفدريجايلوف قد ركب العربة، وقرر رسكولنكوف أن شكوكه ليس لها أساس على الأقل في تلك اللحظة، فدار على عقبيه من غير أن يفوه بكلمة، وسار عائدًا في اتجاه سوق التبن، ولو تملكه الفضول وأدار رأسه مرة واحدة، لرأى سفدريجايلوف وقد نزل من العربة قبل أن تقطع به مائة خطوة، وصرف السائق وسار على الرصيف، ولكنه كان قد استدار في ركن الشارع ولم ير شيئًا، وقد شعر باشمئزاز كبير من سفدريجايلوف دفعه إلى الفرار منه!

وكان يقول لنفسه: «عجيب أن انتظر مساعدة من مثل هذا الوحش الخشن! هذا الفاسد الحقير الذي لا يعرف غير شهوته!».

وكان رسكولنكوف مستخفًا متسرعًا في حكمه، فإن في شخصية سفدريجايلوف ما يجعله متميزًا وغامضًا. أما فيما يتعلق بأخته فإن رسكولنكوف كان ثابت العقيدة بأنه لن يتركها وشأنها، ولكن إعمال

الفكرة في هذا الأمر صار مما لا يحتمله!

وما انفرد بنفسه حتى عاد بعد عشرين خطوة إلى التفكير العميق كعادته، فإذا وصل إلى الجسر استند إلى حاجزه وحدق بعينيه في القناة وكانت أخته أفدوتيا رومانوڤنا واقفة إلى جانبه.

وقد تقابلا عند أول الجسر، ولكنه لم يرها ولم يسبق لدنيا أن رأته على تلك الحال في الشارع، فاستولى عليها القلق الشديد فظلت ساكنة لا تعلم هل تناديه أو لا تناديه، ثم شاهدت فجأة سفدريجايلوف وهو قادم في خطوات سريعة من جهة سوق التبن.

ولكن يظهر أنه كان يتقدم في حذر، ولم يأخذ في اجتياز الجسر، وظل واقفًا على الرصيف وهو يحاول جاهدًا أن يتخلص من رؤية رسكولنكوف له. وكان قد رأى دنيا منذ لحظة طويلة، وأخذ يشير إليها، وفهمت من إشارته أنه يرجوها ألا تحادث أخاها بل تذهب إليه، وهذا ما فعلته فقد تركت رسكولنكوف مع أفكاره واتجهت نحو سفدريجايلوف..

فهمس سفدريجايلوف قائلًا: «هيا بنا معًا، فإني لا أريد أن يعلم روديون رومانوڤتش باجتماعنا.. ولتعلمي أني كنت جالسًا معه في مطعم قريب وجدني فيه وتخلصت منه بصعوبة كبيرة، وقد بلغه أني كتبت إليك وهو يشك في الأمر، وإني لآمل ألا تكوني أنت التي أخبرته.. ومع ذلك إذا لم تكوني أنت فمن أين يعلم؟».

فقاطعته دنيا قائلة: «لقد وصلنا إلى شارع آخر ولا يمكن لأخي أن يرانا، وأخطرك أني لن أذهب إلى أبعد من هنا معك، فقل لي كل شيء هنا،

وكل شيء يمكن أن يقال في الشارع!».

فقال: «أولًا من المستحيل أن يقال ما أريد قوله في الشارع، وثانيًا يجب أن تستمعي إلى أقوال صوفيا سميونوڤنا، وثالثًا لديَّ وثائق يجب أن تريها... وأخيرًا إذا كنت لا توافقين على الذهاب إلى مسكني فإني أرفض الكلام وأذهب في الحال، وفضلًا عن ذلك فإني أرجوك ألَّا تنسي أن سرًا عجيبًا لأخيك المحبوب لديك أحتفظ به!».

وقفت دنيا مترددة وهي تنظر إلى سفدريجايلوف نظرة فاحصة..

فقال لها في هدوء ملاحظًا: «ممن تخافين؟ إن المدن غير بلاد الريف، بل إنك حتى في الريف سببت لي من الأذى أكثر مما نالك».

سألت: «وهل أخطرت صوفيا سميونوڤنا؟».

فقال: «لا، إني لم أقل لها كلمة واحدة. بل إني لست متأكدًا حتى من وجودها في مسكنها. على الأرجح أنها في الدار، فقد دفنت زوجة والدها هنا في اليوم نفسه، وليس هذا وقت الزيارات.. والواقع أني أفضل الآن السكوت، وأكاد أندم على أني تحدثت إليك... وفي مثل هذه الحالة تعتبر أقل هفوة مجانبة للحيطة معادلة لإفشاء السر، وإني أسكن هنا في هذا البناء الذي كدنا نصل إليه، وهذا هو البواب وهو يعرفني جيدًا جدًا. انظري.. إنه يحييني، وهو يرى أني آت مع سيدة.. ومن المؤكد أنه وجد الوقت ليلاحظ وجهك، وهذا قد يفيدك إذا كنت أحدثك تخشينني وترتابين في أمري.. وأرجوك المعذرة إذا كنت أحدثك بهذه الخشونة، وإني لا أسكن في شقة بمفردي بل في غرفة لدى أسرة، وتشغل صوفيا سميونوڤنا الغرفة

المجاورة، وهي تستأجرها أيضًا من أسرة، والطابق مليء بالسكان فكيف تخافين كالطفل؟ هل أنا مخيف إلى هذا الحد؟».

وظهرت على ثغر سفدريجايلوف ابتسامة تنازل. ولكن مزاجه لم يكن ليساعد على الابتسامة، فقد كان قلبه يخفق في شدة ويجد في التنفس عناء، وكان يتكلم في صوت مرتفع شيئًا ما لا يخفي تأثره المستمر. ولكن دنيا لم تلاحظ هذا النوع من التأثر، فقد تضايقت لملاحظته الأخيرة حتى صارت تخشاه وكأنها طفل، وقد صار فظيعًا في عينيها..

وقالت في هدوء ظاهر وإن كان وجهها ممتقعًا جدًا: «إني أعلم أنك رجل عديم الشرف... ولكني لا أخشاك مطلقًا... سر أمامي!».

ووقف سفدريجايلوف أمام بيت سونيا وقال: «اسمحي لي أن أتحقق من وجودها بغرفتها... إنها ليست هناك لسوء الحظ، ولكني أعلم أنها لا تلبث أن تعود. ولم تتغيب إلا لترى إحدى السيدات في شأن الأطفال الذين فقدوا أمهم، فقد تدخلت في هذا الأمر ورتبته. وإذا لم تعد صوفيا سميونوفنا في مدى عشر دقائق فإني سأرسلها إليك في هذا المساء ذاته إذا أردت، هذا هو بابي وهاتان هما غرفتان ووراء هذا الباب تسكن مدام رزليش. والآن انظري هنا، فإني أريد أن أريك أهم دليل لديَّ! فهذا الباب يؤدي من غرفة نومي إلى هاتين الغرفتين الخاليتين تمامًا، اللتين يراد إيجارهما ويجب أن تلاحظيهما في شيء من العناية!».

كان سفدريجايلوف يسكن غرفتين كبيرتين، ونظرت دنيا حولها والشكوك تساورها فلم تكتشف شيئًا خاصًا في الأثاث ولا في وضع الغرفتين. ولكن كان يمكنها أن تلاحظ أن مسكن سفدريجايلوف قائم بين

غرف على الجانبين تكاد تكون خالية من السكان، وأن الدخول إليه يكون من الممر مباشرة بل يجب اجتياز الغرفتين اللتين تكادان أن تكونا خاليتين في مسكن صاحبة المنزل، وأن الغرفتين اللتين فتح بابهما بالمفتاح وأراهما لها كانتا خاليتين أيضًا. ووقفت دنيا على مدخلهما وهي لا تفهم لماذا دعيت إلى رؤيتهما، ولكن سفدريجايلوف شرع في الحديث قائلًا: «انظري إلى تلك الغرفة الواسعة وهي الثانية، ولاحظي هذا الباب المغلق بالمفتاح وإلى جانبه يوجد كرسي وهو الوحيد في هاتين الغرفتين الخاليتين، وأنا الذي جئت به لكي أستمع وأنا في راحة.. وخلف هذا الباب توجد منضدة صوفيا سميونوفنا، وقد جلست إلى جانبها تتحدث إلى روديون رومانوفتش، وجلست أنا على هذا الكرسي أستمع ليلتين متتاليتين في كل ليلة منهما مدة ساعتين... ومن المؤكد أني علمت بعض الأمور! فماذا ترين؟

– هل سمعت حديثهما؟

– نعم. والآن هيا بنا إلى غرفتي إذ لا يمكننا الجلوس هنا!

وعاد بأفدوتيا رومانوفنا إلى الغرفة التي يستعملها للجلوس، وقدم لها مقعدًا وجلس إلى الجانب الآخر من المنضدة على بعد أكثر من سبعة أقدام عنها، ولكن من الراجح أن الضوء اللين الذي أخاف دنيا فيما مضى كان يلمع في عينيه، فارتعدت الفتاة وألقت نظرة على ما حولها، وكانت حركتها غير إرادية فهي لا تريد أن تظهر عدم الاطمئنان، ولكن العزلة التامة لمسكن سفدريجايلوف قد لفتت نظرها، وهي تود أن تسأل هل صاحبة الدار موجودة على الأقل في المنزل، ولكن كبرياءها حالت دون هذا السؤال، على أن قلبها كان محملًا بالآلام أكثر من الخوف.

قالت له: «هذه رسالتك؟ ووضعتها على المنضدة. فهل ما كتبت فيها صحيح؟ إنك تشير إلى جريمة تزعم أن أخي ارتكبها، وتشير إلى ذلك في وضوح ولا يمكن أن تنكر قولك! ويجب أن أخبرك أني سمعت بهذه القصة السخيفة قبل أن تكتب إليَّ، ولست أصدق منها حرفًا واحدًا. وهذه تهمة سخيفة وكريهة، وإني لأعرف القصة وكيف نشأت ولا يمكن أن يكون لديك أي دليل. لقد وعدت بأن تثبتها لي، فلتتكلم إذن.. ولكني أقول من مبدأ الأمر إني لا أصدقك إني لا أصدقك!».

نطقت بهذه العبارات في لهجة سريعة واصطبغ وجهها لحظة بلون الدم..

– لو أنك عازمة على ألا تصدقيني لما غامرت بالمجيء وحيدة إلى مسكني! فلماذا جئت إذن؟.. لمجرد الفضول؟

– لا تعذبني.. تكلم! تكلم!

– ليس لدي شك في أنك فتاة شجاعة، فقد انتظرت أن تطلبي إلى السيد رازوميهين أن يكون في صحبتك، ولكنه لم يكن معك أو على مقربة منك فقد لاحظت ذلك! وهذه جرأة كبيرة تثبت أنك تريدين إنقاذ روديون رومانوڤتش، إن كل ما فيك مقدس.. أما عن أخيك فماذا أقول؟ لقد رأيته الآن؟ فما رأيك فيه؟

قالت: «إنك لا تقيم اتهامك على هذا الأساس؟».

قال: «لا! إني أقيمه على حديثه هو نفسه. لقد جاء ليلتين متتاليتين لدى صوفيا سميونوڤنا! وأريتك أين كانا يتقابلان، وقد اعترف لها اعترافًا

كاملًا، وإنه لقاتل! قتل مرابية عجوزًا كان قد رهن عندها بعض الأشياء، ثم قتل أختها ليزاڤتا التاجرة المتجولة إذ دخلت مصادفة وهو يقتل العجوز واستعمل في ذلك بلطة أتى بها معه... وقتلهما ليسرق، واستولى على نقودهما وبعض الأشياء... لقد اعترف بكل ذلك لصوفيا سميونوڤنا... وهي الوحيدة التي تعرف سره ولكنها لم تشترك مطلقًا في الجريمة، لا بالقول ولا بالفعل، بل أخذها الرعب كما حدث لك الآن. ولكن لتهدئي بالًا فلن تفشي سره!».

كانت دنيا تختنق، وتمتمت شفتاها وقد هرب منهما الدم: «هذا غير ممكن! هذا غير ممكن! ليس هنالك أي سبب لذلك.. إنها لأكذوبة! إنها لأكذوبة!».

قال: «السبب هو السرقة، فلقد استولى على النقود والحلي. وفي الحق أنه اعترف بأنه لن يستفيد أية فائدة منها، ووضعها تحت حجر ولا تزال هنالك. ولكنه فعل ذلك لأنه لا يجرؤ على استعمالها».

صاحت دنيا وقد قفزت من المقعد: «هل من الممكن أن يسرق أو يقتل؟ وهل من الممكن أن تخطر بباله فقط هذه الفكرة؟ لقد عرفته ورأيته، فهل من الممكن أن يكون مجرمًا؟».

وكانت كأنها تتوسل إلى سفدريجايلوف وقد نسيت مخاوفها تمامًا!

فقال: «هنالك يا أفدوتيا رومانوڤنا آلاف وملايين من التعقيدات والظروف، فالسارق يسرق وهو لا يعلم أنه مجرم، ولكني سمعت عن سيد محترم استولى على رسائل البريد، ومن يعلم فلربما ظن أنه يأتي

عملًا شريفًا.. ومن الطبيعي أني كنت لا أصدق هذا الخبر إذا رواه لي أحد الناس، ولكني أصدق أذني، ولقد أوضح لصوفيا سميونوفنا كل الأسباب، ولم تصدق أذنيها في مبدأ الأمر ولكنها اضطرت لتصديق عينيها أخيرًا».

سألت: «وما هي... الأسباب؟».

قال: «إنها قصة طويلة يا أفدوتيا رومانوفنا.. لا أعرف كيف ابتدئها.. إنها نوع من النظريات، وأظنها النظرية التي أعتقد فيها مثلًا، وهي أني أبرر إتيان عمل سيئ واحد إذا كان الغرض شريفًا، أي إن العمل السيئ الوحيد يؤدي إلى مئات من أعمال الخير! ومن الطبيعي أنه مما يضايق شابًا موهوبًا معتزًا بنفسه لدرجة كبيرة أنه لو كان لديه ثلاثة آلاف روبل فقط لتغير مجرى حياته ومستقبله ولا يكون مالكًا لهذه الثلاثة آلاف روبل! ونضيف إلى هذا، الضيق العصبي الذي ينشأ عن الجوع والسكن في غرفة ضيقة وارتداء الخرق البالية، والشعور القوي بسحر مركزه الاجتماعي ومركز أمه وأخته أيضًا. وفوق كل هذا الخيلاء- الكبرياء والخيلاء، وإن كنت لا أنكر أنه قد تكون له صفات طيبة.. أرجو ألا تظني أني ألومه، ومن جهة أخرى ليس هذا من شأني!.. ولكن لتعلمي فقط أن لأخيك نظرية صغيرة خاصة، وهي كغيرها من النظريات مؤداها تقسيم البشر إلى طبقتين: أناس عاديين وأناس ممتازين، أي أناس لا يجب أن ينطبق عليهم القانون لتميزهم، وهم الذين يضعون القوانين لبقية الناس. وهي نظرية لا بأس بها كغيرها من النظريات.. وكان أخوك متأثرًا بشخصية نابليون كل التأثير، وكان متأثرًا بما رآه من الكثير من نوابغ الرجال، الذين لم يترددوا في ارتكاب السيئات وعمدوا إلى خرق القانون من غير أن يقيموا وزنًا لذلك، ويظهر أنه اعتبر

نفسه أيضًا من ذوي النبوغ- كانت هذه عقيدته على الأقل بعض الوقت، ولقد تألم كثيرًا ولا يزال يتألم لأنه عرف كيف يبتدع نظرية ولكنه لم يستطع إهمال القانون في شجاعة، فهو يرى الآن أنه ليس من ذوي النبوغ، وفي هذا مذلة لشاب معتز بنفسه لا سيما في هذا العصر».

قاطعته قائلة: «وتأنيب الضمير؟.. إذن أنت تنكر عليه أقل وازع أخلاقي؟.. فهل هو كذلك حقًا؟».

أجاب: «إن كل الأمور مشوشة الآن يا أفدوتيا رومانوفنا، ولست أقول إنها كانت أكثر نظامًا من قبل، فالروس واسعو الأفق عادة يا أفدوتيا رومانوفنا كاتساع أرض بلادهم، وهم يميلون ميلًا شديدًا إلى الخيال وعدم النظام، ومن سوء الطالع أن يكون المرء واسع الأفق من غير نبوغ خاص! هل تتذكرين كيف تحدثنا في هذا كثيرًا ونحن جلوس في المساء أمام مدخل الدار بعد العشاء؟ وكنت ممعنة في لومي على طبيعتي الواسعة! ومن يعلم؟ ربما كان في تلك اللحظة التي نتحدث فيها راقدًا وهو يفكر في مشروعه. إن الطبقة المثقفة عندنا تخطئ لأنه ليس وراءها تقاليد مقدسة يا أفدوتيا رومانوفنا، وخير ما يفعله البعض أن يتخذ تقاليده من الكتب أو من النوازع القديمة.. ولكن أغلب هؤلاء من العلماء أو المحافظين من الشيوخ، ومسلكهم لا يكاد يكون لائقًا برجال الهيئة الاجتماعية. وإنك لتعلمين آرائي بوجه عام، فلست أوجه اللوم لأحد، وإني لا أعمل شيئًا غير الاستمرار في مسلكي، وقد تكلمنا في هذا الأمر كثيرًا، وكنت سعيدًا حقًا حتى أنك عنيت بآرائي... إنك ممتقعة الوجه يا أفدوتيا رومانوفنا».

- إني أعرف نظريته، فقد قرأت له مقالًا في إحدى المجلات عن

أولئك الذين يسمح لهم بكل شيء.. ولقد جاءني به رازوميهين..

– السيد رازوميهين؟.. مقال لأخيك؟ في مجلة؟ لقد كنت أجهل هذا الأمر... لا بد أنه مقال شائق، ولكن أين أنت ذاهبة يا أفدوتيا رومانوڤنا؟

قالت دنيا في صوت ضعيف: «أريد أن أرى صوفيا سميونوڤنا! كيف الوصول إلى غرفتها، فقد تكون عادت إليها؟ أريد أن أراها في الحال فربما تكون...». ولم تتم عبارتها فقد انحبس صوتها فعلًا..

– لن تعود صوفيا سميونوڤنا قبل الليل! على الأقل هذا اعتقادي! كان منتظرًا أن تعود في الحال، ولكن ما دامت لم تعد فلا بد أنها ستعود متأخرة!

فصاحت دنيا ولم تعد تسيطر على عقلها: «إذن أنت تكذب... أرى أنك تكذب... لم تقل غير الكذب... إني لا أصدقك! لا أصدقك!».

وكاد يغمى عليها، وسقطت على كرسي سارع سفدريجايلوف في تقديمه إليها..

– ماذا بك يا أفدوتيا رومانوڤنا؟ تمالكي نفسك! هذا ماء.. اشربي منه جرعة..

ورش عليها شيئًا من الماء، فارتعدت دنيا وعادت إلى نفسها، وكان سفدريجايلوف يتمتم لنفسه وقد اهتزت أهدابه: «إنها لضربة مؤلمة لها..». ثم قال: «هدئي من روعك يا أفدوتيا رومانوڤنا! فلتعلمي أن له أصدقاء! إننا سنخلصه من هذا وننقذه! هل تريدين أن أسافر به إلى الخارج؟ إن لدي مالًا! وسآتي له بتذكرة للسفر في ثلاثة أيام.. أما فيما يتعلق بالقتل فإنه يستطيع أن يعمل من الخيرات ما يكفر به عنه... فلتهدئي، فربما يصير

رجلًا عظيمًا... كيف حالك الآن؟ بماذا تشعرين؟».

فصاحت فيه: «أيها الرجل الغليظ القلب! إنك تجرؤ على الاستخفاف بهذا العمل؟ اتركني!».

سأل: «أين تذهبين؟».

قالت: سأذهب إليه! أين هو؟ هل تعلم؟ لماذا أغلق هذا الباب بالمفتاح؟ لقد دخلنا من هذا الباب وهو الآن مقفل! متى وجدت الوقت لإقفاله؟».

قال: « لم يكن من الضروري أن يسمع كل الناس ما قلناه هنا، وإني لا أستخف بآلامك مطلقًا، بل أنا أمقت الطريقة التي تحدثت بها، ولكن كيف تخرجين وأنت في هذه الحالة؟ هل تريدين أن تمني عليه؟ إنك ستدفعينه إلى الغضب فيسلم نفسه! فلتعلمي أنه مراقب وأنهم في أثره! فلن تعملي غير تسليمه! انتظري قليلًا، لقد رأيته وتحدثت إليه في هذه الساعة، ولا يزال هنالك أمل في إنقاذه! اجلسي قليلًا ولنفكر معًا، إني جئت بك إلى هذا المكان لكي نفكر على انفراد وندرس الموضوع جيدًا! اجلسي!».

– كيف تستطيع إنقاذه؟ هل يمكن إنقاذه حقًا؟

جلست دنيا وجلس سفدريجايلوف إلى جانبها، وبدأ يقول فيما يشبه الهمس وقد برقت عيناه، وكان ينطق الكلمات بصعوبة من شدة التأثر: «هذا يتوقف عليك! عليك وحدك!».

وتملك دنيا الخوف فتراجعت، وكانت أعضاء جسمها جميعًا ترتعد. فتابع حديثه قائلًا: «عليك أنت.. كلمة واحدة منك تنقذه.. سأنقذه أنا..

فلدي المال والأصدقاء! سأرسله في الحال إلى الخارج، وأستخرج جواز سفر، بل جوازين، أحدهما له والآخر لي! إن لي أصدقاء! أصدقاء أقوياء! هل تريدين؟ سآتي لك أيضًا بجواز سفر.. ولأمك.. ماذا تريدين من رازوميهين؟ إني أحبك حبًا عميقًا! دعيني أقبل طرف ثوبك! دعيني! دعيني! فأنا لا أكاد أحتمل حفيفه! قولي لي اعمل هذا فأعمله سأعمل كل شيء! سأعمل المستحيل! آراؤك هي آرائي.. سأعمل كل شيء! كل شيء! لا تنظري إليّ هكذا! هل تعرفين أنك تدفعينني إلى الموت؟».

وأخذ يهذي.. وكأن أمرًا قد حدث له فأفقده صوابه، وهبت دنيا واقفة وجرت نحو الباب، وصاحت وهي تطلب النجدة وتقرع الباب في عنف: «افتحوا! افتحوا! فلتفتحوا! ألا يوجد أحد؟».

وقام سفدريجايلوف، وعاد إلى نفسه وارتسمت على شفتيه المرتعشتين في بطء ابتسامة ساحرة غاضبة.. وقال في هدوء وهو يؤكد كلماته: «ليس في الدار أحد. لقد خرجت صاحبة الدار، ولا حاجة للصياح هكذا فإنك تنهكين أعصابك عبثًا!».

- أين المفتاح؟ افتح الباب في الحال! أيها الوغد!

- لقد فقدت المفتاح ولا أستطيع أن أجده!

فصاحت دنيا وقد امتقع لونها كالأموات: «إن هذا اعتداء».

وقفزت إلى ركن من الغرفة حيث احتمت وراء منضدة صغيرة، ولم تعد تصيح، بل كانت تراقب جلادها بعينيها وتلاحظ كل حركة من حركاته. ولم يتحرك سفدريجايلوف بل ظل واقفًا في مواجهتها في الجانب الآخر

من الغرفة، وقد تملك زمام نفسه على الأقل في الظاهر، ولكن وجهه كان ممتقعًا دائمًا ولم تفارق شفتيه ابتسامته الساخرة.

– لقد ذكرت كلمة الاعتداء يا أفدوتيا رومانوڤنا، وفي هذه الحالة يجب أن تتأكدي من أني اتخذت عدتي.. فصوفيا سميونوڤنا ليست في غرفتها، ويفصل بيننا وبين أسرة كابرناوموف خمس غرف مقفلة، وإني أقوى منك على الأقل مرتين في حالتك الراهنة، ولا أخشى شيئًا. إذ لا تستطيعين الشكوى من بعد.. ومن المؤكد أنك لا ترغبين في تسليم أخيك، وفضلًا عن ذلك لا يصدقك أحد، إذ كيف تأتي فتاة لزيارة رجل أعزب في مسكنه؟ فإذا كنت تضحين بأخيك فليس لديك إثبات، فالاعتداء من الصعب إثباته يا أفدوتيا رومانوڤنا.

فهمست دنيا في غضب: «أيها الوغد!».

فأتم كلامه قائلًا:

– لأكن كذلك! ولكن لاحظي أني أتحدث على سبيل الفرض العام فقط، فاعتقادي الشخصي أنك على حق وأن الاعتداء أمر كريه. ولقد تحدثت لأريك أنه لا حاجة بك لتأنيب الضمير إذا كنت راغبة في... إنقاذ أخيك بمحض إرادتك كما أقترح عليك، فإنك في هذه الحالة تكونين خاضعة للظروف بل للإكراه في الواقع، إذا أردنا استعمال هذه الكلمة. فكري في هذا، فإن مستقبل أخيك وأمك في يديك.. وسأكون عبدك طول حياتي.. وسأنتظر هنا..

وجلس على المقعد الكبير على بعد ثماني خطوات من دنيا، ولم

تعد تشك مطلقًا في أن قراره كان قاطعًا لا يتزعزع، وهي تعرفه فضلًا عن ذلك، فإذا بها فجأة تخرج من جيبها مسدسًا وتضع يدها على المنضدة وهي تصوبه إليه، فقفز سفدريجايلوف من مكانه وصاح مندهشًا وهو يبتسم في خبث: «هكذا! إن هذا يغير مجرى الأمور تمامًا! لقد سهلت لي الأمور يا أفدوتيا رومانوڤنا.. ولكن من أين جئت بالمسدس؟ من السيد رازوميهين؟ إنه مسدسي.. إنه مسدسي القديم. لقد بحثت عنه كثيرًا.. ولقد أثمرت الدروس التي ألقيتها عليك بالريف في الصيد!».

قالت: «إنه ليس مسدسك، فهو ملك لمارڤا بتروڤنا التي قتلتها أيها الشرير.. فإنك لم تكن تملك شيئًا في دارها. وقد أخذته عندما بدأت أشتبه فيما أنت خليق بإتيانه. إذا تقدمت خطوة فسأطلق الرصاص عليك». وكانت في سورة غضب عظيمة.

وقال سفدريجايلوف وهو واقف دائمًا في مكانه: «وماذا يكون من أمر أخيك؟ إني أسأل لمجرد الفضول فقط..».

- لتبلغ عنه إذا أردت! لا تتحرك! إذا اقتربت أطلقت الرصاص. إني أعرف أنك وضعت السم لزوجتك! إنك أنت نفسك قاتل..

وأمسكت بالمسدس وهي على استعداد..

سأل: «هل أنت واثقة من أني وضعت السم لمارڤا بتروڤنا؟».

قالت: «نعم! أنت نفسك! لقد أشرت إلى ذلك في أقوالك! وتحدثت إليّ عن السم... وأعلم أنك ذهبت لتأتي به.. وكان حاضرًا لديك. هذا ما علمته... ومن المؤكد أنك ارتكبت هذا العمل أيها الوغد!».

قال: «لو كان الأمر حقيقة فإني أكون فعلت ذلك من أجلك... إنك تكونين السبب.».

قالت: «إنك تكذب! لقد كنت أكرهك دائمًا...دائمًا!».

– حقًا يا أفدوتيا رومانوفنا؟! لقد نسيت أنك أبديت رقة ونعومة في حماسة مواعظك! لقد قرأت ذلك في عينيك! هل تذكرين تلك الليلة في ضوء القمر.. وأنشودة البلبل؟

قالت وقد برقت عيناها غضبًا: «إنك كاذب تريد أن تشوه سمعتي!».

– أنا كاذب؟ ليكن إذا أردت.. إني كاذب!

وابتسم وقال: «إن النساء لا يحببن أن يذكرن بهذه الأمور! إني أعلم أنك سوف تطلقين النار أيتها المخلوقة الجميلة.. فلتفعلي!».

رفعت دنيا يدها بالمسدس وقد امتقع لونها كالأموات، وكانت شفتها السفلى صفراء مرتعشة، وعيناها الواسعتان السوداوان تقدحان شررًا، ونظرت إليه مصوبة مسدسها تنتظر أول حركة تبدر منه.. ولم يرها قط في مثل هذا الجمال، وكأن النار التي تنبعث من عينيها عندما رفعت المسدس قد أحرقته، وشعر بوخز أليم في قلبه.. وتقدم خطوة فانبعث صوت الطلقة، ومست الرصاصة شعره وغابت في الحائط خلفه، فتوقف وضحك في هدوء:

– لقد لسعني الزنبور! فهي تسدد للرأس.. ما هذا؟ دم؟

وأخرج منديله ليمسح النهر الدقيق من الدم الذي كان ينصب على خده الأيمن، فقد مست الرصاصة جلد الرأس خفيفًا.

وخفضت دنيا سلاحها، وأخذت تنظر إليه لا في خوف ولكن في نوع من الدهشة، وكأنها لم تفهم ما أقدمت عليه..

وقال سفدريجايلوف وهو دائم الابتسام، وإن خالطت ابتسامته مرارة: «لم تصب رصاصتك! أطلقي ثانية.. فإني أنتظر! لماذا بقيت في دهشتك؟ إنك تفسحين لي الوقت لأمسك بك قبل أن تصوبي مسدسك مرة ثانية!».

فقفزت دنيا وعبأت مسدسها ورفعته مرة ثانية، وتوسلت إليه في لهجة اليأس: «اتركني وإلا فأقسم بأني سأطلق الرصاص مرة ثانية... و... وسأقتلك!».

- نعم... فمن المستحيل ألا تصيبي على بعد ثلاث خطوات.. ولكن إذا لم أقتل... فعندئذ...

وبرقت عيناه، وتقدم خطوتين..

وضغطت دنيا على الزناد فلم تنطلق الرصاصة، فقال: «لم تحسني وضع الرصاصة! لا بأس في ذلك.. لا تزال لديك رصاصة أخرى فاستفيدي بها.. وإني في الانتظار!».

ووقف على بعد خطوتين منها، وهو ينظر إليها نظرة تدل على العزيمة بعينين والهتين مصممتين. وفهمت دنيا أنه يفضل الموت على أن يدعها تغادر المكان، وأنها بلا ريب ستقتله الآن حيث لم يعد يفصلهما غير خطوتين!

وفجأة ألقت المسدس بعيدًا عنها..

وقال سفدريجايلوف دهشًا وهو يتنفس في عمق: «لقد ألقت المسدس!» وكأن ثقلًا كبيرًا أزيح عن قلبه، ولم يكن مجرد الهلع من الموت فلم يكن للخوف مجال في هذه اللحظة، ولكن الخلاص من عاطفة أخرى أكثر غموضًا وألمًا لم يستطع هو نفسه تحديدها.

واقترب من دنيا وأحاط خصرها بذراعيه في رفق، ولم تقاوم بل كانت تنظر إليه بعينين متوسلتين وهي تنتفض كورقة الشجر، وأرادت أن تتكلم ولكن شفتيها تحركتا دون أن يخرج منهما صوت.

وتوسلت دنيا قائلة: «اتركني..».

وارتعد سفدريجايلوف، فقد كان صوتها متغيرًا تمامًا عما كان عليه، وسأل في صوت خفيض: «إذن أنت لا تحبينني؟».

فهزت دنيا رأسها بما يؤيد النفي..

وهمس في يأس: «ولن تستطيعي هذا الحب... أبدًا؟».

وصاحت دنيا: «أبدًا!».

ومرت لحظة نضال صامت عنيف في قلب سفدريجايلوف، ورماها بنظرة لا يمكن وصفها، وفجأة جذب ذراعه وابتعد سريعًا ووقف عند النافذة..

ومرت لحظة أخرى ثم قال: «هذا هو المفتاح!».

وأخرجه من الجيب اليساري في معطفه ووضعه خلفه على المنضدة من غير أن يتجه برأسه نحو دنيا ثم قال: خذيه واخرجي سريعًا!».

وظل ينظر في عناء من النافذة..

واقتربت دنيا من النافذة لتأخذ المفتاح..

وكرر سفدريجايلوف: «أسرعي! أسرعي» من غير أن يتحرك أو يستدير كأن في تلك الكلمة: «أسرعي!» نغمة مخيفة..

وفهمت دنيا مقصده، وخطفت المفتاح واندفع نحو الباب، وفتحته في عجل وخرجت منه مسرعة، وبعد برهة كانت تجري على ضفة القناة كالمجنونة...

وظل سفدريجايلوف واقفًا في النافذة ثلاث دقائق أخرى، ثم استدار أخيرًا ونظر إلى ما حوله وقد مسح جبهته بيديه، وكانت تلوح على وجهه ابتسامة غريبة، هي ابتسامة يأس كئيبة حزينة ضعيفة، وقد خضب الدم الذي بدأ يجف صفحة كفه، فنظر إليه في غضب ثم بلل منشفة ومسح بها صدغه، ووقعت عيناه على المسدس الذي تركته دنيا فتناوله وأخذ يفحصه، وكان سلاحًا للجيب ذا ثلاث طلقات من طراز قديم، ولم تزل به رصاصتان وغطاء رصاصة ثالثة، ومن المستطاع استعماله مرة واحدة.. وفكر سفدريجايلوف لحظة، ثم وضع المسدس في جيبه، وتناول قبعته وخرج..

* * *

(٦)

ظل حتى الساعة العاشرة مساء يمضي وقته متنقلًا من حانة إلى أخرى، وفي إحدى هذه الحانات قابل كاتيا مرة، وغنت له لحنًا جديدًا من ألحان العامة تذكر فيها وغدًا وطاغية شرع يقبل كاتيا..

وقدم سفدريجايلوف شرابًا للفتاة ولعازف الأرغن وللمغنيين وللصبية ولاثنين من الكتاب لفت نظره بوجه خاص أنفاهما المعوجان، وكان أنف أحدهما يميل لليمين وأنف الآخر إلى اليسار، وسارا به أخيرًا إلى حديقة ملهى ودفع لهما رسم الدخول. وكانت هذه الحديقة تحتوي على شجرة بلوط سنها ثلاث سنوات، وثلاثة أدغال. ولم تكن في الحقيقة غير مكان حقير للشراب وفيه يقدم الشاي أيضًا، وفيه أيضًا بضع موائد ومقاعد خضراء. وفي المكان فرقة من المغنين لا تحسن الغناء، ومهرج ألماني من ميونيخ ذو أنف أحمر كما تبدو عليه الكآبة، وقد جيء بهم لتسلية الجمهور!

ودخل الكاتبان في نقاش مع زملاء من نوعهما، وكادوا يتماسكون بالأيدي.. وانتخب سفدريجايلوف حكمًا بينهم في موضوع النقاش، فظل نحو ربع ساعة يصغي إلى جدلهم، ولكنهم كانوا يتصايحون حتى صار من المستحيل عليه أن يفهم منهم شيئًا.. وكل ما تأكد لديه أن أحدهم سرق شيئًا، وتمكن من بيعه في الحال ليهودي، غير أنه أبى أن يقتسم الربح مع زميله، وأخيرًا تبين له أن الشيء المسروق هو ملعقة شاي من ملاعق الملهى، وقد اكتشف المحل السرقة، وكادت المسألة تتخذ شكلًا مقلقًا، فدفع سفدريجايلوف ثمن الملعقة وغادر الحديقة، وكانت الساعة قد قاربت العاشرة. ولم يذق كأسًا واحدة من النبيذ، واقتصر على طلب الشاي من أجل المظهر فقط..

وكانت الليلة خانقة مظلمة، وفي نحو الساعة العاشرة غطت وجه السماء سحب منذرة بعاصفة، ثم أرعدت السماء ونزل المطر، ولم يكن قطرات بل سيلًا منصبًا.. وكان البرق يضيء السماء كل دقيقة، ويمكن أن تعد خمس مرات قبل أن يخمد ضوءه. ووصل سفدريجايلوف إلى مسكنه وقد ابتل بالماء حتى كاد الماء يصل إلى عظامه، وأخرج من مكتبه جميع ما فيه من نقود، ثم مزق ورقتين أو ثلاث ورقات ثم وضع النقود في جيبه، وفكر في أن يغير من ثيابه، ولكنه نظر من النافذة وأصغى إلى العاصفة فعدل عن ذلك، وتناول قبعته وخرج دون أن يقفل مسكنه بالمفتاح، وقصد توًا إلى سونيا، وكانت قد عادت إلى غرفتها.

لم تكن سونيا وحيدة، بل كان معها الأطفال الأربعة لأسرة كابرناوموف وكانت تعد لهم الشاي. وقد قابلت الفتاة زائرها في احترام وهي تنظر في

دهشة إلى ثيابه المبللة ولكنها لم تفه بكلمة، أما الأطفال فانطلقوا جميعًا وقد أخذهم خوف لا يوصف.

وجلس سفدريجايلوف إلى جانب المنضدة ورجا سونيا أن تتخذ مقعدًا إلى جانبه، وكانت في دهشتها تنتظر أن يبدأ الحديث.

قال سفدريجايلوف: «إني أريد السفر إلى أمريكا يا صوفيا سميونوڤنا. وحيث إننا نتقابل على الراجح للمرة الأخيرة فقد جئتك لنرتب بعض الأمور، فهل رأيت تلك السيدة اليوم؟ إني أعرف ما قالته لك ولا حاجة للتكرار (فأتت سونيا بحركة واحمر وجهها) إن لهؤلاء القوم طريقتهم في عملهم، أما عن الأختين والأخ فإن مستقبلهم مضمون، وقد وضعت المال الذي خصصته لذلك بإيصال في مكان أمين، فاحفظي هذه الإيصالات لوقت الحاجة! خذيها! خذيها! لقد انتهينا من هذه المسألة! وهذه ثلاثة سندات ذات فائدة خمسة في المائة وتبلغ قيمتها ثلاثة آلاف روبل، وهي لك شخصيًا ولكنني أشترط أن يبقى هذا الأمر سرًّا بيننا مهما علمت من أمور! إن هذه النقود ستكون ضرورية لك لأن الاستمرار في طريقة معيشتك القديمة أمر سيئ يا صوفيا سميونوڤنا ولم تعودي في حاجة إلى مثل هذه المعيشة».

فتمتمت سونيا فجأة: «لقد غمرتنا بأفضالك أنا والأطفال والفقيدة... وإذا كنت لم أشكرك حتى الآن فلا تظن...».

فقال: «دعي هذا! دعي هذا!».

فقالت: «أما هذا المال يا أركادي إيڤانوڤتش فإني أعترف بجميلك،

ولكني لست بحاجة إليه الآن.. إني أستطيع أن أكسب قوتي وأنا وحيدة. لا تظن هذا إنكار لجميلك! وحيث إنك كريم فيمكن استعمال هذا المال...».

فقاطعها قائلًا: «إنه لك يا صوفيا سميونوڤنا فلا تتكلمي عنه، فليس لدي من الوقت ما أضيعه... وستحتاجين إليه. إن روديون رومانوڤتش له الخيار بين أن يضع رصاصة في رأسه أو أن يذهب إلى سيبيريا (فألقت عليه نظرة رعب وأخذت ترتعد) لا تقلقي فهو الذي أخبرني بكل شيء، ولست ثرثارًا فلن أذكر شيئًا لأحد.. ولقد أحسنت صنعًا في أنك أشرت عليه بأن يذهب ويعترف بجرمه فذلك أفيد له.. وإذا كان عليه أن يذهب إلى سيبيريا فإنك ستتبعينه، أليس كذلك؟ ففي هذه الحالة ستكونين في حاجة إلى المال.. ستكونين في حاجة إلى المال لأجله، أتفهمين؟ وفضلًا عن ذلك فقد سمعتك تعدين أماليا إيفانوڤنا بأن تسددي ما لها من دين.. لماذا تأخذين على عاتقك مثل هذه التعهدات يا صوفينا سميونوڤنا؟ فلست أنت بل كاترينا إيفانوڤنا هي المدينة لها، وكان يجب ألا تعيري المرأة الألمانية اهتمامًا، لا يجب أن يتصرف المرء في الحياة على هذه الصورة.. وإن سألك سائل عني- وستُسألين غدًا أو بعد غد- فلا تذكري زيارتي، ولا تقولي لأحد إني أعطيتك مالًا.. والآن وداعًا (ووقف) أبلغي تحياتي لروديون رومانوڤتش.. وبهذه المناسبة تحسنين صنعًا لو أودعت المال لدى السيد رازوميهين في الوقت الحاضر. هل تعرفين السيد رازوميهين؟ بلا شك.. إنه رجل لا بأس به، فاحملي المال إليه غدًا... وعندما يحين الوقت.. ولكن خبئيه بعناية إلى ذلك الحين».

وهبت سونيا فجأة من مقعدها، ونظرت إليه في قلق، وشعرت برغبة

ملحة في أن تتكلم وتسأل سؤالًا، ولكنها لم تجرؤ ولم تعرف كيف تبتدئ فقالت: «كيف تخرج في مثل هذا المطر؟».

فقال: «أتكون لديَّ نية الذهاب إلى أمريكا وأخشى المطر؟ ها! ها! وداعًا يا عزيزتي صوفيا سميونوڤنا!... وأرجو أن تطول حياتك، ففي حياتك نفع لآخرين. بلغي السيد رازوميهين أني أحييه. قولي له إن أركادي إيڤانوڤتش سفدريجايلوف يحييك.. لا تنسي ذلك».

وخرج تاركًا سونيا في دهشة وقلق وتوجس غامض، وقد عرف فيما بعد أنه قام في تلك الليلة في الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة بزيارة أخرى عجيبة وغير منتظرة، وكان المطر لا يزال ينهمر.. فقد دخل إلى المسكن الصغير الذي يقطنه والد خطيبته في الشارع الثالث بجزيرة فاسيلي، وكان المطر قد بلل ثيابه، ووجد صعوبة في أن يحمل أصحاب المنزل على فتح الباب، وأحدثت رؤيته رجة كبيرة، ومع ذلك فإن مسلكه الجذاب لم يلبث أن بدد شكوك مضيفيه، وهي في الواقع شكوك معقولة فقد ظنا أنه سكر حتى صار لا يدري ماذا يفعل... وقد أتت الأم العاقلة بالأب العاجز بمقعده الذي يسير على العجل، ووضعته إلى جانب أركادي إيڤانوڤتش، وانطلقت على عادتها تتحدث في أمور عادية عابرة.. وكانت هذه السيدة لا تلقي سؤالًا مباشرًا مطلقًا، بل تبتدئ الحديث بالابتسام وفرك اليدين، فإذا أرادت أن تتثبت من شيء- كتاريخ الزواج مثلًا- فإنها تمس الموضوع من بعيد جدًا، كالسؤال عن باريس وحياة البلاط الإمبراطوري الفرنسي، كي تصل تدريجًا إلى الشارع الثالث من جزيرة فاسيلي.. وكانت هذه الطريقة فعالة في الأوقات الأخرى، ولكن أركادي إيڤانوڤتش كان في

تلك الليلة متعجلًا نافد الصبر، وأصر على أن يرى خطيبته في الحال بالرغم من أنه أخبر من مبدأ الأمر أنها أوت إلى فراشها، فجيء بالفتاة..

وأخبرها سفدريجايلوف في الحال أنه مضطر لأعمال عاجلة أن يغيب عن بطرسبرج بعض الوقت، ولذلك جاءها بخمسة عشر ألف روبل أوراقًا ومستندات مختلفة على سبيل الهدية؛ لأنه كان عازمًا منذ وقت بعيد على أن يقدم لها هذه الهدية التافهة قبل الزواج. ولم تكن هنالك علاقة منطقية واضحة بين الهدية والسفر القريب، وضرورة القدوم لإزعاج الأسرة في منتصف الليل وتحت المطر المنهمر، ولكن الأمور سارت على خير وجه، حتى أن إبداء التعجب والأسف الذي لا بد منه كان قليلًا ومحدودًا جدًا، وفي مقابل ذلك كانت مظاهر الشكر شديدة الحرارة تؤيدها دموع هذه الأم الحصيفة.

وقام أركادي إيڤانوڤتش وضحك وقبّل خطيبته وربت على خدها وأكد لها عودته القريبة، ثم عندما لاحظ في عينيها أكثر من فضول الطفولة، بل رأى فيهما استفهامًا صامتًا حزينًا، فكر لحظة ثم قبلها مرة ثانية.. على أنه شعر بغضب داخلي خالص، إذ خطر له أن الهدية ستوضع في الحال تحت القفل في حراسة الأم الحصيفة، وخرج بعد أن تركهم جميعًا في اضطراب كبير.. على أن الأم الرقيقة لم تلبث أن تحدثت في شبه همس، فهدأت من هواجسهم إذ استنتجت أن سفدريجايلوف رجل عظيم له أعمال كبيرة واتصالات وثروة واسعة، ولا يعلم غير الله ماذا يدبر في رأسه.. فهو يسافر بمجرد أن يشعر بالرغبة في السفر.. وهو يوزع نقوده حسب هواه، فليس هنالك ما يدعو للاستغراب.. نعم إنه لمن الغريب أن يأتي مبللًا بالماء،

ولكن الإنجليز مثلًا أكثر غرابة في أطوارهم، ثم إن جميع أعضاء الهيئة الاجتماعية العليا قلما يهتمون بما يقال عنهم، ولا يضايقون أنفسهم.. وربما أنه أقدم على ذلك عامدًا لكي يظهر أنه لا يخشى أحدًا، ويحسن عدم الخوض في هذا الموضوع بكلمة لأحد؛ لأن الله وحده هو الذي يعلم ما يمكن أن يحدث، ويجب وضع المال تحت القفل، وفي أسرع وقت. ومن محاسن الصدف أن فيدوسيا لم تترك المطبخ، ويجب بصفة خاصة كتم الأمر عن السيدة رزليش العجوز اللئيمة، إلى غير ذلك من نصائح! وظلت هي وزوجها في هذا الحديث إلى الساعة الثانية من الصباح، أما الخطيبة فإنها عادت إلى فراشها قبل ذلك بوقت طويل وهي تشعر بالاستغراب وشيء من الحزن..

أما سفدريجايلوف فإنه كان يمر فوق الجسر في منتصف الليل تمامًا في عودته إلى المدينة، وقد انقطع المطر، ولكن الهواء كان عاصفًا، وأخذ سفدريجايلوف يرتعش بردًا، وظل لحظة يتأمل مياه نهر النيفا الصغير السوداء في فضول خاص ونوع من الاستفهام، ولكنه لم يلبث أن شعر بالبرد الشديد على مقربة من الماء، فاستدار ومشي في جهة طريق س... وسار مدة طويلة نحو نصف ساعة، في ذلك الشارع الذي لا ينتهي وهو يتعثر أكثر من مرة على الرصيف الخشبي. وكان دائب البحث عن شيء في الجانب الأيمن من الشارع، فقد لاحظ من قبل وهو مار بتلك الجهة من نهاية الشارع فندقًا كبيرًا من الخشب اسمه- كما يتذكر جيدًا- قريب من كلمة «أدرنه». ولم يكن مخطئًا، ففي تلك الجهة المهجورة كان الفندق ظاهرًا بحيث لا يخطئه المرء حتى في الظلام، وكان بناءً طويلًا اسودَّ لون

خشبه، ولا تزال الأنوار ظاهرة من نوافذه والحركة تبدو فيه بالرغم من الوقت المتأخر، ودخل سفدريجايلوف إليه وطلب غرفة إلى خادم رث الثياب تقدم إليه. وفحصه الخادم في نظرة سريعة، وسار به للحال إلية غرفة صغيرة ضيقة مكتومة الهواء في آخر الطرقة تحت ركن السلم، ولم يكن خاليًا غيرها فجميع الغرف آهلة بالنازلين. وسأله الخادم بنظرته..

فقال سفدريجايلوف: «هل عندكم شاي؟».

- يمكن أن نأتي به.

- وماذا عندكم أيضًا؟

- لحم عجل وڤودكا وسلطات!

- هات شايًا ولحم عجل.

فسأل الخادم في شيء من الاستغراب: «ألا تريد شيئًا آخر؟».

فقال: «لا شيء! لا شيء!».

وفكر سفدريجايلوف: «لا بد أن يكون هذا الفندق مكانًا لطيفًا! كيف لم أعرفه من قبل؟ وأنا أيضًا لا بد أن عليّ مظهر الرجل الذي سهر في أحد مقاهي الغناء وحدثت له مغامرة في الطريق! إني لأجد رغبة في معرفة نوع الناس الذين ينزلون هنا!».

وأوقد الشمعة وأخذ يفحص الغرفة في عناية، وكانت الغرفة صغيرة بحيث لا يجد غير مكان للوقوف، وليس بها غير نافذة واحدة، ويشغل مساحتها كلها تقريبًا سرير قذر جدًا ومنضدة مدهونة وكرسي، وكانت الحوائط التي يظهر أنها من الخشب مغطاة بورق حقير مترب، فلم يعد

يظهر ما عليها من رسوم وإن تبين لونها الأصفر، وكان أحد الحوائط مقطوعًا بانحناء السقف، ولم يك ذلك لأنها من غرف السطح بل لأنها تحت السلم.

ووضع سفدريجايلوف الشمعة وجلس على السرير وغاص في أفكاره، ولكن لم يلبث أن استرعى انتباهه غمغمة غريبة مستمرة في الغرفة المجاورة ترتفع أحيانًا إلى أن تصير صراخًا.. ولم تنقطع هذه الغمغمة منذ دخوله الغرفة، وتنصت فإذا أحد الناس يلوم بل يؤنب شخصًا آخر- أحيانًا في بكاء- ولكنه لم يسمع غير صوت واحد..

قام سفدريجايلوف وغطى ضوء الشمعة بيده، فتبين في الحال ضوءًا ينفذ من شق في الحائط، فذهب إليه واسترق النظر فرأى في غرفة أكبر قليلًا من غرفته شخصين، الأول منهما خلع سترته وهو ذو شعر كثيف مجعد ووجه أحمر مضيء، وكان واقفًا وقفة الخطيب وقد أبعد ساقيه كي لا يفقد توازنه، وهو يقرع صدره بقبضته ويلوم الآخر على أنه شحاذ وليس له مكانة مطلقًا، ويقول إنه أنقذه من الجوع وأنه يستطيع طرده حين يشاء ولم يطلع على ذلك إلا علام الغيوب... أما الآخر الذي يوجه إليه اللوم فكان جالسًا على مقعد وعليه مظهر الرجل الذي يهم بالعطس فلا يجيئه، وهو من وقت لآخر ينظر إلى الخطيب بعينين زائغتين خاضعتين. ولكن من الواضح أنه لم تكن لديه أقل فكرة عما يقول، ولا هو يسمعه.. وكان على المنضدة شمعة تحترق، وأقداح نبيذ وزجاجة ڤودكا تكاد تكون فارغة وخبز وقثاء وأقداح شاي فارغة.. وراقب سفدريجايلوف هذا المنظر في انتباه، ثم ابتعد في عدم اكتراث وعاد للجلوس على سريره..

وجيء بالشاي ولحم العجل، ولم يستطع الخادم أن يسكت عن السؤال مرة أخرى هل يحتاج إلى شيء آخر، فلما أجيب بالنفي انسحب نهائيًا. وأسرع سفدريجايلوف إلى شرب قدح من الشاي أملًا في الدفء، ولكنه لم يستطع أكل شيء، وابتدأ يشعر بالحمى فخلع سترته ولف نفسه بالغطاء ورقد على السرير. وكان غير راض عن نفسه، وقد فكر في ابتسامة أنه كان من الواجب أن يكون في صحة جيدة في هذه المناسبة.. وكان الجو في الغرفة خانقًا، وينبعث من الشمعة ضوء ضئيل، بينما الهواء يعصف في الخارج. وسمع نبش فأرة في أحد الأركان، وكانت تملأ الغرفة رائحة فيران وجلد، وكان سفدريجايلوف راقدًا وهو غائص في الأحلام، والأفكار تتوالى في رأسه. وكان يود لو يركز خياله في شيء وكان يفكر: لا بد أن هنالك حديقة تحت النافذة، فهذا هو حفيف الأشجار إني أكره هذا الصوت في الليل أثناء العاصفة... فله في نفسي أثر سيئ.. وتذكر كيف أنه شعر بمثل هذه الكراهية وهو مار بحديقة بتروفسكي قبل زمن قصير، وتذكر وقفته على جسر نهر النيڤا الصغير، وشعر بمثل البرد الذي شعر به عندما أطل على الماء قبل لحظات. وفكر: «إني لا أحب الماء قط، حتى منظره..». ثم عاد فابتسم فجأة لفكرة عجيبة: «يجب الآن ألا أهتم مطلقًا لمسائل الذوق والراحة، على أني صرت الآن أكثر عناية بهذه المسائل كالحيوان الذي يختار مكانًا معينًا.. وبهذه المناسبة، كان يجب أن أتجه نحو حديقة بتروفسكي في هذه اللحظة، ولكني وجدت الظلام والبرد! ها! ها! ما زلت أرغب في الإحساسات الملائمة.. لماذا لم أطفئ الشمعة؟». ونفخ فيها فأطفأها. وفكر حين لم ير نور الشق: «إن جاريّ قد ناما، وهذه

هي اللحظة التي تأتين فيها يا مارفا بتروڤنا، والظلام شديد والزمان والمكان ملائمان، ولكنك لا تأتين الآن!».

ثم تذكر فجأة كيف أنه قبل ساعة من تنفيذ خطته نحو دنيا كان قد أشار على رسكولنكوف بوضعها في حماية رازوميهين، وقال لنفسه: «أظن أني قلت ذلك فعلًا لكي أضايق نفسي كرأي رسكولنكوف! أي وغد هذا الشاب! لقد مرت به أمور كثيرة، وقد يصير وغدًا ناجحًا مع مرور الزمن بعد أن يتغلب على سخافاته، ولكنه الآن كثير التعلق بالحياة! إن الشبان حقيرون لخروجهم في هذه المسألة، ولكن ليذهب إلى الجحيم! وليفعل ما يشاء فأمره لا يعنيني!».

ولم يستطع النوم، فإن صورة دنيا أخذت ترتسم أمامه، فشعر برعشة تمر في جسده، وأخذ يفكر كي يرفه عن نفسه: «لا! يجب أن أعدل عن كل هذا الآن، ويجب أن أفكر في أمر آخر، وإنه لأمر عجيب مضحك أني لم أشعر بكراهية مقيمة لأي أحد، ولم أرغب رغبة خاصة قط في الانتقام لنفسي.. وهذه علامة سيئة، علامة سيئة، علامة سيئة! وإني كذلك لا أحب العراك، ولا أفقد السيطرة على نفسي، وهذه علامة سيئة أيضًا! وهذه الوعود التي وعدتها بها الآن! يا للشيطان! ولكن من يعلم. ربما كانت تخلق مني شخصًا آخر بطريقة ما...».

وصر على أسنانه، ثم لزم الصمت ثانية، وارتسمت أمامه صورة دنيا مرة ثانية، كما كانت حين خفضت المسدس، وهي وجلة بعد أن أطلقته في المرة الأولى وأخذت ترنو إليه بنظرة غير مستقرة.. وكان يستطيع أن يمسك بها مرتين، دون أن ترفع يدًا للدفاع عن نفسها لو لم يذكرها! وتذكر كيف

أنه في تلك اللحظة شعر تقريبًا بالألم من أجلها، وشعر بوخز في قلبه...

- آه! يا للشيطان! هذه الأفكار تعود.. يجب أن أتركها جانبًا!

كان النعاس يغالبه، وقد سكنت رعدة الحمى، على أنه شعر فجأة كأن شيئًا يجري على ذراعه وساقه تحت الغطاء، فهب مذعورًا وفكر: «تبًا لهذا. لا بد أنه فأر جاء به لحم العجل الذي تركته فوق المائدة...».

لم يكن راغبًا مطلقًا في القيام وفي رفع الغطاء وفي أن يشعر بالبرد من جديد، ولكن شيئًا آخر كريهًا جرى فوق ساقه، فرمى بالغطاء وأشعل الشمعة واتجه نحو السرير وهو يرتعش بردًا ليفحصه فلم يجد شيئًا، ثم هز الغطاء فقفز فأر فجأة إلى غطاء السرير، وحاول أن يقبض عليه ولكن الفأر ظل يحاوره في جميع اتجاهات السرير دون أن ينزل عنه، وكان يمر من بين أصابعه ويجري فوق يده، وأخيرًا اختبأ تحت الوسادة، فرمى بالوسادة إلى الأرض، ولكن في اللحظة ذاتها قفز شيء على صدره وجرى فوق ظهره من تحت القميص، فارتجف ارتجافًا عصبيًا...

وكانت الغرفة مظلمة، وكان راقدًا على السرير وقد التف بالغطاء كما كان من قبل، وكانت الريح تصفر من وراء النافذة في الخارج فقال لنفسه متضايقًا: «ما أقبح هذا!».

قام سفدريجايلوف وجلس على طرف السرير وقد أدار ظهره إلى النافذة، وقد قرر لنفسه: «من الخير ألا أنام مطلقًا». وكان هواء بارد رطب يأتي من النافذة، فجذب سفدريجايلوف الغطاء إليه والتف به ولم يضيء الشمعة، ولم يكن يفكر في شيء ولا هو راغب في التفكير، ولكن الأحلام

كانت تتتابع لديه، وأشلاء من أفكار غير مفهومة لا بداية لها ولا نهاية تمر في ذهنه، فغاص فيما يشبه النوم. فهل هو البرد أم الظلام أم الرطوبة أم الريح التي تصفر في الخارج وتحرك الأشجار هي التي ولدت فيه رغبة الخيال الجامح؟ ظلت تتراءى له الأزهار، وارتسمت أمامه صورة حديقة أزهار ساحرة في يوم وضاء دافئ يكاد يكون حارًا، وهو يوم عطلة- يوم الثالوث، ورأى دارًا ريفية جميلة مترفة توافق الذوق تغطيها الأزهار العطرة، وتحيط بالدار مزارع الأزهار المختلفة.. وكان المدخل متوجًا بالنباتات المتسلقة وقد أحيط بزراعات الورد، وهنالك سلم خفيف هادئ غُطي بسجادة فاخرة وزُين بأزهار نادرة في أوان من الخزف. ولاحظ بنوع خاص في النوافذ باقات من النرجس الأبيض فوَّاحة العطر منحنية على عروقها الكثيفة الطويلة، وبالرغم من أن سفدريجايلوف لم يكن ليريد مغادرة هذا المنظر، إلا أنه صعد السلم ودخل بهوًا كبيرًا عاليًا، وفيه أيضًا وضعت الأزهار في كل مكان، في النوافذ وعلى مقربة من الأبواب التي تؤدي إلى الشرفة وفي الشرفة نفسها، وكانت أرض البهو قد فرشت منذ قريب بعشب تنبعث منه رائحة لطيفة، وكانت النوافذ مفتوحة فيدخل منها إلى البهو هواء منعش خفيف، وكانت العصافير تزقزق تحت النافذة. لكن في وسط البهو على مائدة مغطاة بحرير أبيض وضع نعش، وكان النعش مغطى بغطاء من الحرير الأبيض له حافة من شراشيب ثقيلة بيضاء، ويحيط بالنعش من جميع الجوانب أكاليل من زهور. وكانت صبية في ثوب شفاف ترقد بين هذه الزهور، وكانت ذراعاها اللتان قد يقال إنهما من رخام متشابكتين فوق صدرها، ولكن شعرها الأشقر المتناثر كان مبللًا، وقد كلل رأسها

بإكليل من الورد، وكان محياها القاسي الذي أخذه الجمود كأنه قُد من رخام، ولكن ابتسامة شفتيها الباهتتين تعبر عن تعاسة وحزن عميق ليس فيه أثر للطفولة. وقد عرف سفدريجايلوف هذه الصبية، ولم يكن حول هذا النعش صور مقدسة ولا شموع ولا صوت صلوات، فقد انتحرت هذه الصبية غرقًا... لم تكن قطعت من العمر غير أربعة عشر ربيعًا، ولكن قلبها تحطم على أثر اعتداء جثم على ضميرها الفتي فحيره وأرهبه، وقد لطخت نفسها الملائكية بإهانة لم تكن تستحقها، فانتزعت من صدرها صرخة أخيرة من صرخات اليأس، صرخة لم تسمع وأهملت في وحشية في سواد ليلة باردة ماطرة وبين صفير الرياح.

عاد سفدريجايلوف إلى شعوره، فنهض وسار نحو النافذة، وبحث مليًّا عن مشبكها وفتحه، فهب الهواء عنيفًا على الغرفة، وصدمه في وجهه وفي جسمه الذي لا يغطيه غير القميص.. ويظهر أن النافذة تطل على حديقة تستعمل ملهى يسمع فيه الغناء ويقدم الشاي على موائد صغيرة في النهار، أما الآن فإن أوراق الشجر تتناثر منها إلى داخل الغرفة قطرات من الماء، وكان الظلام حالكًا كما في الكهف، وتظهر الأشياء للعين كأنها لطع سوداء مبهمة... وأطل سفدريجايلوف مسندًا مرفقيه على حافة النافذة، وحاول فترة خمس دقائق أن يخترق بنظرته الظلام.

ومزقت سكون الليل طلقة مدفع، ثم طلقة أخرى، ففكر: «هذه علامة طغيان النهر، ولا يأتي الصباح حتى تكون الشوارع في الأحياء المنخفضة في المدينة قد غمرتها مياهه، كما تطغي المياه على الأدوار السفلى من البنايات تحت الأرض، فتعوم الفيران ويصخب الرجال، ويلعنون المطر

والريح وهم ينقلون أمتعتهم الحقيرة إلى الطبقات العليا... ولكن كم الساعة؟».

لم يكد يفكر في هذا حتى دقت ساعة مجاورة ثلاث دقات، فقال: «لا تمضي ساعة حتى يطلع النهار، فماذا أنتظر؟ لم يبق لي إلا أن أخرج الآن وأقصد في الحال إلى حديقة بتروفسكي، وسأختار شجرة كبيرة مبللة بالمطر، من الأشجار التي إذا لامستها بكتفك نزل على رأسك ملايين من قطرات الماء».

أغلق النافذة وأضاء الشمعة وارتدى ثيابه ولبس قبعته، وخرج إلى الممشى وهو ممسك بالشمعة ليحاول أن يجد الرجل الرث الثياب، إذ يجب أن يكون راقدًا في ركن من الأركان المليئة بأشياء عجيبة وبقايا الشمع لكي يدفع له الحساب ويغادر الفندق: «إنها خير لحظة، ومن المستحيل أن أجد خيرًا منها».

وظل يسير في الممشاة الطويلة الضيقة دون أن يجد أحدًا، وهم بالنداء عليه حين تبين فجأة في ركن مظلم بين دولاب وباب شيئًا عجيبًا يظهر أنه مخلوق حي، فخفض شمعته ورأى طفلة عمرها نحو خمس سنوات في ثوب مبلل حتى لكأنه قماش أعدّ للغسيل، وكانت ترتعد وتبكي ويظهر أنه لم يداخلها الخوف حين رأت سفدريجايلوف، بل ثبتت فيه عينيها السوداوين الواسعتين بنظرة تعجب مستقرة، وكان يخرج منها زفرة بين حين وآخر كما يحدث للأطفال حين يبكون كثيرًا ثم يأخذون في الهدوء، وكان وجه الطفلة ممتقعًا ومتعبًا ففكر: «ولكن كيف وجدت هنا؟ يجب أن تكون اختبأت وأمضت الليلة من غير نوم!». وأخذ يسألها، فدبت فيها

الحياة وأخذت تروي له بلغة الأطفال شيئًا عن أمها، وكيف أن أمها همت بضربها من أجل فنجان كسر، وظلت الطفلة في ثرثرتها دون انقطاع، وبدا لسفدريجايلوف أنه فهم أنها طفلة مهملة، وأن أمها وهي طاهية في الفندق مدمنة للشراب وتضربها بلا انقطاع، وأن الطفلة كسرت فنجان أمها فاختبأت منذ المساء خشية غضبها... وقد اختبأت طويلًا في الخارج تحت المطر، ثم تمكنت أخيرًا من الدخول خلسة إلى هذا المكان واختبأت وراء الدولاب، وأمضت الليل بطوله وهي تبكي وترتعد من البرد، إذ تخشى أن تُضرب ضربًا قاسيًا من أجل ذلك... وحمل سفدريجايلوف الطفلة بين ذراعيه ونقلها إلى غرفته ووضعها على السرير، ورأى أن يخلع ملابسها، وكان حذاءاها الممزقان اللذان تلبسهما من غير جوارب مبللين، كأنها أمضت الليل واقفة في بحيرة ماء. فلما خلع ثيابها أرقدها في السرير بعد أن لفها جيدًا في الغطاء، ونامت الطفلة للحال وعاد سفدريجايلوف إلى الغوص في أفكاره المظلمة.

وأخذ فجأة يفكر وقد شعر بمضايقة: «لماذا تدخلت في هذا الأمر؟... ما هذا الغباء؟».

وتملكه الغضب، فأمسك بالشمعة لكي يجد الخادم بأية وسيلة ويغادر المكان في أسرع وقت، وكان يقول لنفسه: «لعنة الله على الطفلة!». وفتح الباب متأهبًا للخروج، ولكنه عاد ليلقي عليها نظرة أخيرة ويتأكد من نومها، ورفع الغطاء في عناية فإذا هي في نوم عميق، وقد عاد إليها الدفء تحت الغطاء واحمر خداها الممتقعان، ولكن من العجيب أن لونها كان أكثر ازدهارًا منه في الأطفال، فقال سفدريجايلوف لنفسه:

«هذا هو احمرار الحمى!». وكأنها شربت كأسًا من النبيذ، وكأن شفتيها الحمراوين تحترقان، ولكن ما هذا؟ خيل إليه أنه رأى فجأة أهدابها الطويلة تتحرك، وفتحت عينيها، وإذا بهما تغمزان بنظرة بعيدة عن الطفولة، فقد كانت الصبية تتصنع النوم فقط.. وأخذت شفتاها تبتسمان وهما ترتعشان من الجانبين من أثر الضحك المكتوم، ثم لم تعد تتمالك نفسها فانفرج فمها عن ضحكة عريضة، وظهر في هذا الوجه الذي لم يعد وجه طفلة الكثير من الاستهتار والإغراء.. إنها الدعارة! فهو وجه ابنة الهوى الفرنسية التي لا تعرف الخجل.. وفتحت العينان على اتساعهما، وكانتا تلقيان عليه نظرة شهوانية غير لائقة، وهما تحرضانه وتضحكان له... وكان في هذا الضحك شيء بغيض وكريه، وفي هاتين العينين وفي ذلك الفجور على وجه طفلة.. وتمتم سفدريجايلوف وقد تملكه ذعر حقيق: «كيف؟ في سن الخامسة؟! هل هذا ممكن؟». ولكنها حولت نحوه وجهها المحتقن ومدت له ذراعيها... فصاح بها مستفظعًا: «إنك طفلة شريرة!». ورفع يده عليها ليضربها... وفي هذه اللحظة استيقظ من النوم!

كان لا يزال راقدًا على السرير، وهو ملتف بالغطاء والشمعة غير موقدة وقد جاء النهار، فقال: «إنها ليلة أحلام مزعجة..». وقام غاضبًا وهو يشعر بهمود في جسده، وكانت عظامه تؤلمه، وكان الضباب الكثيف منتشرًا في الخارج فصار من المحال أن يرى شيئًا. وقاربت الساعة أن تبلغ الخامسة صباحًا. وقد نام سفدريجايلوف مدة أطول مما قدره، فقام وارتدى سترته التي كانت لا تزال رطبة ومعطفه، وتحسس المسدس في جيبه فأخرجه ووضع الرصاصة في مكانها، ثم جلس وأخرج مذكرة الجيب وسطر على

عجل بضع عبارات بخط كبير في أظهر مكان بها! ثم أعاد تلاوة ما كتبه، وارتكن إلى المائدة وغاص في أفكاره. وكان المسدس والمذكرة إلى جانبه، وكان الذباب قد صحا وتجمع على قطعة اللحم التي لم يمسها. وظل يتأمل طويلًا، ثم حاول أن يمسك بذبابة بيده اليمنى التي كانت طليقة حتى تعب ولكنه لم يوفق، وأخيرًا تنبه إلى سخافة صرف وقته في هذه التسلية، فعاد إلى نفسه وقام وترك الغرفة في قدم ثابتة، وبعد ثانية كان في الشارع.

وكان ضباب كثيف يغطي المدينة، فسار سفدريجايلوف على الرصيف الخشبي اللزج المغطى بالأوحال نحو نهر النيڤا الصغير. وكان يتخيل مياه النهر وقد ارتفعت أثناء الليل وجزيرة بتروفسكي وقد ابتلت طرقها وأعشابها وأشجارها وأدغالها... فبدأ ينظر إلى الدور من حوله في غضب كي يصرف ذهنه إلى شيء آخر، ولم تكن هناك مركبة على امتداد النظر، وكانت البيوت الصغيرة الخشبية ذات اللون الأصفر الفاقع وقد أقفلت نوافذها تبدو قذرة حزينة. وشعر بالرعشة من البرد والرطوبة، وكان يمر من وقت لآخر أمام عنوان فاكهي أو بقال، فيقرأ كل ما كتب عليه في عناية، وأخيرًا وصل إلى نهاية الرصيف الخشبي فرأى دارًا كبيرة من الحجارة، وعبر الطريق أمامه كلب صغير قذر يرتعش بردًا وقد وضع ذيله بين رجليه، ورأى سكيرًا يرتدي معطفًا ثقيلًا وقد ارتمى على الرصيف ووجهه إلى الأرض، فتأمله ثم سار في طريقه. ورأى إلى يساره برجًا عاليًا ففكر قائلًا: «حقًا! هذا المكان ملائم... لماذا أذهب إلى حديقة بتروفسكي؟.. فهنا على الأقل أجد شاهدًا رسميًا...».

وابتسم لتلك الفكرة الجديدة، واتجه نحو الشارع الذي به الدار الكبيرة ذات البرج، وقد وقف أمام الباب الكبير المقفل رجل قصير القامة التف في معطف ثقيل رمادي من معاطف الجنود، ووضع فوق رأسه خوذة نحاسية كخوذة أخيل، وألقى من جانب عينيه نظرة نائمة عابرة على سفدريجايلوف الذي كان يقترب منه، وكان يبدو على ملامحه ذلك الحزن الساخط دائمًا الذي هو العلامة المميزة لوجوه اليهود بدون استثناء. وقد ظل الاثنان- سفدريجايلوف وأخيل- يتأمل كل منهما الآخر بعض الوقت، وأخيرًا بدا لأخيل أنه من العجيب أن يرى شخصًا لم تلعب به الخمر يقف على ثلاث خطوات منه يتأمله ولا يقول شيئًا، فسأله دون أن يتحرك وهو لا يزال مستندًا إلى الباب: «ماذا تريد هنا؟».

فأجاب سفدريجايلوف: «لا شيء يا صديقي! أسعدت صباحًا».

فقال أخيل: «ليس هذا مكانك!».

فأجابه سفدريجايلوف: «إني سأسافر أيها الصديق إلى بلاد بعيدة!».

- بلاد بعيدة؟

- إلى أمريكا!

- إلى أمريكا؟

وأخرج سفدريجايلوف المسدس ووضع فيه الرصاصة، ورفع أخيل أهدابه وقال:

- ليس هذا مكان المزاح!

- لماذا لا يكون؟

- لأنه ليس المكان!

فقال سفدريجايلوف: «لا يهمني أيها الصديق.. إنه مكان مناسب! إذا سألك سائل فقل إنه أخبرني بأنه مسافر إلى أمريكا!».

ووضع فوهة المسدس على صدغه الأيمن..

وصاح أخيل وقد انتصب وفتح عينيه على سعتهما: «لا يمكنك أن تفعل هذا هنا. ليس هذا هو المكان!».

وضغط سفدريجايلوف على الزناد..

***

(٧)

في اليوم ذاته، بين الساعة السادسة والسابعة مساء، كان رسكولنكوف في طريقه إلى مسكن والدته وأخته في دار باكاليف، وهو المسكن الذي وجده رازوميهين لهما. وكانت سلالم المنزل تبتدئ من الشارع، وكان رسكولنكوف يمشي في خطوات متئدة كأنه متردد فيما إذا كان يذهب أو لا يذهب. ولكن لم يكن أحد ليرده عن الاستمرار، فقد عقد العزم على ما أراده.

وكان يفكر قائلًا: «هذا لا يهم.. وفضلًا عن ذلك فهما لا يعرفان شيئًا، وقد اعتادا على اعتباري غريب الأطوار».

وكانت ثيابه فظيعة، فهي ممزقة قذرة بللها مطر الليل، وقد تشوه وجهه من التعب والتعرض للجو والصراع الداخلي الذي ظل يعذبه أربعًا وعشرين ساعة، وقد أمضى الليل السابق منفردًا. ويعلم الله أين أمضاه،

ولكنه كان قد عقد النية على أمر..

وقرع الباب، وفتحته أمه.. أما دنيا فلم تكن في الدار، وكان الخادم أيضًا في الخارج، وقد عقدت الدهشة والفرحة في أول الأمر لسان پولكيريا ألكسندروڤنا، ثم جذبته من يده وأدخلته الغرفة.

بدأت تقول والفرح يقطع عباراتها: «كيف أنت؟ لا تغضب مني يا روديا لأني أرحب بك هكذا بدموعي.. إني أضحك ولا أبكي! هل ظننت أني أبكي؟ لا! إني سعيدة ولكن عادتي السخيفة أن تنحدر دموعي! لقد صرت هكذا منذ وفاة والدك.. أبكي للاشيء.. اجلس هنا يا ولدي العزيز. لا بد أنك متعب.. إني أرى ثيابك ملطخة بالوحل..».

ابتدأ رسكولنكوف يقول: «كنت أمشي في المطر يا أماه..».

قاطعته پولكيريا ألكسندروڤنا في سرعة: «لا! لا! لقد ظننت أني سأحقق معك بالطريقة التي يأتيها النساء! لا تقلق! إني أفهم كل شيء، لقد تعلمت أساليب الحياة هنا وأرى حقًا أنها خير من أسلوبنا! لقد قررت نهائيًا أني لن أستطيع فهم مشروعاتك، فكيف أنتظر أن تشرحها لي؟ لا يعلم إلا الله ما هي مشروعاتك وفيم تفكر وماذا تدبر، على أنه ليس من شأني أن أظل متعلقة بك سائلة فيما تفكر؟ ولكن! رباه لماذا أنطلق في الحديث كالمجنونة؟... أتعلم يا روديا أنها المرة الثالثة التي أقرأ فيها مقالك في الجريدة؟ لقد حمله إليَّ ديمتري بروكوڤتش، وبمجرد أن رأيت المقال قلت لنفسي: هاك أيتها الغبية ما يشغله، وهذا هو السر! فالعلماء دائمًا هكذا، فقد يكون رأسه مشغولًا بآراء جديدة يبحث فيها، ولم أعمل إلا على مضايقته وتعذيبه... وقد قرأت المقال أيها العزيز وفيه مواضع

كثيرة لم أفهمها بلا ريب، ولكنه أمر طبيعي، فكيف أفهمها؟».

- أرينيها يا أماه!

تناول رسكولنكوف الجريدة وألقى نظرة سريعة على مقاله، وبالرغم من التناقض البين بين هذا المقال وحالته وظروف الحاضرة، فإنه شعر بتلك العاطفة الغريبة الحلوة والمرة معًا التي يشعر بها كل مؤلف يرى آراءه منشورة لأول مرة، ولا سيما إذا كان هذا المؤلف لا يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره.. ولم يلبث ذلك الشعور غير لحظة، وقرأ بضعة أسطر ثم تقطب جبينه وانقبض قلبه ألمًا، فإن ذكرى النضال الداخلي في الشهور الأخيرة عادت إليه فجأة، فرمى بالمقال في حنق واشمئزاز على المائدة. واستمرت أمه: «ولكن مهما أكن غبية فإني أستطيع أن أحكم يا روديا بأنك ستكون من أوائل المفكرين في روسيا، ومع ذلك فقد جرؤوا على القول بأنك فقدت الصواب! إنك لا تعلم، ولكنهم توهموا ذلك حقًا! تبًا لهؤلاء الحقراء! كيف يستطيعون أن يفهموا العبقرية؟ وهل تعلم أن دنيا- دنيا نفسها- كانت على استعداد لتصديق هذا الوهم؟ ماذا تقول في ذلك؟ لقد أرسل والدك مقالات مرتين إلى الصحف، في أول مرة بعض الأشعار (وقد احتفظت بها بخطه وسأريك إياها في أحد الأيام) ثم أرسل قصة طويلة (وقد توسلت إليه أن يسمح لي بنقلها) ودعونا الله أن يقبلا، ولكنه لم يستجب دعاءنا.. لقد كنت يا روديا متألمة منذ ستة أو سبعة أيام لطريقة طعامك ولباسك ومعيشتك، والآن أرى ذلك غباء مني؛ لأنك تستطيع أن تبلغ أي مركز تريد بذكائك ومواهبك، وإن كنت في الوقت ذاته لا تهتم لذلك لانشغالك بأمور أكبر أهمية!».

وسألها رسكولنكوف: «أليست دنيا هنا يا أماه؟».

فأجابت: «لا يا روديا، إنها تخرج كثيرًا وتتركني وحيدة! وأشكر ديمتري بروكوفتش الذي يأتي لزيارتي ويحدثني دائمًا عنك، وهو يحبك ويحترمك يا عزيزي! ولا أقول إن دنيا لا تعني بأمري، ولا أشكو منها.. فإن لها أفكارها ولي أفكاري! ويظهر لي في هذه الأيام الأخيرة أنها تخفي أسرارًا عني، بينما أنا لا أخفي عنكما شيئًا أبدًا، غير أني واثقة من أن دنيا عاقلة جدًا، وإنها تحبني وتحبك... ولكني لا أعلم إلى أي طريق سيؤدي مسلكها.. إنك ترى يا روديا أني أشعر بالسعادة حين تأتي لرؤيتي، وستشعر هي بالأسف إذ خرجت فلم ترك، وسأقول لها إن أخاك جاء وأنت خارج الدار، فأين كنت طول هذا الوقت؟.. لا أريد أن تعني بي كثيرًا يا روديا بل مر عليّ عندما تستطيع فإن لم تستطع فلا بأس إذ يمكنني الانتظار.. إني أعلم على كل حال أنك تحبني وهذا يكفيني، وسأقرأ ما تكتبه وسأسمع ما يقوله الناس عنك، وستأتي بين حين وآخر لزيارتي، وهل أرغب فيما هو خير من هذا؟ إنك جئت اليوم لتسري عن أمك كما أرى!».

وهنا غلب پولكيريا ألكسندروفنا البكاء، فصاحت وقد هبت واقفة: «إن هذا يحدث لي أحيانًا، ولكن لا تهتم! رباه! لماذا أنا جالسة هكذا؟ إني لم أقدم لك القهوة! تلك أنانية الشيخوخة.. سآتي بها في الحال».

فقال رسكولنكوف: «لا تتعبي نفسك يا أماه! فإني سأخرج بعد قليل ولم أجيء لهذا.. أرجو أن تستمعي إليَّ!».

واقتربت پولكيريا ألكسندروفنا منه في خجل..

فسألها فجأة من أعماق قلبه دون أن يفكر في كلماته أو يزنها: «أماه! هل تحبينني دائمًا كما تفعلين الآن مهما يحدث ومهما يبلغك عني؟».

فصاحت: «روديا! روديا! ماذا هنالك؟ وكيف تسألني هذا السؤال؟ ومنذا الذي يخبرني شيئًا عنك؟ وفضلًا عن ذلك، إني لا أصدق أي إنسان.. وسأرفض أن أسمع إلى أحد!».

واستمر في حديثه تحت التأثير ذاته: «جئت لأؤكد لك أني أحببتك دائمًا، وإني لسعيد بانفرادنا، سعيد بأن دنيا ليست معنا، جئت لأخبرك أنه حتى لو كنت غير سعيدة فيجب أن تعتقدي أن ابنك يحبك الآن أكثر من نفسه، وأن كل ما ظننته عن قسوتي وأني لا أهتم لك إنما هو خطأ ولن أعدل عن حبي لك... والآن كفى. لقد رأيت أن أعمل هذا وأبدأ بهذا..».

وعانقته پولكيريا ألسكندروفنا في صمت، وضمته إلى صدرها وهي تبكي في هدوء، ثم قالت أخيرًا: «لست أعلم ما خطبك. لقد كنت أظن كل هذا الوقت أننا نضايقك، ولكني أرى الآن أن سيحل بك حزن عميق، وهذا هو السبب في تعاستك. لقد توقعت هذا من زمن يا روديا، ومعذرة إذا تكلمت عنه.. إني أظل مفكرة في هذا، وأرقد الليل في أرق، وقد ظلت أختك في الليلة الماضية تتكلم أثناء نومها طوال الليل، ولا تتكلم إلا عنك.. وقد سمعت شيئًا ولكن لم أفهم، وعشت طوال هذا اليوم كأني محكوم عليَّ بالإعدام، أنتظر أمرًا وأتوقع شرًا، وهذا هو يتحقق يا روديا. روديا، أين تذهب؟ إنك على أهبة الرحيل إلى مكان!».

- نعم.

- هذا ما ظننته. ولكني أستطيع أن أجيء معك إذا كنت في حاجة إليَّ. ودنيا أيضًا فهي تحبك، وتحبك كثيرًا. ولتأت معنا صوفيا سميونوڤنا إذا أردت. فأنت ترى إني على استعداد لاعتبارها ابنة لي. وسيساعدنا ديمتري بروكوڤتش على السفر معًا. ولكن أين أنت ذاهب؟

- وداعًا يا أماه!

فصرخت الأم وكانها ستخسره إلى الأبد: «كيف؟ في هذا اليوم نفسه؟».

فقال: «لا أستطيع البقاء. يجب الذهاب الآن!».

قال: «لا.. اركعي على ركبتيك وصلي لله من أجلي! فقد يستجيب لصلواتك!».

قالت: «دعني أباركك وأرسم عليك علامة الصليب.. هكذا! هكذا! رباه! ماذا نفعل؟».

أجل! لقد كان مرتاحًا، ومرتاحًا جدًا، إذ كان على انفراد مع والدته، فقد رق قلبه لأول مرة بعد هذه الشهور الفظيعة، وركع على ركبتيه أمام أمه وقبل قدميها، وبكى الاثنان معًا وهما متعانقان. ولم تبد دهشة من شيء ولم تسأله، وقد فهمت منذ أيام أن حادثًا وقع لابنها، وأن ساعة الفصل المخيفة دنت..

وقالت وهي تشرق بدموعها: «ولدي الحبيب روديا! يا أول مولود لي! إنك الآن كما كنت تمامًا في طفولتك، إذ كنت تجري نحوي وتضمني وتحتضنني وتقبلني، وحين كان أبوك حيًا وكنا فقراء كان مجرد وجودك

ينسينا متاعبنا. وحين واريناه التراب كم من مرة بكينا أنا وأنت وتعانقنا هكذا على قبره!.. وإذا كنت أبكي منذ وقت بعيد فذلك لأن قلب الأم قد تنبأ بالمتاعب، ومنذ أن رأيتك في أول مرة عند وصولنا في ذاك المساء- كما تذكر- دلتني عيناك على كل شيء، فانقبض قلبي في الحال.. واليوم، حين فتحت الباب ونظرت إليك، قلت لنفسي: إن الساعة الخطيرة قد دنت! روديا! روديا! سوف لا تذهب اليوم؟».

- لا!

- وهل تأتي مرة أخرى؟

- نعم، سأحضر!

- لا تغضب يا روديا، فإني لا أجرؤ على سؤالك، وأعلم أنه لا يجب السؤال.. قل لي كلمتين فقط: هل ستذهب بعيدًا؟

- بعيدًا جدًا!

- ماذا ينتظرك هنالك؟ هل هو منصب أو عمل؟

- سأنال ما قسمه الله لي... فقط صلي لله من أجلي!

وقام رسكولنكوف إلى الباب، ولكنها تعلقت به ونظرت إلى عينيه في يأس، وكان وجهها تتحرك أعصابه رعبًا..

قال رسكولنكوف، وقد أسف حقًا لمجيئه: «كفى يا أماه!».

- ليس هذا الفراق للأبد! ليس للأبد! ستحضر غدًا! ستحضر مرة ثانية!

- نعم! نعم! وداعًا!

ونجح آخر الأمر في التخلص منها.

وكان المساء حارًا صافيًا، وقد انقشعت السحب منذ الصباح، وعاد رسكولنكوف إلى مسكنه.. وكان مسرعًا، وكان يريد أن ينتهي من كل شيء قبل غروب الشمس، ولا يريد أن يقابل أحدًا قبل ذلك.. ولاحظ وهو يصعد السلم أن نستاسيا غادرت وعاء الشاي وأمعنت في مراقبته فساءل نفسه: «هل جاء أحد لغرفتي؟». وتصور متضايقًا أن يكون الزائر بورفيري، ولكنه عندما فتح الباب وجد دنيا. وكانت جالسة وحدها وهي مسترسلة في تفكير عميق، وبدا عليها أنها منتظرة منذ وقت طويل، فوقف على عتبة الباب.. وقامت من المقعد الكبير في ضيق ووقفت في مواجهته، وكانت عيناها اللتان ثبتتهما فيه تنمان عن استفظاع وحزن عميق..

قال في تردد: «هل أدخل أو أذهب؟».

قالت: «كنت طول اليوم مع صوفيا سميونوڤنا ننتظرك، وكنا نعتقد أنك ستحضر عندها».

ودخل رسكولنكوف الغرفة، وتساقط على كرسي وقد خارت قواه وقال: «إني أشعر بضعف يا دنيا وإني متعب جدًا، وكنت أود في هذه اللحظة أن أكون متمالكًا قواي!».

وكان ينظر إليها في عدم اطمئنان..

وسألته: «أين كنت طول الليل؟».

فأجاب: «لا أتذكر جيدًا.. إنك ترين يا أختاه أني أردت أن أجمع على

أمر فسرت عدة مرات إلى جانب نهر النيڤا، وأذكر أني أردت أن أنهي الأمر هناك ولكن.. لم أستطع أن أعقد العزم على ذلك!» وهمس بهذا القول وهو ينظر إليها مرة ثانية في عدم اطمئنان..

قالت: «شكرًا لله! هذا ما كنا نخشاه أنا وصوفيا سميونوڤنا! إذن لا تزال لك ثقة بالحياة؟ شكرًا لله! شكرًا لله!».

فابتسم رسكولنكوف في مرارة وقال: «لست أومن بها! ولكني كنت منذ هنيهة أبكي بين ذراعي أمي! إني لا أومن! ولكني كنت منذ هنيهة أسألها أن تصلي من أجلي.. لا أعلم كيف هذا يا دنيا! لا أفهمه!».

صاحت دنيا في رعب: «هل ذهبت إلى والدتي؟ هل أخبرتها؟ من المؤكد أنك لم تفعل ذلك!».

- كلا لم أخبرها بالألفاظ، ولكنها فهمت كثيرًا. فقد سمعتك تتكلمين في نومك. وإني على ثقة من أنها تكاد تفهم الآن. ربما أخطأت في ذهابي لرؤيتها. ولست أعلم لماذا ذهبت. فإني شخص جدير بالاحتقار يا دنيا!».

- شخص جدير بالاحتقار، ولكنك على استعداد لمواجهة العذاب. إنك على استعداد. أليس كذلك؟

- نعم. سأذهب في الحال! نعم، لقد فكرت في أن أغرق نفسي لكي أنجو من المذلة يا دنيا، ولكني عندما نظرت إلى الماء فكرت أنني إذا كنت أعتبر نفسي قويًا إلى الآن فمن الخير ألا أخشى المذلة.

قال ذلك وهو يسرع في القول: «إنها الكبرياء يا دنيا!».

- الكبرياء يا روديا!

ظهر في عينيه المطفأتين بريق من النار، وكأنه سر لأنه لا يزال محتفظًا بكبريائه، وسألها وهو ينظر إلى وجهها في ابتسامة ساخرة: «لعلك لا تظنين يا أختاه أني شعرت بمجرد الخوف من الماء..».

فصاحت في مرارة: «اسكت يا روديا!».

وساد بينهما السكون مدة دقيقتين، وقد جلس وعيناه مثبتتان في الأرض.. ووقفت دنيا إلى الجانب الآخر من المنضدة وهي تنظر إليه في ألم، وفجأة نهض من جلسته: «لقد تأخر الوقت وحل موعد الذهاب، إني ذاهب في الحال لتسليم نفسي.. ولكني لا أعرف لماذا أسلم نفسي!..».

وتساقطت دموع كبيرة على خديها، فقال: «إنك تبكين يا أختاه. ولكن هل تستطيعين أن تمدي يدك إليَّ؟».

وألقت ذراعيها حوله وصاحت وهي تضمه وتقبله: «إنك لتكفر عن نصف جريمتك بمواجهة الآلام!».

صاح في غضب فجائي: «جريمة؟ أية جريمة؟ إني قتلت حشرة ضارة شريرة، امرأة عجوزًا مرابية لا فائدة منها لأحد... إن قتلها كان تكفيرًا عن أربعين خطيئة، فهي تمتص الحياة من الفقراء. هل هذه جريمة؟ إني لم أفكر فيها، ولم أفكر في التكفير عن هذا.. ولماذا أنتم جميعًا تكثرون من الحديث عنها؟ جريمة! جريمة! إني الآن فقط أرى في وضوح سخافة جبني! الآن وقد عقدت العزم على مواجهة هذه المذلة التي لا معنى لها.. إني اعتزمت هذا لأني حقير وضئيل... ولأن هذا الأمر أيضًا في صالحي كما قرر بورفيري!».

صاحت دنيا في يأس: «أخي! أخي! ماذا تقول؟ إنك أهرقت دمًا!».

فقال وقد بلغ به الغضب حد الجنون: «كل الناس يفعلون! لقد سالت دماء.. أنهار من الدماء كانت دائمًا تنصب كالشمبانيا، ومن أجل هذا العمل كان يتوج رجال في مرتفع الكاپيتول بروما ويقال عنهم فيما بعد إنهم خدموا الإنسانية.. انظري إلى هذا الأمر وتفهميه.. أنا أيضًا أردت أن أعمل الخير للناس، وأن أعمل مئات بل آلاف الأعمال النافعة عوضًا عن هذا العمل الواحد السخيف، بل الذي لم يبلغ حد السخف، إنما هو مجرد عدم توفيق، فإن الفكرة لم تكن سخيفة كما تظهر الآن بعد فشلها.. وكل أمر يظهر سخيفًا بعد فشله.. إني بهذه السخافة أردت أن أضع نفسي في مركز الاستقلال، وأتخذ الخطوة الأولى للحصول على الوسائل المادية، وبعد ذلك ينتظم كل شيء ويعود بفوائد لا تقاس إذا قدرت به.. ولكني لم أستطع تنفيذ حتى الخطوة الأولى، لأني حقير.. هذا هو الموضوع! إني لا أنظر إليه نظرتك! فلو أني نجحت لتوجت بالمجد، ولكني الآن في الفخ!».

قالت: «إن الأمر ليس كذلك! ليس كذلك يا أخي! ماذا تقول؟».

فقال: «إنه لأمر غير جميل، وغير جذاب من الوجهة الفنية! إني لا أستطيع أن أفهم لماذا يكون ضرب الناس بالنار عند حصارهم أكثر شرفًا! إن الخوف من المظاهر هو أول علامة على العجز! إني لم أعرف أبدًا ذلك أكثر من الآن، ولم أكن أبعد من أن أرى فيما فعلته جريمة حتى الآن، ولم أكن في وقت ما أقوى وأكثر ثباتًا في العقيدة مني الآن!».

وكان الدم قد اندفع إلى وجهه الممتقع، ولكن عندما نطق بتفسيره

الأخير وقعت عيناه على عيني دنيا صدفة فوجد فيهما من الآلام الكامنة ما أوقفه عن الكلام، وشعر أنه على الأقل سبب تعاسة لهاتين المرأتين المسكينتين فقال: «عزيزتي دنيا! إذا كنت مذنبًا فاصفحي عني، ولو أن الصفح عن الذنوب غير ممكن.. وداعًا! لن نتجادل! لقد أزف الوقت حقًا للذهاب، وأتوسل إليك ألا تتبعيني فإن عليَّ أن أذهب إلى مكان آخر... ولكن اذهبي في الحال ولازمي الأم! أتوسل إليك! وهو آخر رجاء مني إليك ألا تتركيها مطلقًا! لقد تركتها في حالة من القلق لا تستطيع احتمالها، فربما تموت أو تفقد عقلها! كوني معها! وسيكون رازوميهين معك! فقد تحدثت إليه.. لا تبكي من أجلي، وسأحاول أن أكون شريفًا أسلك مسلك الرجال طول حياتي ولو أني قاتل. وربما أتمكن يومًا من أن يكون لي اسم، وسترين أني لا أحط من قدركما.. سأريك ذلك... والآن وداعًا».

واختتم كلامه مسرعًا، وقد لاحظ مرة ثانية تعبيرًا غريبًا في عيني دنيا عند كلماته الأخيرة ووعوده فقال: «لماذا تبكين؟ لا تبكي. لا تبكي.. إننا لا ننفصل للأبد. نعم. انتظري دقيقة.. لقد نسيت!».

وذهب إلى المنضدة، وتناول كتابًا ضخمًا فتحه وأخرج من بين صفحاته صورة صغيرة مرسومة بالألوان المائية على العاج، وهي صورة ابنة صاحبة المسكن التي ماتت بالحمى، تلك الفتاة الغريبة التي أرادت أن تكون راهبة، وظل ينظر لحظة إلى وجه خطيبته الرقيق، ثم قبل الصورة وأعطاها لدنيا وهو يقول في تفكير: «كان من عادتي أن أتحدث إليها كثيرًا. ولها وحدها فقط. وكنت أسر لقلبها الكثير مما حققته ولكن في صورة فظيعة!».

ثم التفت إلى دنيا وقال: «لا تقلقي! لقد كانت تعارض رأيي بقدر ما تعارضين.. وإني لمرتاح لأنها ذهبت.. إن كل شيء الآن سيكون مختلفًا، وسينشطر إلى قسمين..».

ثم صاح فجأة وقد عاد إلى يأسه: «كل شيء. كل شيء! وهل أنا على استعداد لذلك؟ هل أريده أنا نفسي؟ يقولون إن من الضروري أن أتألم. فما الغرض من هذه الآلام التي لا معنى لها؟ هل سأعرف أكثر من الآن ما غرضهم بعد أن تحطمني المصاعب والسخافات وأصير رجلًا هرمًا ضعيفًا بعد عشرين سنة من أشغال شاقة؟ وما الذي يجب أن أعيش من أجله عندئذ؟ لماذا أرضى بهذه الحياة؟ لقد عرفت أني حقير عندما وقفت أنظر إلى نهر النيڤا في صباح اليوم!».

وأخيرًا خرج الاثنان، وكان هذا الأمر شاقًا على دنيا، ولكنها تحبه.. وسارت بعيدة عنه، ولكن بعد خمسين خطوة، التفتت لتنظر إليه مرة ثانية، وكان لا يزال في مرمى نظرها، وعند منعرج الشارع التفت هو أيضًا، وتقابلت عيناهما للمرة الأخيرة، ولكنه عندما لاحظ أنها تنظر إليه أشار إليها في نفاد صبر بل في مضايقة.. واختفى سريعًا في منعرج الشارع.

فكر لنفسه وقد شعر بخجله بعد لحظة لإشارة الاستياء التي أظهرها لدنيا: إني شرير. أرى ذلك. ولكن لماذا يحبونني هذا الحب إذا لم أكن أهلًا له؟ آه لو كنت وحيدًا لا يحبني أحد وأنا أيضًا لم أحب أحدًا. لم يكن شيء من ذلك ليحدث. هل تراني في هاته السنوات الخمس عشرة أو العشرين أصير من الاستكانة حتى أني أذل نفسي أمام الناس وأغمغم في خضوع أمام كل كلمة بأني مجرم؟ نعم. هذا هو السبب في أنهم يريدون

أن يرسلوني هنالك، وهذا ما يريدونه. انظر إليهم وهم يجرون هنا وهنالك في الشوارع، إن كلا منهم وغد ومجرم في قلبه، بل أسوأ من ذلك: غبي. ولكن إذا حاولت التخلص منهم يصيرون كالمجانين من الغضب.. آه.. ما أشد بغضي لهم!».

وأخذ يفكر بأية وسيلة أصبح خاضعًا أمامهم- دون تفريق- خاضعًا بعقيدته، ولكن لم لا؟ يجب أن يكون الأمر كذلك. ألا تحطمه نهائيًا عشرون سنة من الاستبعاد؟ إن الماء يذيب الصخر. لماذا يعيش بعد ذلك؟ لماذا يذهب الآن وهو يعرف أن هذا سيحدث؟ سأل نفسه هذا السؤال مائة مرة منذ المساء السابق، ومع ذلك كان ذاهبًا..

* * *

(٨)

كان الظلام قد انتشر حين بلغ دار سونيا، وقد انتظرته طوال اليوم في قلق فظيع، وانتظرته دنيا معها، إذ جاءت منذ الصباح حين تذكرت قول سفدريجايلوف أن سونيا تعرف كل شيء... ولا نريد أن نروي حديث الفتاتين ودموعهما وارتباط أواصر الصداقة بينهما، وكسبت دنيا من هذه المقابلة شيئًا من العزاء، إذ عرفت أن أخاها لن يكون وحيدًا، فقد قصد سونيا أول إنسان ليعترف، وقصدها ليجد الزمالة البشرية التي يحتاج إليها، فهي ستتبعه حيث يبعثه القدر.. ولم تسأل دنيا عن ذلك، بل عرفت أن هذا سيكون. فنظرت إلى سونيا في نوع من التبجيل، مما كان يربك صديقتها، فكادت تبكي لأن سونيا كانت ترى نفسها غير خليقة بأن ترفع عينيها إلى دنيا، فإن الصورة العجيبة لدنيا وهي تحييها باهتمام واحتفال عند مقابلتهما لأول مرة لدى رسكولنكوف، ظلت مرتسمة في نفسها كأجمل الأحلام في حياتها..

وأخيرًا نفد صبر دنيا! فغادرت سونيا لتنتظر أخاها في مسكنه، فقد بدا لها أنه لا بد قادم إليه أولًا. فلما خرجت بدأت سونيا تتعذب، إذ خشيت أن يكون أقدم على الانتحار، وكانت دنيا تخشى ذلك أيضًا، وقد ظلت طول اليوم تقنع الواحدة منهما الأخرى بأن ذلك لن يكون، فكانتا أقل قلقًا وهما مجتمعتان، فلما افترقتا لم تكن إحداهما تفكر في غير ذلك. وتذكرت سونيا قول سفدريجايلوف لها في اليوم السابق أنه لم يبق أمام رسكولنكوف غير أمرين، إما سيبيريا وإما... ثم إنها تعرف فضلًا عن ذلك خيلاءه وكبرياءه وعدم إيمانه.

وفكرت أخيرًا في يأس: «هل من الممكن أن يدفعه الجبن وخشية الموت وحدهما إلى الإبقاء على حياته؟».

وكانت الشمس تغيب في هذه الأثناء، فوقفت سونيا في حزن أمام النافذة ترتقب في اهتمام، غير أنها لا ترى منها إلا الحائط القذر للدار المجاورة. وأخيرًا، في اللحظة التي لم تعد فيها تشك في موت الشاب، دخل رسكولنكوف إلى غرفتها..

فصدرت منها صرخة فرح، ولكن لونها امتقع عندما فحصت وجهه في عناية..

قال رسكولنكوف في ابتسامة مرة: «نعم، لقد جئت أبحث عن صليبك يا سونيا.. لقد طلبت إليّ أن أذهب إلى مفترق الطريق، فما بالك الآن تخافين إذ حلت الساعة؟».

نظرت إليه سونيا في دهشة، فقد بدت لهجته لها غريبة..

وسرت في سائر بدنها رعدة باردة، ولكن لم تلبث أن تبين لها أن اللهجة والكلمات مصطنعة، فهو يتحدث إليها ونظرته زائغة بعيدًا عنها، كأنه يتجنب النظر إليها.. وتابع كلامه قائلًا: «إنك ترين يا سونيا أني رأيت من الخير أن أسلك هذا المسلك، على أن هنالك أمرًا واحدًا.. ولكن قد يطول شرحه في روايته، وليس هذا وقته! أتعرفين فقط ما الذي يثير غضبي؟ إني أشعر بالغضب لمجرد التفكير في أن كل هذه الوجوه الخشنة الغبية ستلتفت إليَّ مباشرة تضايقني بأسئلتها السخيفة التي ينبغي أن أجيب عنها، وسيشير أصحاب الوجوه بأصابعهم إليَّ! تبًا لهذا! لن أذهب إلى بورڤيري! لقد شبعت منه! إني أفضل الذهاب إلى صديقي الضابط المتعجرف، فإنه سيدهش وسيكون تأثيري كبيرًا. ولكن يجب أن أكون أكثر هدوءًا فقد صرت حقًّا سريع الغضب.. هل تعلمين أني كدت أرفع قبضتي على أختي لمجرد رؤيتي لها وهي تستدير لتشاهدني للمرة الأخيرة؟ إنها لوحشية. فإلى أي حد وصلت؟ حسنًا.. أين الصليبان؟.

كان لا يكاد يعرف ما يفعل، فهو لا يستطيع أن يظل في مكان واحد، ولا يوجه انتباهه لشيء واحد، فأفكاره تتتابع وتجري الواحدة منها وراء الأخرى، وكان يتحدث في غير وضوح ويداه ترتعشان قليلًا.

وأخرجت سونيا في سكوت من أحد الأدراج صليبين، أحدهما من خشب والآخر من نحاس، ورسمت إشارة الصليب على نفسها ثم عليه، ثم علقت الصليب الخشبي حول عنقه..

فضحك قائلًا: «هذا رمز احتمالي الصليب كأني لم أتألم إلى الآن! إن الصليب الخشبي هو صليب الفلاحين، أما الصليب النحاسي فقد كان ملكًا

لليزاڤتا... فأنت تحتفظين به لنفسك. دعيني أشاهده. إذن كانت تحمله في تلك اللحظة؟ إني أعرف أيضًا شيئين مماثلين.. صليبًا من فضة وأيقونة تذكارية قذفت بهما على صدر العجوز، وكان من الواجب أن أضعهما الآن فهما أليق بي... إني أترك الموضوع الأساسي وأنسى المسائل الجدية. لقد صرت شارد الفكر. استمعي يا سونيا.. إني جئت لأنذرك لكي تعلمي... هذا كل شيء... لم آت إلا لهذا.. كنت أعتقد أن لدي أكثر من ذلك من أقوال، ولكنك أنت التي أردت أن أذهب فأعترف. حسنًا! هأنذا ذاهب إلى السجن، وفي ذلك تنفيذ لرغبتك فلماذا تبكين أنت أيضًا؟ كفي عن البكاء! كفي! كل هذا كريه لدي!».

وتغلب عليه التأثر وانقبض قلبه لرؤية دموعها، وكان يفكر: «لماذا تحزن هي أيضًا؟ ما قيمتي لديها؟ لماذا تبكي؟ لماذا تحنو عليَّ كما تفعل أمي وأختي دنيا؟ إنها ستكون زميلتي الساهرة عليَّ!».

توسلت إليه سونيا في صوت مرتعش خجول: «فلترسم علامة الصليب ولتصل مرة على الأقل!».

- سأصلي مرات كما تشائين يا سونيا ومن أعماق قلبي!

ومع ذلك لم يكن هذا ما أراد قوله.. ورسم علامة الصليب على نفسه عدة مرات، وتناولت سونيا شالها ووضعته فوق رأسها، وكان الشال من القماش الأخضر كما وصفه مرملادوف وسماه شال الأسرة. وقد مر في فكره هذا الخاطر ولكنه لم يسأل شيئًا، بل أخذ يشعر باضطراب فكري شديد وقلق متزايد، وأخذ يستولى عليه الخوف لذلك وكان متأثرًا بفكرة أن سونيا تريد الخروج معه.

وصاح لسونيا في ضيق وقد تحرك نحو الباب: «ماذا تفعلين؟ انتظري هنا! سأذهب وحدي!».

وتمتم وهو خارج: «ما الفائدة من الذهاب في موكب؟».

وظلت سونيا واقفة في الغرفة، ولم يقل لها حتى كلمة وداع، وقد نسيها بمجرد خروجه.. وبدأ الشك الأليم الثائر يساورها.

وفكر وهو ينزل السلم: «هل هذا هو الصواب؟ هل من سبيل إلى الرجوع والانسحاب... وعدم الذهاب؟».

ولكنه كان يتقدم دائمًا، وفهم فجأة أنه لم تبق فائدة من توجيه أسئلة لنفسه.. ولما وصل إلى الشارع تذكر أنه لم يودع سونيا، وأنه تركها في وسط الغرفة ورأسها مغطى بالشال الأخضر، وهي لا تجرؤ على التحرك بعد صيحته بها، فوقف لحظة.. وفي الوقت ذاته عرضت له فكرة واضحة في عقله كأنها لم تكن تنتظر إلا هذا لتتبين له عندئذ: «لماذا إذن؟ لماذا ذهبت عندها في هذه الساعة؟ لقد قلت لها إني جئت لأتكلم في أمور العمل. أي عمل؟ لم يكن هنالك أي نوع من العمل. هل أردت أن أقول لها إني ذاهب؟ ثم ماذا؟ هل كنت في حاجة إلى ذلك؟ هل أنا أحبها؟ لكن لا. لا. لقد أبعدتها عني الآن كما لو كانت كلبة.. ولكن هل كنت في حاجة إلى صلبانها؟ أوه. إلى أي حد سقطت للأعماق؟ لا.. إن كل ما كنت في حاجة إليه دموعها. وأن أرى قلبها يتألم. كنت في حاجة إلى شيء أتعلل به وأكسب به وقتًا وأرى وجهًا ودودًا. وقد جرؤت على أن أبدي الثقة في نفسي وأحلم بما سأفعله. حقًا. إني لتعس وحقير!».

وسار إلى جانب القناة، ولم يمتد طريق السير طويلًا حتى وصل إلى الجسر، فوقف ثم انحرف فجأة قاصدًا ساحة التبن، وكان يحدق إلى اليمين وإلى اليسار يتأمل في كل شيء باهتمام، ولكنه لا يستطيع تركيز فكرته، فكل شيء يغيب عنه، وكان يفكر في نفسه: «بعد أسبوع أو شهر من الزمان سأمر على هذا الجسر في عربة السجن، وحينئذ بأي عين أنظر إلى القناة؟.. هل سأذكر عندئذ فكرتي الحاضرة؟ وهذه العلامة.. كيف أقرأ حروفها يومئذ؟ إني أقرأ كلمة «شركة» وفي كتابتها حرف خاطئ.. هل سأذكر هذا وأنظر إليه بعد شهر من الزمان؟ ترى كيف سيبدو لي عندئذ؟ ماذا ستكون مشاعري وآرائي؟ ما أتفه ما ستكون عليه الأمور التي أهتم لها الآن! على أن لكل شيء قيمته بلا ريب.. ها! ها! ها! فيما أفكر؟ .. لقد صرت طفلًا. إني أخدع نفسي بالمظاهر، فلماذا؟ ما الذي يخجلني؟ لماذا يتزاحم الناس هكذا؟ هذا الرجل الضخم.. إنه ألماني بلا ريب. هذا الرجل الذي زاحمني.. هل يعرف فقط من ذا الذي زاحمه؟ هذه امرأة مع صغيرها تمد يدها للسؤال.. من الغريب أنها تعتقد أني أسعد منها. لو أني أستطيع أن أعطيها شيئًا لمجرد غرابة فكرتها! عجبًا. إن لديّ خمسة كوبك في جيبي. من أين أتت. خذي يا أماه!».

قالت السائلة في صوت باك: «حماك الله!».

وخرج من الطريق إلى ساحة التبن، وكان مما يؤلمه أن يكون وسط زحام، ومع ذلك فقد جاء حيث الناس أكثر عددًا. وكان رسكولنكوف يود لو يعطي كل ما يملك لكي يبقى وحيدًا، ولكنه شعر بأنه لن يبقى لحظة واحدة على انفراد، وقد رأى رجلًا سكيرًا عربيدًا التف حوله الناس، فهو

يريد أن يرقص ولكنه يسقط في كل مرة، فشق رسكولنكوف لنفسه طريقًا بين الجمع وألقى نظرة على السكير، ثم أطلق فجأة ضحكة قصيرة ولم تمض لحظة حتى نسيه، ولم يعد يراه وإن كان لا يزال ينظر إليه، وأخيرًا ابتعد عنه وهو لا يذكر أين هو، ولكن ما وصل إلى وسط الساحة حتى شعر بعاطفة استولت عليه روحًا وجسدًا..

لقد تذكر فجأة كلمة سونيا: «اذهب إلى الميدان واسجد وقبِّل الأرض التي دنستها بالإثم وقل للجميع في صوت عال: إني قتلت! فارتعد عندما جاءته هذه الذكرى، فقد كان محملًا بالآلام التي لا نهاية لها في هذه الأيام، ولا سيما الساعات الأخيرة، حتى أنه تعلق بهذه الفرصة التي قد تتيح له الشعور بإحساس كامل جديد وصريح، وتملكه هذا الشعور كأنه نوبة من النوبات، أو كأن شرارة اشتعلت في نفسه وانتشرت نارها في سائر بدنه فمزقت حواسه، وأسرعت الدموع إلى عينيه فجثا على ركبتيه في المكان نفسه الذي كان فيه..

ركع في وسط الساحة وسجد وقبَّل الأرض الموحلة في سعادة ولذة، ثم قام وسجد مرة أخرى..

وقال شاب إلى جانبه: «لقد لعبت به الخمر!».

فارتفع الضحك..

وأضاف رجل في صوت يدل على تأثير الشراب: «إنه مسافر بلا شك إلى القدس، وهو يودع أطفاله ووطنه ويحيي العالم بأجمعه ويقبل مدينة بطرسبرج وأرضها..».

ولاحظ ثالث: «ومع ذلك فإنه لا يزال شابًا..».

ولاحظ صوت آخر: «ومن أسرة طيبة!».

وقال آخر: «اليوم لا تمييز بين السادة وغيرهم!».

حالت هذه الملاحظات والاستفهامات دون أن ينطق رسكولنكوف بعبارة «إني قاتل» التي كادت تخرج من بين شفتيه، ولكنه قبل هذه الملاحظات في سكون، واندفع دون أن يلتفت خلفه سائرًا في طريق مركز الشرطة.. ولقد لمح قبل ذلك شيئًا لم يدهش له، ورآه طبيعيًا.. ففي اللحظة التي كان فيها على وشك السجود للمرة الثانية رأى إلى شماله سونيا على بعد خمسين خطوة منه وهي مختبئة وراء أحد الأكشاك الخشبية.. إذن فهي تتبعه في طريقه الأليم.. وحينئذ فهم رسكولنكوف وشعر شعورًا ثابتًا بأن سونيا ستكون معه إلى الأبد، وأنها ستتبعه إلى أقصى الأرض وحيثما تلقي به يد القدر... فاضطرب قلبه، ولكنه وصل إلى المكان المحتوم..

اجتاز الفناء بقدم ثابتة نسبيًا، وكان عليه أن يصعد إلى الطابق الثالث. وفكر: «إنه لا يزال أمامي وقت طويل..». وبدا له أن اللحظة الخطيرة لم تزل بعيدة، وأنه لا يزال في الوقت متسع للتفكير في أشياء كثيرة.

ووجد دائمًا الحثالة نفسها والقذارة نفسها في السلم ظاهرة للعيان، وأبواب الشقق والمطابخ مفتوحة على مصاريعها تفوح منها رائحة الطهي والدخان، ولم يكن رسكولنكوف قد أتى إلى هذا المكان منذ المرة السابقة، وكانت قدماه تتعثران تحته، ولكنه ظل في سيره.. ووقف لحظة ليسترد أنفاسه ويجمع قواه، كي يدخل كما يليق بالرجل. وكان يفكر وهو

يشعر بهذا الشعور: «ولكن لماذا؟ وما الفائدة؟ ما دام عليَّ أن أتجرع هذه الكأس فماذا تهم الطريقة؟ إن أسوأ الطرق هي خيرها!». ومرت في مخيلته صورة إيليا بتروڤتش الضابط المتضجر، فهل يجب أن يذهب ليراه؟... وهل يستطيع أن يخاطب آخر مثل نيكوديم فومتش مثلًا؟ هل يعود أدراجه ويذهب إلى مسكن رئيس الشرطة؟ هنالك على الأقل يتم الأمر في خفاء!.. «لا! لا! الضابط المتضجر! إذا كان من الواجب أن أتجرع الكأس فليكن ذلك في جرعة واحدة!».

وفتح باب المكتب وهو لا يكاد يكون في وعيه وقد برد جسمه! ولم يكن في ذلك اليوم عدد كبير من الناس. فلم يكن غير بواب وأحد الفلاحين، ولم يهتم له الحارس أي اهتمام، وفكر في نفسه: «ربما أستطيع حتى الآن أن أسكت».. وكان أحد الكتبة في ثياب عادية آخذًا في الجلوس على مكتب ليكتب شيئًا، وجلس زميل له في أحد الأركان، ولم يكن زاميتوف ولا نيكوديم فومتش موجودين.

وسأل رسكولنكوف الشخص الجالس إلى المكتب: «ألا يوجد أحد هنا؟».

– من تريد أن ترى؟

وصاح فجأة صوت مألوف لديه: «آه! إن العين لا ترى والأذن لا تسمع... ولكن هذه هي رائحة الروسي! أليس هذا ما تقوله القصص؟ حقًا لقد نسيت! إني في خدمتك!».

ارتعش رسكولنكوف، فإن الضابط المتضجر كان أمامه. فقد جاء من

الغرفة التالية، وفكر رسكولنكوف: «إنها يدر القدر! ما الذي جاء به إلى هنا؟».

وصاح إيليا بتروڤتش، ويظهر أنه كان مرحًا وربما من تأثير الشراب: «إنك تجيء عندنا؟ أي ريح طيبة جاءت بك! إذا كان الأمر متعلقًا بعمل فإن الوقت لا يزال مبكرًا، وأنا لم أوجد هنا إلا صدفة.. ولكني سأبذل جهدي يا سيدي العزيز! ماذا تريد؟.. معذرة يا سيد... رسكولنكوف؟.. نعم، رسكولنكوف! أتظن أني نسيت؟ أتظنني ممن ينسون؟.. إنك.. إنك روديون... رو.... رو.... روديونوفتش.. أليس كذلك؟».

– روديون رومانوڤتش..

– نعم. نعم. روديون رومانوڤتش. روديون رومانوڤتش. هذا ما كنت أبحث عنه. كنت أسأل كثيرًا عن أخبارك. وأعترف لك أني آسف حقًا منذ... منذ سلكت معك ذلك المسلك... وعرفت فيما بعد أنك أديب ناشئ، بل عالم في مطلع حياته... رباه. ولكن أين الأديب أو العالم الذي لم يبتدئ بالشذوذ في مسلكه؟.. إني وزوجتي نحب الأدب، وزوجتي شغوفة به حقًا. الأدب والفن! إنه فيما عدا شرف النسب يمكن اكتساب كل شيء آخر: الذكاء والعلم والعقل والنبوغ! وما شأن القبعة في ذلك؟ إن القبعة تشترى في سهولة كما تشتري الفطيرة! ولكن ما تحت القبعة وما تغطيه القبعة لا يمكن شراؤه. أعترف لك أني كنت راغبًا في زيارتك للاعتذار... ولكني نسيت الآن أن أسألك هل تريد شيئًا؟ لقد بلغني أن أسرتك جاءت لتقيم معك.

– نعم.. أمي وأختي.

- كان لي الشرف والسرور أن أقابل أختك.. إنها فتاة مهذبة جذابة، وأعترف لك أني آسف من أعماق قلبي على المشادة التي كانت بيننا. هذه هي الحقيقة.. أما الشكوك التي أثارها عندي إغماؤك فقد وضح كل شيء فيما بعد وضوحًا كافيًا. إنه التحمس والتعصب. وإني لأفهم غضبك.. هل غيرت سكنك لوصول أسرتك؟

- لا.. إني بكل بساطة.. مررت لأسأل... اعتقدت أني أجد زاميتوف هنا.

- سمعت أنكما مرتبطان برباط الصداقة.. لا. إن زاميتوف ليس هنا، لقد فقدناه ولم يعد هنا... وعند رحيله تعارك مع الجميع... بطريقة غير مؤدبة... فهو رجل متسرع لا عقل له... ومع ذلك كان الأمل فيه كبيرًا... ولكن هذا شأن شبابنا البارزين. وهو يريد أن يؤدي امتحانًا ما... وأعتقد أن هذا مجرد كلام وادعاء، وأن الأمر لا يتعدى ذلك، فهو ليس مثلك أو مثل صديقك رازوميهين، فإن مستقبلكما هو العلم ولا يمكن أن يفل الفشل من عزيمتكما. وأعتقد أنه لا قيمة لمتع الحياة لديك. فإنك رجل زاهد أقرب إلى الراهب المتعبد في صومعته، ترتفع روحك بالكتاب والبحث العلمي والقلم وراء أذنك! وأنا أيضًا أميل إلى ذلك، هل قرأت أسفار لڤنجستون؟

- لا!

- لقد قرأتها! إن عدد الفوضويين في زماننا كثير، ولكن ذلك لا يبعث على الدهشة، فأي عصر نعيش فيه؟ رباه! إنك طبعًا لست فوضويًا! أجب في صراحة، في صراحة!

- لا.

- أصدقني! إنك تستطيع أن تكون معي صريحًا كأنك تتحدث إلى نفسك! إن العمل شيء و... أظننت أني سأقول الصداقة؟ لا! فإن ذلك خطأ! لا أريد أن أذكر الصداقة... وإنما شعور الرجل والمواطن، أي الشعور بالإنسانية وحب العظيم القهار، فقد أكون شاغلًا لمنصب في الدولة، ولكن يجب أن أشعر دائمًا أني رجل ومواطن وأحاسب نفسي على ذلك... إنك تكلمت عن زاميتوف.. إن زاميتوف من النوع الذي يرتكب فضيحة في مكان سيئ السمعة يشرب فيه الشمبانيا ونبيذ مقاطعة الدون! هذا هو ما يصلح له زاميتوف، بينما أنا ربما كنت على سبيل المثال رجلًا مليئًا بالإخلاص والإحساسات الرقيقة، ولي فضلًا عن ذلك مقام ممتاز ومكانة ومنصب، ثم إني متزوج ورب أسرة وأقوم بواجبي كرجل ومواطن.. أما هو فما مركزه؟ اسمح لي بأن أتساءل.. إني أخاطبك كرجل شرفه العلم... انظر مثلًا... إن المولدات يتضاعفن بطريقة مبالغة!..

كان وجه رسكولنكوف يعبر عن دهشة صريحة، فإن عبارات إيليا بتروڤتش التي كان من الواضح أنه يلقيها بعد الأكل والشراب كانت ترن في أذنيه كأصوات خالية من المعنى، ولكنه فهم مع ذلك بعضًا منها! وكان ينظر إليه متسائلًا ولا يعرف كيف ينتهي...

واستمر إيليا بتروڤتش في ثرثرته: «إني أطلق اسم المولدات على الفتيات ذوات الشعور القصيرة، وأظنها تسمية موفقة! ها! ها! إنهن يذهبن إلى الأكاديمية ويدرسن التشريح، ولكن هل تنتظر مني إذا مرضت أن أدعو إحدى هؤلاء النسوة لتعالجني؟ ها! ها!» وضحك إيليا بتروڤتش وهو

كبير الرضاء عن نكتته ثم استمر يقول: «إن في هذا تحمسًا أكثر مما يجب للتعليم، وما دام الإنسان قد حصل على قسطه من التعليم فلماذا يغرق فيه؟ ولماذا نهين الشرفاء من الناس كما يفعل هذا الوغد زاميتوف؟ أتدري لماذا أهانني؟ وانظر إلى الذين يقدمون على الانتحار ما أكثرهم لدرجة لا يمكن تصورها. فالكثير من الناس ينفقون آخر ما لديهم من نقود ثم يقتلون أنفسهم، فتيات وشبانًا وكهولًا.. وفي هذا الصباح بالذات أخبرنا بحادث سيد وصل أخيرًا إلى المدينة.. ما اسم السيد الذي أطلق الرصاص على نفسه في هذا الصباح يا سيد بافلتش؟».

فأجاب صوت من الغرفة المجاورة في عدم اهتمام: «سفدريجايلوف!».

فذعر رسكولنكوف وصاح: «انتحر سفدريجايلوف؟».

– كيف؟ هل تعرف سفدريجايلوف؟

– نعم أعرفه.. وقد وصل منذ قليل.

– نعم، وصل منذ قليل بعد أن ماتت زوجته.. وهو رجل ذو عادات متهورة، وها هو يطلق الرصاص على رأسه بطريقة فظيعة... وقد كتب في مذكرته بضع كلمات.. إنه يفعل ذلك وهو في تمام عقله ويرجو ألا يتهم أحد بقتله، ويظن أنه كان ميسورًا. كيف حدث أن عرفته؟

– عرفته... لأن أختي كانت مربية لأطفاله.

– حسنًا.. حسنًا.. إذن تستطيع أن تمدنا ببعض المعلومات عنه.. ألم تشك في شيء؟

– لقد رأيته أمس، وكان يشرب نبيذًا... ولا أعرف عنه شيئًا.

وقد خيل إلى رسكولنكوف أن شيئًا سقط عليه وحطمه، فقال محدثه: «لقد امتقع لونك مرة ثانية! إن الجو هنا خانق!».

وغمغم رسكولنكوف: «نعم، يجب أن أخرج.. معذرة إذا كنت قد شغلتك عن عملك..».

– لا.. مطلقًا. إني رهن إشاراتك. لقد سببت لي سرورًا، وإني سعيد بأن أقول لك ذلك!

ومدّ إليه إيليا بتروڤتش يده فقال: «كل ما كنت أريده... أن أرى زاميتوف!».

– فهمت ذلك. فهمت ذلك. وقد كان لي السرور!

وقال رسكولنكوف في ابتسامة: «لقد سعدت بهذا الوقت... وإلى الملتقى!».

وخرج وهو يترنح، إذ كان رأسه يدور، وكان لا يشعر بساقيه وهو ينزل السلم ويستند إلى الحائط كي لا يسقط.. وبدا له أن بوابًا يحمل سجلًا مر به في صعوده إلى مكتب الشرطة، وأن كلبًا ينبح في الطابق الأسفل، وأن امرأة رمته بشيء وهي تصرخ فنزل وخرج إلى فناء الدار. وكانت سونيا واقفة على مقربة من الباب ممتقعة اللون يائسة وهي تنظر إليه بعينين تائهتين، فوقف أمامها وكان وجهه المتقلص يدل على اليأس، فضمت يديها فارتسمت على شفتي رسكولنكوف ابتسامة ألم فظيعة لا معنى لها، ثم وقف لحظة وضحك ورجع عائدًا..

كان إيليا بتروڤتش جالسًا يقلب أوراقًا وأمامه الفلاح الذي مر به في

السلم.

- آه. لقد عدت.. هل نسيت شيئًا؟ ولكن ماذا بك؟

وتقدم رسكولنكوف نحوه في بطء وقد امتقعت شفتاه وثبتت نظريته حتى صار أمام المنضدة، وأسند إليها يدًا وحاول أن يفوه بشيء ولكنه لم يستطع.. خرجت من حنجرته أصوات غير واضحة..

- إنك تشعر بألم، هاتوا كرسيًا! اجلس. اجلس. إليَّ بماء!

وارتمى رسكولنكوف على الكرسي، ولكن عينيه لم تتحولا عن وجه إيليا بتروڤتش الذي عرته دهشة غير سارة، وظل كل منهما ينظر إلى الآخر في سكون نحو دقيقة، وجيء بالماء..

وابتدأ رسكولنكوف: «إني أنا...».

- لتشرب قليلًا من الماء!

أزاح رسكولنكوف القدح، وقال في صوت خفيض ولكنه واضح وفي عبارات متقطعة: «إني أنا الذي قتل المرابية العجوز وأختها ليزاڤتا بضربات البلطة وسرق منهما..».

وكرر رسكولنكوف اعترافه...

خاتمة

(١)

إنه في سيبيريا في بلدة قائمة على ضفة نهر عريض، وهي إحدى المراكز الإدارية في روسيا. ففي هذه البلدة حصن، وفي هذا الحصن سجن حل به روديون رومانوفتش رسكولنكوف السجين من الطبقة الثانية منذ تسعة أشهر، وقد مضت نحو سنة ونصف سنة منذ ارتكب جريمته.

ولم تكن في محاكمته صعوبة، فقد ثبت المذنب على اعترافه في وضوح ومنطق، فلم يخلط في الوقائع ولم يحاول تغييرها أو تخفيفها أو إغفالها لصالحه، وفسر كل ظرف من ظروف الجريمة، فكشف سر الرهن ووصف في دقة كيف أخذ المفاتيح وأشكالها، كما وصف الصندوق ومحتوياته.. وفسر لغز مقتل ليزاقتا، وذكر كيف جاء كوخ وقرع الباب،

ثم مجيء الطالب، وأعاد كل ما قاله... ووصف نزوله جاريًا على السلم، وسماعه صيحات نيكولاي وديمتري، واختفاءه في الشقة الخالية، ثم عودته إلى مسكنه. وفي النهاية ذكر مكان الحجر في تلك الأرض الفضاء بشارع فزنزسكي، وفيها وجدت الحلي والنقود دون أن يمسها أحد. وكانت القضية في الواقع واضحة كل الوضوح، وقد دهش القضاة والمحامون لإخفاءه الحلي والنقود تحت حجر بدلًا من أن ينتفع بها، وكانت دهشتهم أكبر إذ إن رسكولنكوف لم يتذكر وصف الأشياء المسروقة وأخطأ في عددها، ولم يصدق أحد في مبدأ الأمر أن الجاني لم يفتح الكيس وأنه يجهل محتوياته، وقد وجد به ثلاثمائة وسبعة عشر روبل وستون كوبك، وقد تأثرت أوراق النقد الكبيرة بالرطوبة تحت الحجر. وظل رجال القضاء مدة طويلة يحاولون استجلاء السبب في أن يكذب رسكولنكوف في هذه المسألة، بينما كان اعترافه صريحًا صادقًا فيما عدا هذا. وأخيرًا أقر بعض المحامين الباحثين في علم النفس أنه قد يكون من المحتمل أنه لم يبحث محتويات الكيس ولم يعرف ما فيه حين وضعه تحت الحجر، ومن الطبيعي أن يستنتجوا من ذلك أن الجريمة لم ترتكب إلا تحت تأثير مرض عقلي مؤقت ولوثة قتل لا لغرض خاص ولا لمكسب، وطابق هذا الاستنتاج النظرية الحديثة السالفة القائلة بالجنون المؤقت التي تطبق الآن في بعض الجرائم. وقد ثبتت حالته المرضية بشهادة كثيرين، منهم الدكتور زوسيموف وزملاؤه القدماء وصاحبة مسكنه وخادمتها، وكانت هذه الأمور مجتمعة مما أدى إلى الاعتقاد بأن رسكولنكوف لم يكن قاتلًا عاديًا أو لصًّا بل إن له حالة خاصة.

على أن مما ضايق القائلين بهذا الرأي أن المتهم لم يكن يحاول الدفاع عن نفسه، فعندما سئل عن الدافع له على القتل أجاب في صراحة خشنة أنه الموقف التعس الذي كان فيه وفقره وقلة حيلته، ورغبته في ضمان الخطوات الأولى في مستقبله بفضل الثلاثة آلاف روبل التي قدر وجودها لدى العجوز، وهداه إلى القتل جبنه الطبيعي وتفكيره السطحي، وكان الحرمان والفشل حافزين له. وحين سئل عن الدافع له إلى الاعتراف أجاب صراحة أنه فعل ذلك لأنه ندم ندمًا خالصًا. وكان في كل هذا خشونة بادية.

وكان الحكم أكثر رأفة مما ينتظر. ولعل السبب في ذلك أن المتهم لم يحاول أن يخفف من جرمه، بل عمد فعلًا إلى المبالغة فيه، وقد نظر إلى الظروف الخاصة القريبة التي أحاطت بالجريمة بعين الاعتبار، فلم يكن في حالته المرضية وتعاسته عند الجريمة مجال للشك، وعُزي عدم انتفاعه بما سرقه إلى ندمه من ناحية وإلى حالة مرض عقلي من ناحية أخرى عند إقدامه على الجريمة، وكان مقتل ليزاڤتا مصادفة مما يؤيد هذا الرأي، فهذا رجل يرتكب جريمتي قتل الواحدة بعد الأخرى وينسى الباب مفتوحًا! وأخيرًا جاء الاعتراف بالقتل في اللحظة التي تعقدت فيها القضية تعقدًا لا مخرج منه بالجزم بعد الاعتراف الكاذب الصادر من نيكولاي تحت عوامل الحزن والتعصب، وحين لا يقوم أي دليل على المجرم الحقيقي ولا تدور حوله شكوك (فقد نفذ بورڤيري بتروڤتش ما وعد به تمامًا) فساعدت كل هذه الظروف على أن يستعمل القضاء الرأفة. وظهرت كذلك في صالح المجرم ظروف غير منتظرة، فقد أثبت رازوميهين أن رسكولنكوف كان وهو في الجامعة يساعد زميلًا فقيرًا مسلولًا بآخر درهم لديه، وظل ينفق

عليه مدة ستة أشهر ثم توفي هذا الزميل تاركًا أبًا شيخًا عاجزًا، وكان الأب يسعى لينفق عليه منذ الثالثة عشرة من عمره، فعمل رسكولنكوف على إدخاله إحدى المستشفيات ثم تحمل نفقات الدفن عند وفاته. وشهدت صاحبة المسكن الذي يسكنه أيضًا بأنه حين كان يعيش معها في مسكن آخر عند شارع الأركان الخمسة أنقذ رسكولنكوف صغيرين من حريق شب في مسكن وأصيب بحروق عند ذلك. وقد حققت هذه الوقائع تحقيقًا دقيقًا فأيدها كثيرون، فكانت كل هذه الظروف في صالحه.

وأخيرًا حكم على المتهم مع مراعاة هذه الظروف المخففة بالأشغال الشاقة من الدرجة الثانية لمدة ثماني سنوات فقط.

وقد مرضت والدة رسكولنكوف عند بدء القضية، فنجحت دنيا ورازوميهين في إبعادها من مدينة بطرسبرج أثناء نظرها، واختار رازوميهين بلدة على السكة الحديدية قريبة من العاصمة كي يستطيع تتبع القضية في انتظام ويرى في الوقت ذاته أفدوتيا رومانوڤنا كثيرًا بقدر المستطاع. وكان مرض پولكيريا ألكسندروڤنا من الأمراض العصبية الغريبة، وكان مصحوبًا بنوع من الاختلال العقلي الجزئي.

وعندما عادت دنيا من مقابلتها الأخيرة لأخيها وجدت أمها مريضة وهي فريسة للحمى والهذيان، فاتفقت في ذاك المساء مع رازوميهين على ما ينبغي أن يقولاه إجابة لأسئلة الأم عن رسكولنكوف، وألفا قصة كاملة عن اضطراره للسفر إلى مكان سحيق من روسيا في سبيل عمل يدر عليه مالًا وشهرة..

ولكن ما كان أشد دهشتهما حين لم توجه پولكيريا ألكسندروڤنا

إليهما سؤالًا في هذا الموضوع، بل روت لهما على النقيض من ذلك قصة ابتدعتها عن سبب سفر ابنها المفاجئ، فذكرت لهما والدموع تنحدر من عينيها أنه جاء لوداعها قبل سفره، وأشارت إلى أنها تعرف أمورًا مهمة وخفية لا يعرفها غيرها، وأن لروديا خصومًا أقوياء مما يضطره إلى الاختفاء، أما عن مستقبله فهي لا تشك في أنه سيكون لامعًا بعد التغلب على بعض الصعوبات القائمة، وأكدت لرازوميهين أن ابنها سيصير ذات يوم من عظماء رجال الدولة، والدليل على ذلك مقاله ومواهبه الأدبية البارزة. وكانت تقرأ هذا المقال بلا انقطاع، وتقرأه أحيانًا في صوت مرتفع، وتحفظه إلى جانبها عند النوم، ولكنها لا تسأل عن مكان روديا بالرغم من أن الذين حولها يتجنبون الحديث في هذا الموضوع بشكل ظاهر. وكان هذا خليقًا بأن يبعث الشك في نفسها.

وأخيرًا بدأ يساورهم الخوف من سكوت پولكيريا ألكسندروڤنا الغريب على بعض الأمور، فهي لا تشكو مثلًا من عدم كتابته إليها، بينما كانت في السنوات الماضية لا تعيش إلا على أمل وصول رسالة من ابنها روديا المحبوب، فكان هذا المسلك مثار قلق عظيم لدنيا، وطرأت عليها الفكرة بأن أمها لا بد شاعرة بوجود سر فظيع يتصل باختفاء روديا، وهي لا تسأل خشية أن تقف على ما هو أفظع، وعلى كل حال لاحظت دنيا في وضوح أن أمها لم تكن مالكة لقواها العقلية.

ومع ذلك فقد حدث مرة أو مرتين أن أرادت پولكيريا ألكسندروڤنا السؤال عن روديا بحيث كان من المستحيل الإجابة عنه دون ذكر المكان الذي يوجد فيه روديا، فإذا تلقت إجابات مبهمة وغير مقنعة تولاها الحزن

ولزمت الصمت. وظلت على هذا الحال مدة طويلة، ورأت دنيا أخيرًا أنه من الصعب خداعها، وتقرر لديها أن من الخير الصمت عن بعض الأمور. على أنه بدأ بوضوح أن الأم المسكينة تظن وقوع أمر مخيف، وتذكرت ما قاله أخوها إذ أشار إلى ما سمعته أمها من تحدثها أثناء نومها في الليل التالي لمقابلتها لسفدريجايلوف والسابق ليوم الاعتراف، فهل فهمت شيئًا مما سمعته؟ وكان يحدث أحيانًا بعد مضي أيام بل أسابيع في سكوت مظلم ودموع أن تصيبها فترة نشاط عصبي، فتأخذ المريضة في الكلام بلا انقطاع عن ابنها وآمالها في مستقبله... وكانت أوهامها في بعض الأحيان غريبة جدًا، فكانوا يوافقونها ويظهرون أنهم يفكرون مثلها، وربما لم يكن يخدعها ما يظهرون ولكنها لا تكف عن الحديث بالرغم من ذلك.

وصدر الحكم بعد خمسة أشهر من الاعتراف، وكان رازوميهين وسونيا يذهبان لرؤيته في السجن كلما سمح لهما بذلك، وأخيرًا حانت ساعة الفراق فأقسمت دنيا لأخيها بأن هذا الفراق لن يكون أبديًا، وأقسم رازوميهين معها على ذلك، فإن رازوميهين وهو في حماسة الشباب عزم عزمًا أكيدًا على أن يوطد أركان معيشته على الأقل في السنوات الثلاث أو الأربع القادمة بأن يجمع ما يمكنه من الهجرة إلى سيبيريا، وهي بلاد غنية بمواردها الطبيعية لا ينقصها غير اليد العاملة والمال، فيقيمون في البلد الذي يقيم فيه روديا... ويبدأون معًا حياة جديدة.. وقد ذرفوا الدموع جميعًا في ساعة الفراق..

وكان رسكولنكوف في الأيام السابقة لصدور الحكم ساهمًا مهمومًا من أجل أمه، كثير السؤال عنها دائم القلق عليها... وقد شغل نفسه بذلك

حتى أن دنيا جزعت لقلقه، ثم سمع بمرضها فصار عبوسًا حزينًا، وكان عندئذ شديد التحفظ مع سونيا. أما هي فقد أعدت العدة بفضل المال الذي تركه لها سفدريجايلوف كي تتبع موكب المحكوم عليهم الذي يذهب فيه رسكولنكوف إلى سيبيريا، ولم يحدث أبدًا أن تبادلا الرأي في هذا الموضوع، غير أن كلا منهما كان يعلم أن هذا سيحدث. وعندما حانت ساعة الوداع الأخير كان يبتسم ابتسامة غريبة للوعود المتحمسة من أخته ورازوميهين، وهما يتحدثان إليه عن المستقبل السعيد الذي ينتظرهم معًا بعد خروجه من السجن، وكان يشعر بأن مرض أمه ينتهي قريبًا إلى خاتمة محزنة، وأخيرًا رحل هو وسونيا..

وتزوجت دنيا بعد ذلك بشهرين من رازوميهين، وكان الاحتفال حزينًا هادئًا، ولم يدع إليه غير بورڤيري بتروڤتش وزوسيموف، وكانت تظهر على رازوميهين في ذلك الحين دلائل العزيمة الثابتة. وكانت دنيا تثق ثقة أكيدة بقدرته على تحقيق مشروعاته وتعتقد بها كل الاعتقاد، ولقد أظهر قوة إرادة نادرة وعاد إلى متابعة المحاضرات في الجامعة لكي يحصل على الدرجة العلمية، وكانا دائمًا يرسمان خطط المستقبل، وقد عقد العزم على الذهاب لسيبيريا للإقامة فيها بعد خمس سنوات، وإلى أن يحين ذلك الوقت كان اعتمادهما على سونيا.

وقد باركت پولكيريا ألكسندروڤنا في سرور زواج ابنتها من رازوميهين، ولكنها صارت بعد ذلك أشد حزنًا وهمًا، وأراد رازوميهين أن يدخل السرور إلى نفسها فقص عليها كيف عني ابنها بالطالب المسكين ذي الأب المشلول، وكيف أصيب ابنها بالحروق في السنة الماضية حين

عمل على إنقاذ طفلين في حريق، وبعثت هاتان القصتان في نفس پولكيريا ألكسندروڤنا روح الحماسة إلى درجة عجيبة، فكانت ترويها حتى للأغراب في الشارع مع أن دنيا كانت ترافقها دائمًا، فكانت إذا ظفرت بمن يستمع إليها في وسائل الانتقال وفي الحوانيت تأخذ في الكلام عن ابنها وفعاله، وكيف ساعد الطالب الفقير وكيف أصيب بحروق إلى غير ذلك.. ولم تكن دنيا تعرف كيف تمنعها عن الكلام، وهي تخشى عليها من هذا التحمس الناشئ عن المرض، كما تخشى أن يتذكر أحد الناس اسم رسكولنكوف فيتكلم عن محاكمته الغريبة.. ولقد اكتشفت پولكيريا ألكسندروڤنا عنوان أم الطفلين اللذين أنقذهما ابنها وأصرت على زيارتها..

وأخيرًا بلغ هياجها أقصى الحدود، فكانت تنخرط أحيانًا في البكاء، وكثيرًا ما يصيبها المرض وتعتريها الحمى حتى تغيب عن الصواب. وفي ذات صباح أعلنت أن روديا بحسب تقديرها لا بد أن يعود قريبًا، إذ تذكر جيدًا إنه عند وداعها أعلن أن تنتظر عودته بعد تسعة أشهر، فأخذت تستعد لهذه العودة بأن أعدت غرفتها له وشرعت في تنظيف الأثاث وغسل الستائر إلى غير ذلك... وكانت دنيا شديدة القلق عليها، ولكنها لم تقل شيئًا بل ساعدتها في ترتيب الغرفة.. وأمضت پولكيريا ألكسندروڤنا يومًا بين أحلام سعيدة وفترات بكاء، ثم انتابها مرض في أثناء الليل فما جاء الصبح حتى كانت قد فقدت وعيها، فقد أصيبت بالحمى في المخ وماتت بعد خمسة عشر يومًا. وقد صدرت منها أثناء الغيبوبة عبارات تبعث على الاعتقاد بأنها تعرف عن ابنها أكثر مما يظن..

وظل رسكولنكوف جاهلًا وفاة أمه مدة طويلة، بالرغم من اتصال

الرسائل بمجرد وصوله إلى سيبيريا، فكانت سونيا تكتب كل شهر بانتظام إلى أسرة رازوميهين وتتلقى من الأسرة الرد في انتظام، وكانت الرسائل الأولى التي أرسلتها سونيا جافة وغير كافية، ثم انتهى بهما الأمر إلى أن فهما أنه ليس من المستطاع الكتابة بأحسن من ذلك، فإن هذه الرسائل تصور حق التصوير لدنيا حياة أخيها التعس، فهي في الواقع مليئة بتفصيلات حياته الواقعية، وتصف في أبسط طريقة وأوضحها البيئة التي يعيش فيها رسكولنكوف مذنبًا محكومًا عليه. ولم تشر سونيا في هذه الرسائل بكلمة إلى أمانيها ومشروعاتها في المستقبل أو إلى عواطفها، وبدلًا من أن تحاول تفسير حالته العقلية وحياته الداخلية كانت تقتصر على ذكر الوقائع المجردة، فتنقل كلماته وتصف حالته الصحية وعما يسأل حين تقابله وما يكلفها به وغير ذلك، وتذكر هذه الأمور في تفصيل يبرز صورة الشاب التعس واضحة دقيقة لا خطأ فيها؛ لأنها قائمة على مجرد الوقائع.

وكانت هذه الأنباء لا تبعث على ارتياح دنيا وزوجها، ولا سيما في مبدأ الأمر، فقد كتبت إليهما سونيا تقول: إن رسكولنكوف عابس دائمًا، كثير الصمت لا يكاد يهتم للأنباء التي تأتيه من رسائلهما.. وكان يسألها أحيانًا عن والدته، ورأت سونيا أنه يكاد يشعر بالحقيقة فأخبرته بوفاتها، وكانت دهشتها كبيرة حين لم يظهر عليه التأثر كثيرًا. على الأقل خارجيًا، وقد أخبرت سونيا مراسلها أنه بالرغم من انطوائه على نفسه وبعده عن الناس جميعًا، فإنه ينظر نظرة بسيطة ومباشرة لحياته الجديدة، وهو يفهم مركزه تمامًا، ولا ينتظر ما هو خير منه الآن، ولا يبني آمالًا كاذبة كما يحدث كثيرًا في مثل حالته، ولا يدهش لشيء مما يحيط به على الرغم من اختلافه

عما ألفه إلى تلك اللحظة. وكانت حالته الصحية تبعث على الرضا، فهو يذهب إلى عمله من غير أن يحاول التخلص منه أو الزيادة فيه، ولا يهتم لغذائه، على أن هذا الغذاء كان سيئًا للغاية في غير أيام الآحاد والأعياد، حتى انتهى الأمر لأن قبل بعض النقود من سونيا كي يستطيع شرب الشاي في كل يوم، وفيما عدا ذلك كان يرجوها ألا تهتم له كثيرًا، فإن هذا الاهتمام من حوله مما يضايقه. وكتبت سونيا تروي أيضًا أنه يشترك في السجن مع بقية المذنبين في غرفة واحدة، وهي لم تر داخل المعسكر ولكنها تعلم أن المكان يضيق بهم وأن الجو موبوء وغير صحي، وينام رسكولنكوف على سرير من ألواح الخشب وضعت عليه سجادة، وهو لا يريد غير ذلك، لا عن مبدأ أو فكرة رسمها بل عن عدم اهتمام وعدم عناية.

وكتبت سونيا في بساطة أنه لم يكن في مبدأ الأمر يهتم لزياراتها، بل يبدو عليه الضيق بهذه الزيارة، ولا يريد التحدث إليها بل يعاملها في خشونة، ولكن هذه الزيارات صارت فيما بعد عادة بل ضرورة، فكان وجلًا عندما مرضت عدة أيام فلم تستطع زيارته، وكانت تراه أيام الأعياد عند باب السجن أو في غرفة الحرس حيث يحضرونه بضع دقائق، أما في أيام العمل فكانت تذهب لرؤيته، وهو يعمل إما في مصنع السجن أو في أفران قوالب الطوب أو في الحظائر المقامة على نهر الإرتيش.

وكتبت سونيا تقول فيما يختص بها إنها استطاعت أن تنشئ علاقات ومعارف في المدينة، فقد كانت تعمل في حياكة الثياب، ولما كانت المدينة ينقصها الحائكون فقد صارت لا يستغنى عنها في الكثير من المنازل، ولكنها لم تذكر أنه كان لها الفضل في عناية أصحاب الشأن برسكولنكوف، فكانوا

يجنبونه الأعمال المضنية وما ماثل ذلك.

وجاءت الأنباء أخيرًا- وكان في الرسائل السابقة ما يدل على الذعر والقلق- بأن رسكولنكوف يتجنب الناس، وأن زملاءه في السجن لا يحبونه، وأنه يلزم الصمت أيامًا كاملة، وأنه قد صار شاحب اللون.. ثم جاءت آخر رسالة تعلن عن مرضه الخطير، وأنه نقل إلى قسم المساجين بالمستشفى.

***

(٢)

ظل مريضًا مدة طويلة، ولم يكن ذلك لفظاعة حياة السجن وما فيه من عمل مرهق أو طعام سيئ، أو للخجل من رأسه الحليق وثيابه المرقعة، فماذا يهمه من هذه التجارب والمصاعب؟ لقد كان يرحب بالعمل المضني، فإن الإنهاك الجسدي مما يساعده على الأقل على أن ينام نومًا هادئًا بضع ساعات.. وماذا يهمه من الطعام وذاك الحساء الذي تسبح فيه الخنافس؟ لقد كان فيما مضى وهو طالب لا يحصل أحيانًا على مثل هذا الحساء، وكانت ثيابه تبعث فيه الدفء وتتناسب مع الحياة التي يحياها، ولم يكن يشعر حتى بثقل أغلاله. هل كان يخجل من رأسه الحليق أو قميصه ذي اللونين، أمام من؟ أمام سونيا؟.. إن سونيا تخشاه، فكيف يخجل أمامها؟ ومع ذلك كان يخجل فعلًا أمام سونيا، وكان يعذبها لذلك بمسلك الاحتقار والخشونة.. على أن الخجل لم يكن ناشئًا عن رأسه الحليق ولا عن أغلاله، وإنما لأن

كبرياءه قد جرحت، وهذا الأمر وحده هو الذي أدى إلى مرضه، وكان يود أن يكون سعيدًا لو أنه تمكن من اتهام نفسه. وكان يستطيع عندئذ أن يتحمل كل شيء، حتى الاحتقار والفضيحة، ولكنه فحص نفسه في شدة فلم يجد ضميره المعذب في ماضيه أي ذنب عظيم، ولم يجد غير عثرة بسيطة قد يقع في مثلها الناس جميعًا.. على أن ما يخجل منه بنوع خاص أنه- وهو رسكولنكوف بذاته- قد أصابه ما أصابه من الحزن بلا أمل وفي غباوة من جراء تحكم القدر الظالم، وأن عليه أن ينحني ويخضع أمام سخافة الحكم الذي صدر عليه إذا رغب في شيء من الهدوء..

فلم يبق أمامه إذن إلا قلق غامض لا غاية منه في الوقت الحاضر، والتضحية المستمرة في المستقبل.. وماذا يجد من عزاء في أنه بعد ثماني سنوات لن تزيد سنه عن اثنتين وثلاثين سنة ويستطيع أن يبتدئ في حياة جديدة؟ فلأي شيء يعيش وإلام يتطلع؟ ولم يناضل؟ أيعيش لكي يبقى في الحياة؟ لقد كان على استعداد ألف مرة من قبل لأن يضحي بحياته من أجل فكرة، ومن أجل أمل، بل من أجل وهم.. فمجرد البقاء ليس له قيمة عنده، بل كان دائمًا يريد أكثر من ذلك.. ومع ذلك ربما كانت قوة رغباته هي التي دفعته إلى الاعتقاد بأنه من أولئك الرجال الذين يسمح لهم القانون أكثر من غيرهم.

لو أن القدر ساق إليه الندم، ذلك الندم الذي يمزق القلب ويطرد عنه النوم، وشعر بوطأة عذابه حتى يتمنى لو يضع الحبل في عنقه أو يقذف بنفسه إلى الماء.. إذن لكان سعيدًا. فما الآلام والدموع إلا الحياة، ولكنه لم يندم على جريمته..

وكان من المستطاع عندئذ أن يؤنب نفسه على سخافته، كما أنب نفسه من قبل على الأخطاء والفجيعة التي أدت به إلى السجن. ولكنه بعد أن نزل السجن وصارت أمامه حرية التفكير، أخذ ينعم الفكر في تصرفاته وينقدها، فلم يجد فيها من الأخطاء العجيبة ما ظنه في الوقت الماضي العصيب.

وأخذ يسائل نفسه: لماذا كانت نظريتي أسخف من غيرها من النظريات التي كانت تتزاحم وتتلاطم منذ بدء الخليقة؟ إني كلما نظرت إلى المسألة من وجهة مستقلة واسعة بعيدة عن التأثيرات المعتادة، بدا لي أن فكرتي ليست غريبة إلى أبعد حد.. أيها المتشائمون والفلاسفة المترخصون، لماذا تقفون في منتصف الطريق

وقال لنفسه: لماذا يظهر لهم عملي فظيعًا إلى هذا الحد؟ ألأنه ينطوي على جريمة؟ وما معنى كلمة الجريمة؟ إن ضميري لهادئ. ومما لا ريب فيه إني ارتكبت جريمة قانونية، فانتهكت نص القانون، وسفكت دماء، ويجب أن أعاقب إذن من أجل نص القانون وكفى. وفي هذه الحالة كان يجب في أول خطوة عقاب الكثيرين ممن أفادوا البشرية ولم يرثوا السلطة وإنما انتزعوها بالقوة.. ولكن هؤلاء نجحوا في عملهم فاعتبروا على حق، أما أنا فلم أنجح ولذلك لم يعد لي الحق في اتخاذ الخطوة الأولى.

لم يكن يعترف بجرمه إلا من هذه الناحية، أي إنه لم ينجح واعترف بجريمته..

وكان يتألم أيضًا لأنه لم ينتحر، فلماذا وقف ينظر إلى النهر ثم فضل الاعتراف؟ وهل كانت الرغبة في الحياة شديدة حتى ليصعب التغلب عليها؟ ألم يتغلب عليها سفدريجايلوف مع أنه كان يخشى الموت؟

كان يسأل نفسه هذا السؤال وهو يشعر بالتعاسة، ولم يفهم أنه ربما كان يحس، في اللحظة التي وقف فيها ينظر إلى النهر، بما في معتقداته وفي نفسه من خطأ أساسي وزيف، ولم يفهم أن هذا الشعور هو مقدمة لأزمة مستقبلة تتبع نظرة جديدة إلى الحياة ثم بعث جديد.

لقد فضل أن يعزو هذا الشعور إلى قوة الغريزة التي لم يستطع مقاومتها نتيجة لضعف وحقارة، وقد نظر إلى زملائه في السجن ودهش إذ رآهم جميعًا يحبون الحياة ويحرصون عليها، وخيل إليه أنهم يحبونها ويقدرونها وهم في السجن أكثر مما يفعلون وهم طلقاء، فأي عذاب يتحمله البعض منهم في سبيلها! فالمتشردون مثلًا ما أعظم ما يقدرون شعاعًا من أشعة الشمس أو الغابة العذراء أو عين ماء باردة في مكان سحيق رأوها منذ ثلاث سنوات.. إنهم يفكرون فيها كما يفكر الإنسان في عشيقة، ويحلمون بالخضرة المنبسطة التي تحيط بها وبتغريد الطير في الأدغال حولها. وكان كلما أوغل في الملاحظة كلما لقي أمثلة أكثر من ذلك لا يمكن تفسيرها..

وكانت في السجن بلا ريب أشياء كثيرة لا يراها ولا يريد أن يراها فكان يعيش وقد غض من ناظريه، فقد كان النظر إلى ما حوله كريهًا ممقوتًا، ولكنه انتبه أخيرًا إلى الكثير من الأمور، وأخذته الدهشة، إذ لم يكن يتوقعها. والذي أثار أكبر دهشته بنوع عام هو تلك الهوة السحيقة التي تفصل بينه وبين الآخرين جميعًا، حتى ليظن أنهم من جنس آخر.. فكان ينظر إليهم وينظرون إليه في عدم ثقة وعداء، وكان يشعر ويفهم أسباب وحدته، ولكنه لم يكن ليعرف إلى ذلك الوقت إلى أي حد بلغت هذه الأسباب من القوة والعمق، وكان يوجد في سجنه بعض البولونيين

الذين نفوا من أجل السياسة، وكان هؤلاء ينظرون إلى الآخرين على أنهم جهلة متوحشون ويحتقرونهم، ولم يستطع رسكولنكوف مشاطرتهم هذه النظرة، فقد تبين له أن هؤلاء الجهلة أرجح عقلًا من البولونيين في وجوه كثيرة.. وكان هناك روسيون يحتقرون غيرهم، وهم ضابط سابق و اثنان من المدرسين، ورأى رسكولنكوف خطأهم أيضًا في وضوح، أما هو فكان غير محبوب يتجنبه الجميع، وأخذوا يشعرون بالكراهية نحوه.. ولم يعرف السبب في ذلك، وكان بعض الذين ارتكبوا جرمًا أكبر من جرمه يحتقرونه ويسخرون من جريمته، كانوا يقولون له: «إنك من السادة، ويجب ألا تستعمل البلطة، فليس هذا من شأن السادة..».

وفي الأسبوع الثاني من شهر الصيام جاء دوره لتناول العشاء المقدس مع رفاقه، فذهب إلى الكنيسة وصلى مع زملائه، ولا يعرف كيف نشب بينه وبينهم عراك فهاجمه الجميع في شدة وصاحوا به: «ملحد لا تعتقد في الله ويجب قتلك!».

ولم يكن قد تحدث إليهم قط في أمر الله أو في العقيدة، ومع ذلك أرادوا أن يقتلوه على أنه ملحد، فلم يرد عليهم.. وهجم عليه أحد المسجونين وهو في شدة الحنق، وانتظره رسكولنكوف في صمت وهدوء ولم ترتعش أهدابه ولم تتحرك عضلات جسمه.. على أن الحارس تمكن من أن يحول بينه وبين مهاجمه، ولولا ذلك لسالت دماء...

وكان لا يجد حلًا لمسألة أخرى: لماذا يراهم جميعًا يحبون سونيا هذا الحب الكبير؟ فهي لم تكن تعمل لإرضائهم، ولم تكن تقابلهم إلا نادرًا، فلا يرونها إلا بعض الأحيان حين تأتي لتراه لحظة في عمله، ولكنهم

كانوا جميعًا يعرفونها ويعرفون أنها تتبعه إلى ذاك المكان، ويعرفون أين وكيف تعيش، ولم تكن تعطيهم نقودًا ولا تقوم لهم بخدمات خاصة، غير مرة واحدة أهدت فيها لجميع أهل السجن هدية من خبز أبيض وفطائر في عيد الميلاد، ولكن العلاقات توطدت بينها وبينهم تدريجيًا، فكانت تكتب الرسائل لأقاربهم وترسلها بالبريد، وإذا جاءهم قريب لزيارة المدينة طلبوا إليه أن يترك الهدايا والنقود التي يحملها لأجلهم لدى سونيا. وكانت زوجات المسجونين وعشيقاتهم يعرفنها ويزرنها، وإذا ما زارت رسكولنكوف في عمله أو قابلت جماعة منهم رفعوا لها قبعاتهم للتحية، ويخاطب رجال خشنون مدموغون بطابع الجريمة هذه الفتاة الضعيفة الفقيرة قائلين: «إنك يا صوفيا أمنا الرقيقة المحبوبة»، فتبتسم وتنحني ويلتفتون ليتبعوها بأعينهم، وكانوا يعجبون حتى بضآلة جسمها.. والواقع أنهم يودونها لكونها صغيرة السن ولا يدرون أي صفاتها أخلق بالإعجاب.. وكانوا يلجأون إليها حتى في مرضهم.

ظل رسكولنكوف في المستشفى من منتصف الصيام إلى ما بعد عيد القيامة، فلما تحسنت حالته أخذ يتذكر الأحلام التي انتابته تحت وطأة الحمى، فقد حلم أن العالم بأسره أصبح ضحية لوباء جديد غير معروف حل بأوروبا آتيًا من أعماق آسيا، يهلك فيه الجميع إلا عدد مختار، فهاجمت أجساد البشر جراثيم من أنواع جديدة، ولكن هذه الجراثيم ذات عقل وإرادة، فكان الذين يصابون بها يصابون بالتهيج والجنون، ولكن ما من أحد يعتقد في ذكائه وقوة عقله مثل هؤلاء المصابين، أو في دقة حكمه واستنتاجاته العلمية ومبادئه وعقائده مثلهم.. وأصيبت بهذا المرض قرى

ومدن وأمم، فصاروا جميعًا في اضطراب لا يستطيعون التفاهم فيما بينهم، يعتقد كل منهم أنه الوحيد الذي يعرف الحقيقة، وهو يتألم إذ يرى خطأ الآخرين، فيقرع صدره ويبكي، ويضرب كفًا بكف.. ولم يعودوا يعرفون كيف يحكمون على الأمور، ولا يتفقون على ما هو الخير وما هو الشر، وما هو موضوع اللوم وما هو موضوع الثناء.. وكان الناس يقتل بعضهم بعضًا في حنق سخيف، يجرون الجيوش للقتال ولكن هذه الجيوش نفسها وهي في سيرها تتنازع وتختل صفوفها، ويتقاتل رجالها فيما بينهم ويتناحرون ويأكل بعضهم بعضًا.. ويقرع ناقوس الخطر بلا انقطاع في المدن يدعو الناس للتجمع، ولكنهم لا يعرفون الغرض ولا الذي يدعوهم.. وقد ترك الناس أبسط الحرف المعتادة؛ لأن كلًا منهم أراد أن يفرض آراءه ونظامه فلم يتفقوا.. وأهملت الأرض أيضًا فلم تزرع، وكان الناس يتجمعون في بعض الأماكن جموعًا ويتفاهمون على القيام بعمل مشترك، ويقسمون على التكاتف ثم لا يلبثون أن يأتوا من الأعمال غير ما اتفقوا عليه، ويأخذ كل فريق في اتهام الفريق الآخر، فيتنازعون ويتقاتلون.. وقد انتشرت الحرائق وعم القحط وساد الدمار والخراب، وظهر الطاعون وانتشر بين الناس ولم ينج منه في العالم غير القليل من بني البشر الأطهار الأخيار، الذين قدر لهم أن ينشئوا نسلًا جديدًا وحياة جديدة، وأن يطهروا الأرض ويجددوها، ولكن لم ير أحد قط هؤلاء ولم يسمع أحد صوتهم وكلماتهم..

وقد قلق رسكولنكوف إذ ظل هذا الحلم الذي لا معنى له عالقًا بذاكرته تاركًا أثره المحزن المؤلم مدة طويلة، وجاء الأسبوع الثاني بعد عيد القيامة وجاءت معه أيام من أيام الربيع الحارة الصحوة، وفتحت النوافذ ذات

القضبان الحديدية التي يقف تحتها الحارس في غرفة مستشفى المساجين، ولم تستطع سونيا زيارة رسكولنكوف أثناء مرضه غير مرتين، وكان عليها في كل مرة أن تحصل على ترخيص بالزيارة، ولا تمنحه الإدارة إلا في صعوبة، ولكنها كثيرًا ما كانت تأتي إلى فناء المستشفى لا سيما في المساء، ولا غرض لها إلا أن تقف قليلًا وتنظر من بعيد إلى نافذة الغرفة.

وفي ذات مساء كان رسكولنكوف قد نام بعد الظهر وقد كاد يبرأ من مرضه، ثم استيقظ واقترب مصادفة من النافذة فرأى سونيا من بعيد على مقربة من باب المستشفى، وكان يبدو عليها أنها تنتظر أحدًا، فانقبض قلبه فجأة كأنه أصيب بطعنة، وارتعش وابتعد عن النافذة. ولم تأت سونيا في اليوم التالي ولا اليوم الذي تلاه، ولاحظ أنه ينتظر قدومها في قلق، وأخيرًا استطاع أن يغادر المستشفى. وعندما عاد إلى السجن علم من زملائه أن صوفيا سميونوفنا مريضة طريحة الفراش ولا تستطيع الخروج، فانتابه القلق الشديد عليها وأرسل من يسأل عنها، فعلم أن مرضها لم يكن خطيرًا. ولما بلغ سونيا أنه قلق من أجلها أرسلت إليه رسالة كتبت بقلم الرصاص، تخبره أن صحتها تحسنت كثيرًا وأنه أصابها برد خفيف الوطأة، وأنها ستأتي في القريب العاجل لزيارته في عمله، وكان قلبه يخفق في شدة وهو يقرأ رسالتها.

وفي الساعة السادسة من صباح يوم دافئ صاحٍ ذهب للعمل على شاطئ النهر، حيث كانوا يقومون بالخبز في فرن قائم في حظيرة قريبة، وأرسل ثلاثة في هذا العمل. وقد ذهب أحد المساجين مع حارس إلى الحصن ليأتي بأداة من الأدوات، وأخذ الثاني يقطع أخشابًا ليوقد بها الفرن، وخرج

رسكولنكوف من الحظيرة إلى ضفة النهر، وجلس على كومة من كتب الأخشاب إلى جانبها، وأخذ يتأمل منظر النهر المتسع المهجور، وكان يرى أمامه المنظر المتسع من الضفة العالية التي جلس عندها ويصل إلى أذنيه صوت غناء خافت من الضفة الأخرى، ويرى في الفضاء الواسع الذي تغمره أشعة الشمس خيام البدو الرحل تبدو كنقط سوداء، فهنالك الحرية وهنالك يسكن رجال يختلفون كل الاختلاف عن الرجال الموجودين هناك، وكأن الوقت لم يمر بهم، وكأن عصر إبراهيم الخليل وقطعانه لا يزال قائمًا.. وظل رسكولنكوف يتأمل، وتحولت أحلام نهاره إلى تأمل، وكان لا يفكر في شيء، غير أنه قد ساوره نوع من القلق الغامض، وإذا به يرى سونيا فجأة وقد جاءت في هدوء وجلست إلى جانبه.. وكان الوقت مبكرًا وبرد الصباح لا يزال شديدًا، وهي ترتدي معطفها القديم الذي يدل على الفاقة وشالها الأخضر وعلى وجهها آثار المرض، فهو أكثر نحولًا وامتقاعًا.. وقد ابتسمت له ابتسامة ترحاب، ولكنها دست إليه يدها في خجلها العادي، وكانت دائمًا تشعر بالخجل حين تمد يدها إليه، وأحيانًا لا تقدم يدها إليه كأنها تخشى أن يرفضها، وكان دائمًا يقبض على يدها وكأنه يفعل ذلك متضايقًا، ويبدو عليه الضيق دائمًا حين يقابلها، وأحيانًا يأخذه نوع من العناد فيلزم الصمت طول زيارتها.. وكانت أحيانًا ترتعد أمامه وتتركه متألمة محزونة، أما الآن فإن أيديهما لم تفترق، وقد نظر إليها نظرة سريعة ثم خفض عينيه إلى الأرض دون أن يتكلم، وكانا على انفراد لم يرهما أحد، وقد انتحى الحارس ناحية أخرى.

لم يدر ما حدث، ولكن كأن شيئًا أمسك به وقذفه تحت قدميها وأخذ

يبكي، وطوق ركبتيها بذراعيه، فاستولى عليها في اللحظة الأولى رعب شديد، وامتقع لونها وهبت واقفة ونظرت إليه وهي ترتعد، ولكنها في الوقت ذاته فهمت كل شيء وأضاءت عيناها بضوء السعادة التي لا تنتهي، فقد عرفت ولم يعترها الشك أنه يحبها أكثر من كل شيء، وأن اللحظة المحتومة قد حانت أخيرًا...

أرادا أن يتكلما، ولكنهما لم يستطيعا الكلام، فقد ملأت الدموع عينيهما، وكانا نحيلين ممتقعي اللون، ولكن هذين الوجهين المريضين كانا يتلألآن بضوء فجر مستقبل جديد وبعث في حياة جديدة، إذ تجددت حياتهما بالحب وامتلأ قلب كل منهما بمنبع الحياة الذي لا ينتهي لقلب الآخر..

وعقدا العزم على الانتظار والصبر، فأمامهما سبع سنوات أخرى ينتظرانها، وما أفظع ما أمامهما من عذاب، وما أكثر سعادتهما إلى ذلك الحين.. ولكنه قد نشأ من جديد، وقد عرف ذلك وشعر به في سائر بدنه، أما هي فكانت تعيش فقط في حياته..

وفي مساء ذلك اليوم، حين أغلقت أبواب المعسكر، رقد رسكولنكوف على سريره من الألواح الخشبية وظل يفكر فيها، بل خيل إليه في ذاك اليوم أن المساجين الذين كانوا له خصومًا صاروا ينظرون إليه نظرة أخرى، وحين تدخل معهم في الحديث كانت إجاباتهم تنم على ود، وتذكر ذلك الآن ورأى أن من الواجب أن يكون الأمر كذلك.. أليس من الواجب أن يتغير كل شيء؟

فكر فيها، وفكر كيف استمر يسومها العذاب ويجرح قلبها، وتذكر

وجهها النحيل الممتقع، ولكن هذه الذكريات لم تكد تقلقه، فقد عرف إلى أي حد من الحب الذي لا ينتهي سوف يعوض آلامها. وما قيمة الآلام- آلام الماضي؟ وبدا له كل شيء- حتى جريمته والحكم عليه والسجن- أمرًا خارجيًا غريبًا عنه لا شأن له به، ولكنه لم يكن ليستطيع التفكير طويلًا في أمر واحد في ذاك المساء، ولا يحلل شيئًا عن قصد، فقد كان مجرد فيض من الشعور، إذ حلت الحياة محل النظريات ولا بد أن يخرج من عقله شيء مختلف كل الاختلاف..

وقد وضع كتاب العهد الجديد تحت وسادة النوم، فتناوله بحركة آلية.. وكان هذا الكتاب ملكًا لسونيا، وهو الذي قرأت له منه بعث أليعازر، وكان في مبدأ الأمر يخشى أن تلحف عليه في الحديث عن الدين، وتتكلم عن الإنجيل وترهقه بالكتب، ولكن ما كان أشد دهشته حين لم تطرق هذا الموضوع مرة واحدة، ولم تقدم له حتى هذا الكتاب، بل هو الذي طلبه منها قبل مرضه بزمن قصير، وجاءته به دون أن تفوه بكلمة، ولم يكن فتحه حتى تلك اللحظة..

ولم يفتحه الآن، ولكن مرت في ذهنه فكرة واحدة هي: «هل يمكن أن تكون معتقداتها غير معتقداتي، أو على الأقل مشاعرها وأمانيها؟..».

أما هي فكان اضطرابها شديدًا في ذاك اليوم، وعاودها المرض في تلك الليلة، وكانت سعيدة سعادة غير منتظرة حتى كادت تخشى هذه السعادة! أمامها سبع سنوات، سبع سنوات فقط! وكانا ينظران في بدء سعادتهما إلى تلك السنوات السبع على اعتبار أنها سبعة أيام، ولم يكن يعرف أن الحياة الجديدة لا توهب بلا مقابل، وأنه يجب أن يدفع ثمنها غاليًا، وأنها ستكلفه

مجهودًا كبيرًا وآلامًا كثيرة..

ولكن هذا بدء قصة أخرى- قصة تجدد رجل تدريجيًا، وقصة بعثه تدريجيًا، وانتقاله من عالم إلى آخر، ودخوله في حياة جديدة مجهولة، وقد يكون موضوع قصة جديدة. أما هذه القصة فقد انتهت..

* * *